جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

ابنة الزهراء وبطلة الفداء

زينب

رضى الله عنها

تأليف

الأستاذ على أحمد شلبى

تقديم

بقلم فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود
وزير الأوقاف وشئون الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه الى يوم الدين •

وبعد :

فيقول الله سبحانه وتعالى :

« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ••

ونحن مأمورون بالاقتداء بالنبى صلى الله عليه وسلم ومن سار على سنته من أهله وأصحابه ومن اتبع هديه ••

وقد أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباع سنة الخلفاء الراشدين ، والتمسك بأهل بيته ونحو ذلك •• ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما روى عن العرباض بن سارية قال :

« وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع فأوصنا•فقال : أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وان تأمر عليكم عبد حبشى ، وانه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ ، واياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » •

ومن ذلك ما رواه الامام مسلم فى صحيحه ــ بسنده ــ عن زيد بن أرقم قال :

« قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فينا خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ووعظ وذكر ، ثم قال :

« أما بعد ، ألا أيها الناس ، فانما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين ، أولهما : كتاب الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال : وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى •• فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته •• ؟ قال : نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده •• قال : ومن هم ؟ قال : هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس •• قال : كل هؤلاء حرم الصدقة؟ •• قال : نعم ••

وقد جمع آل بيته الشريف بين فضل الصحبة وفضل القرابة ، وبين فضل القرابة وفضل التبع ، روى الترمذى بسنده عن جابر بن عبد الله قال :

« رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجته يوم عرفة وهو على ناقته القصواء يخطب ، فسمعته يقول :

يا أيها الناس ، انى تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتى أهل بيتى » •

وروى بسنده عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى ، أحدهما أعظم من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض،وعترتى أهل بيتى ، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما » •

والسيدة زينب بنت على رضى الله عنها ممن جمع بين القرابة والتبع، ان أمها فاطمة الزهراء ، أحب أولاد الرسول صلى الله عليه وسلم اليه ، وأقربهم الى قلبه ونفسه ، وجدها هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبوها هو على بن أبى طالب رضى الله عنه أول من دخل فى الاسلام ، وله من المناقب مالم يجتمع لغيره من الصحابة فضلا عن غيرهم من الناس ••

ومعنى ذلك أنها قد جمعت بين كرم الأصل وشرف النسب والحسب،

وأنها تمثل عنصرا ايمانيا رائدا ، خاصة فيما يتصل بالجانب النسائى المسلم •

ولم تعتمد السيدة زينب — رضى الله عنها — على شرف نسبها ، أو على فضل كونها من التابعين ، وانما مثلت شخصيتها الكريمة شخصية المرأة الشريفة العاملة المكافحة ، التى جمعت بين العبادة والتبتل ، وبين العمل والجهاد •• ومما ذكره المؤلف من شعرها ما يفيد تسليمها لله ، وتوكلها عليه ، وطلبها تخليص النفس من المشاغل ، حيث تقول :

سهرت أعين ونامت عيون لأمور تكون أو لا تكون
ان ربا كفاك ما كان بالأمس سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم ما استطعت عن النفس فحملانك الهموم جنون

وكانت فى مجال العلم فى أسمى الدرجات ، ومما ذكره المؤلف فى ذلك ما وصفها به ابن أخيها على بن الحسين رحمه الله حيث قال :

« أنت بحمد الله عالمة غير معلمة ، وفهمة غير مفهمة » ••

وكانت صابرة فى الله ، متحملة ما تلقى فى سبيل الحق •• ويكفى فى الدلالة على مكانتها السامية فى الصبر أنها قالت عندما وقفت عند أخيها الحسين — رضى الله عنه — بعد استشهاده ، تقول :

« اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان » •

ولما رأت رأسه — رضى الله عنه — على الرمح قالت بحرقة :

يا هلالا لما استتم كمالا غاله خسفه فأبدى غروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادى كان هذا مقدرا مقدورا

وكان ثباتها النابع من ايمانها القوى راسخا لا يتزعزع ، ومما يشير الى ذلك أن ابن زياد قال لها متشفيا بعد كربلاء :

كيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك ؟

فردت عليه بقولها :

ما رأيت الا خيرا ، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم ، فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلج — النصر والظفر — يومئذ ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة ••

وشخصية كهذه الشخصية تحتاج الى دراسات متنوعة فى شتى نواحى العظمة التى اشتملت عليها ..

وان الأخ الأستاذ على شلبى خير من يكتب فى هذا الموضوع ، وقد وفاه حقه ، وبذل فيه جهده ..

ولقد هيأ الله الأخ على شلبى بفطرة طيبة ، وتولاه بتوجيه سديد ، وهداه الى المسلك الصافى ، فحببه فى آل البيت ، وجعله بالنسبة لآل البيت فى منزلة يقول عنها صادقا انه « الهائم بحب أهل البيت النبوى الكريم » ..

وهو هائم حقا ، ترى ذلك فى سلوكه ، وفى تقواه ، وفى خشوعه ، وفى اهتمامه الكامل بكل ما يتصل بآل البيت ..

ولقد درس فى استفاضة وفى تقدير وتعظيم وحب حياة السيدة الكريمة ، ودرس من أجلها كل ما أحاط بها من أشخاص كرام ، ومن حوادث أليمة ، انه درس المأساة فى جوانبها التاريخية بكل ابعادها ، وانها لمأساة حقا ، ولكنها مأساة مرت وانتهت ، وموقفنا الآن منها أن نمر عليها داعين الله قائلين :

« ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رءوف رحيم » .

والتاريخ الذى يتصل بالصحابة والتابعين يجب أن نمر عليه قائلين :

« تلك حروب طهر الله منها سيوفنا فلا نلوث بها ألسنتنا » ..

وانه ليعجبنى فى هذا المقام ما يحدث به التاريخ من أن مجموعة من أصدقاء الامام سفيان الثورى جلسوا يوما يتحدثون عن فضائله . ولما انتهوا قال أحدهم :

انى لأعلم فضيلة توضع على رأس ما ذكرتموه من فضائل ..

فقالوا : ما هى ؟ .

قال : سلامة صدره بالنسبة لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .. ان هؤلاء قوم ذهبوا الى ربهم وخالقهم الذى يتولى حسابهم .. فلندع الله لهم ، ونرجوه أن يجنبنا السوء والانحراف ..

وان الصورة التى قدمها لنا الأخ الفاضل عن سيدتنا السيدة زينب هى الصورة التى تتمثل فيها صفات أهل البيت من الطهر والشجاعة والثبات فى المواقف التى تتزلزل فيها أقدام الرجال ..

انها صورة هؤلاء الذين كانوا يدافعون عن الحق ، لا يبالون على أى جنب كان فى الله مصرعهم..ولن تجد الدنيا فى القديم منها والحديث، من يماثل أهل البيت فى التمسك بالحق ، والثبات عليه ، واعلانه ونشره، والذب عنه مهما كلفهم ذلك ..

انهم أمثلة عليا فى العمل بما آمنوا به ..

وان هذه الصور من البطولة فى هذا الجانب ينبغى أن يعرفها الشباب والشيوخ حتى يقتدوا بها، فتتحقق الرجولة الكاملة ، والمثل التى أحبها الله ورسوله ..

ونحن حينما ننظر فى كتاب الأخ على شلبى نشكر له هذا الجهد المتواصل فى تصوير هذه المثل الكريمة التى عرفت الحق والتزمته ، ودافعت عنه حتى الموت ..

وجزى الله الأخ خير الجزاء على ما قدم للحق والتاريخ والانسانية من هذه الصور المضيئة للعالم أجمع والتى تنير له طريقه نحو الخير والحق والهداية ..

عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الهادى الى طريق الحق المبين ، القائل فى محكم آيه : « الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » ، سبحانه اصطفى من عباده من يشاء ، واجتبى من أحب من حضنة دينه وأعضاده ، واختار من ارتضى من أجناده ، فأعلى قدرهم ورفع ذكرهم ، مصداق ذلك قوله تعالى : « الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، ان الله سميع بصير » .

نسأله تعالى التوفيق والهداية والسداد ، والصلاة والسلام على صفوة الخلق أجمعين وخاتم الأنبياء والمرسلين ، من بعثه الله تعالى بالحق بشيرا ونذيرا ، وداعيا اليه باذنه وسراجا منيرا ، شرفه على سائر الخلق ، وجعل من ذريته بيتا طاهرا مجد ذكره القرآن ، فقال عز من قائل : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الرسول الأمين ، وعلى أهل بيته الأطهار ، وصحبه الأخيار ، ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين .

وبعد — فانى لى وأنا الضعيف الهائم بحب أهل البيت النبوى الكريم ، أن أجد القوة لأكتب عن كوكب لامع ونجم ساطع تلألأ نوره وضياؤه فى سماء ذلك البيت ، وترك من العبرة والذكرى ما لم يتركه أى بطل مغوار من أبطال التاريخ ، فقد تهيبت هيبة كبيرة أن أقدم على ذلك ، وخشيت أن أعجز عن حمل هذا الشرف العظيم ، أو أن يجرى قلمى بكلمة عن شخصية منحها الله تعالى فيمن منح ، نفحة ربانية جليلة ، وقلدها شرفا ليس بعده شرف ، وطهرها من كل عيب ورجس ، وأنزل فيها وفى أهل بيتها قرآنا يتلى ويتعبد به ، فقال عز من قائل : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

ولعل تلك الهيبة وتلك الخشية هى التى منعتنى أن أبادر منذ وقت ليس بالقصير بالكتابة ، ولعل معرفتى بقدر نفسى ووقوف عند حدى كان عاملا مهما فى ذلك ، الا أنى استخرت الله تعالى مبتغيا اليه الوسيلة ؛ راجيا أن يحقق أملى المنشود ، وأن يمنحنى القوة والجرأة على ذلك ؛ ومستأذنا ومستعينا بمدد من جعله الله تعالى رحمة للعالمين ، أن يسمح لى سيدى ومولاى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الشرف الرفيع ، فأكتب عن هذه الدوحة العظيمة كلمات ألتمس بها رضا ربى جل جلاله ؛ وقبول سيدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبركات سيدتنا العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وعن أهل البيت النبوى الكريم جميعا، ومعتذرا الى القارىء الكريم عما أكون قد قصرت فيه •

ان المتعرض لتاريخ السيدة الطاهرة البتول ، السيدة زينب بنت الزهراء ، وابنة الامام على رضى الله تعالى عنهما ، لابد أن يعرج على حوادث جرت لبعض أهل البيت ممن عاصروها ، وعلى رأسهم السبطان الكريمان شقيقاها الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وأرضاهما • فقد أجمعت المذاهب الاسلامية مع كثرة عدد الفرق التى تشعبت اليها ، كما أجمع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، على أن حادثة الامام أبى عبد الله الحسين فى موقعة كربلاء سنة احدى وستين هجرية الموافقة لسنة ٦٨٠ ميلادية ، كانت أكبر ثلمة فى المجتمع الاسلامى الأول ، وأنها بلغت من الحد فوق حد الكبائر ، وأن المسلمين استضيموا فى قتل الامام الحسين مع أهل بيته وأنصاره حين قتلوا ظلما عيانا جهارا ، مما أدى الى مصائب وكوارث حاقت بالمسلمين وقتئذ ، وما زالت تحيق بهم الى يومنا هذا بسبب تفرقهم فرقا وأشياعا •

ولقد كان لما أقدم عليه يزيد بن معاوية — الذى عرف بطلب الامارة والجاه والتكالب على الدنيا ومتاعها ، والذى عرف كذلك بتجاوزه الحد فى الرضا والغضب — أبلغ الأثر فيما وصل اليه حال المسلمين فى عهده ومن بعده • فقد بايعه من بقى من المهاجرين والأنصار على كره منهم مجبرين •

ورغم أن معاوية ضمن البيعة بأغلبية المسلمين ، الا أنه لم يهدأ له بال لامتناع الامام الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما وآخرين معه عن بيعته ، وذلك لعلمه أن مبايعة الحسين وحدها ، لها من المعنى ما هو

فوق مبايعة الناس أجمعين،لأنها تؤدى الى تغيير كراهةالناس الى رضا، وبغضهم الى محبة • ولذلك تجمعت كل قوى الشر فى يزيد بن معاوية ومؤيديه ، على الامام الحسين وأهل بيته من ذكر وأنثى ، ومن صبى وطفل ، حتى العبـــد والأمة ، ليفـــزعوهم فى مأمنهم ، ويشردوهم من مقامهم ووطنهم •

ولكن أهل البيت الأخيار ــ وعلى رأسهم الامام الحسين ــ لم يبالوا فى سبيل العقيدة والمبدأ ، بيزيد وأعوانه ، ولم ينتظروا أحيانهم حتى تفد اليهم ، بل هاجروا اليها ليلقوها غزاة فاتحين ، مدافعين عن الحق والدين ، فيتم لهم النصر فتعلو كلمة الله ، أو يموتوا شـــهداء أطهـــاراً صالحين اذا تعذرت لهم الغلبة أو عز عليهم النصر •

وفضلا عما تقدم ، فانه من الواجب ــ عند ذكر نسب السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ــ أن نورد لمحات عن صفات ومناقب كل من تنتسب اليهم بصلة ، ويتوج هؤلاء جميعا أكرم الخلق أجمعين ، جدها لأمهـــا الزهراء ، سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليـــه وعلى آله وسلم • وفى هذا النسب الشريف يقول الشاعر :

نسب كأن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمـــودا
ما فيـــه الا ســـيد من ســـيد حـــاز المكارم والتقى والجـــودا

ولقد علمنا التاريخ كيف ننتفع ونفيد من آثار من مضى من العظماء الأمجاد الكرام الذين تركوا فى هذا العالم أكبر أثر ، ونقشوا عليـــه صفحات لا يمحوها الزمن • ولذلك فان النفوس الطامحة الى المعـــالى ، والمتعطشة الى المعرفة ، والراغبة فى الاقتداء ، والساعية الى الأسوة الطيبة ، لتعظم وتزداد كل حين وآخر ، بالتأمل فى ذكريات الســـلف الصالح ، ودراسة خطوات معيشتهم وجهادهم ، وعلى الأخص من تميز منهم بصفات حميدة خاصة ، وتفرد بعمل جليل خالد •

والأمم التى تعنى بتـــاريخ عظمائها ، وتستجلى وتمحص ذكرياتهم وآثارهم ، هى الأمم الحية التى ترتكز على عامل من أكبر العوامل التى تنهض بها تلك النهضة التليدة • ولتأسيس هذا العلم ــ علم التاريخ وهو علم شريف صادق ــ على تلك الدعائم السليمة ، عد فنـــا من فنون الأثر • بيد أن استجلاء مثل هذه الذكريات ، والسعى فى الحصـــول

على مواردها ، فيه ما فيه من الفوائد ، فمن تهذيب نفس ، الى اكتساب فضائل ، الى اقتباس علوم ، الى اقتفاء آثار ، الى تثقيف عقول ، الى تبصير بأحوال السلف ، ليقيس الدارس العاقل نفسه على من مضى من أسلافه . فاذا كان المتناول استجلاء ذكرياته وآثاره ، ممن جمعت له الفضائل ومكارم الأخلاق وعلو الهمة ومنتهى الشجاعة وطيب المحتد وشرف النسب وعلو الحسب ، فان الفائدة تكون أعم وأعظم .

وان شخصية مرموقة بعين الاعتبار كسيدتنا الطاهرة ، لخليق أن لا تهمل سيرتها ، وأن لا تطوى ذكرياتها ، وانه لجدير بكل امرىء عاقل يؤهل نفسه لبلوغ أوج الكمال ، وتطمح نفسه للمعالى ، أن يروح نفسه بتلك الذكريات ، ليقيس عليها فيقتبس منها أنموذجا يهدى به نفسه ، ويجنى به ثمار المعرفة ، ثمار علو الهمة ، ثمار منتهى الشجاعة، ثمار فصاحة اللسان ، ثمار نصرة الحق ، ثمار العفو عند المقدرة ، ثمار المروءة والعفاف ، ثمار الطهر والتقى ، وبذلك يكون قد جمع الفضائل بأجلى مظاهرها وأسرارها فى صحيفته .

هذه الذكريات التى جمعت كل أنموذج من الفضائل ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال لزينب المروءة ، لزينب الشهامة ، جعلتنى أقدم وأهدى هذا الكتاب اليها وهى فى برزخها ، وقد تشرفت بأن أكون خادما أمينا مخلصا لها وذلك برئاستى لمجلس ادارة مسجدها العظيم بالقاهرة ، راجيا وداعيا أن ينفعنى الله تعالى ببركتها وبركة جدها صلوات الله تعالى وسلامه عليه ، وبركة أمها الزهراء البتول ، أشرف نساء الأرض قاطبة ، والتى قال فيها أبوها الرسول الأمين عليه الصلاة والسلام : « يا فاطمة ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » (أخرجه ابن سعيد فى شرف النبوة وابن المثنى فى معجمه) ، كما أرجو أن ينفعنى ببركة أبيها ، سيف الله المسلول الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وبركة أخويها السبطين الكريمين الحسن والحسين الشهيدين . ولقد جاء فى الحديث الشريف ذكر مولاى الامام الحسن — كما روى أبو بكرة — اذ قال عليه الصلاة والسلام : « ان ابنى هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (رواه البخارى) ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب

حسينا ، حسين سبط من الأسباط » (رواه البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم) .

هؤلاء هم أقطاب أهل البيت المرتقون بتطهيرهم الى ذروة الكمال المستحقون لتوقيرهم مراتب الاعظام والاجلال .

هم العروة الوثقى لمعتصم بها مناقبهم جاءت بوحى وانزال
مناقب فى شورى وسورة هل أتى وفى سورة الأحزاب يعرفها التالى
وهم آل بيت المصطفى فودادهم على الناس مفروض بحكم واسجال

وسأقسم الكتاب الى موضوعات تبدأ بمحبة آل بيت النبوة وما ينال المحبين من ثواب وجزاء ، ردا على هؤلاء الذين ينكرون علينا تلك المحبة ، وذلك الولاء والود الصادق لهم ، ثم بنسبها الشريف مع ذكر شىء من صفات ومآثر من تنتسب اليهم ، ثم بميلادها الكريم وما تبعه من حادثات أثرت فيها وفى نشأتها ، ثم بزواجها وذريتها منذلك الزواج، ثم بعبادتها وانقطاعها الى الله تعالى ، ثم بوصف علمها ومناقبها وفضلها وفصاحتها ، ثم بصبرها وشجاعتها وتسليمها الأمر الى الله وما لاقت من محن وما حاق بها من مصائب فى موقعة كربلاء وما تبعها ، ثم بحضورها الى مصر للاقامة بها الى أن لاقت ربها الكريم ، ثم ببعض قصائد من الشعر الرقيق الذى جادت به قرائح المحبين المخلصين فى مناسبات كثيرة أهمها الاحتفال السنوى بمولدها الكريم الذى يبدأ عادة فى السبت الأول من شهر رجب من كل عام هجرى والذى يختتم يوم الثلاثاء بليلة الأربعاء بعد مرور ثمانية عشر يوما من بدئه ، ثم أختم هذا الكتاب بنبذة عن تاريخ ضريحها ومسجدها الطاهر وما جرى عليه من تعمير واصلاح وترميم ، حتى صار الى ما وصل اليه حين كتابة هذا الكتاب .

والله تعالى أسأل أن ينفع الأمة الاسلامية بأهل بيت النبوة الكريم ، وأن يديم عليها محبتهم ووداهم الى أن يردوا على الحوض ، كما وعدنا سيد الخلق فى حديثه الشريف عن زيد بن أرقم رضى الله تعالى عنه ، حين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى تارك فيكم ما ان تمسكتم به فلن تضلوا بعدى ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما » (أخرجه الترمذى وحسنه) . والمرء مع من أحب .

ولا يفوتنى ان اتقدم بصادق الشكر وجميل العرفان ووافر التقدير ، لكل من عاوننى قلبا وقالبا فى سبيل اعداد هذا الكتاب وشجعنى على اخراجه ونشره ، داعيا لهم المولى سبحانه وتعالى أن يجعلهم دائما أهلا لمحبة أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم .

وبالله تعالى العون ومنه التوفيق والسداد .

ربيع الاول ١٣٩٢ هجرية

ابريل ١٩٧٢ ميلادية

على أحمد شلبى

رئيس مجلس ادارة المسجد الزينبى

الفصل الأول

محبة أهل البيت النبوى الشريف

أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم وذريته ، هم شـــجرة النبوة ومهبط الرسالة ومنبع الرحمة ومعدن العلم وينابيع الحكمة ، فيهـــم كرائم القرآن وهم كنوز الرحمن ، ان نطقوا صدقوا ، وان صمتوا لم يسبقوا ، ناصرهم ومحبهم يرجو رضوان الله تعالى ، ويستمطر رحمته ونفحاته ، وعدوهم ومبغضهم يستقبل نقمة الله تعالى وسطواته ، بهم اهتدينا الى الصراط المستقيم ، وعن طريقهم عرفنا الدين الحق القويم، بهم خرجنا من الظلمات الى النور ، وفى صحبتهم نتمتع ان شاء الله تعالى بقصور الجنة ونعيمها ، هم أساس الدين وعماد اليقين ، فعن عبد الله بن الحسن المثنى عن أبيه الحسن السبط رضى الله تعالى عنهم جميعا قال : خطب جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم يوما ، فقـــال بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه : « معاشر الناس ، انى أدعى فأجيب، وانى تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ان تمســـكتم بهما لن تضلوا ، وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فتعلموا منهم ولا تعلموهم فانهم أعلم منكم ، ولا تخلو الأرض منهم ولو خلت لانساخت بأهلها ، ثم قال : اللهم انك لا تخلى الأرض من حجة على خلقك لئلا تبطل حجتك ، ولا تضل أولياءك بعد اذ هديتهم ، أولئـــك الأقلون عدداً والأعظمون قدرا عند الله عز وجل ، ولقد دعوت الله تبارك وتعالى أن يجعل العلم والحكمة فى عقبى وعقب عقبى ، وفى زرعى وزرع زرعى الى يوم القيامة فاستجيب لى » .

وفى رواية للامام أحمد بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وســـلم قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « انى أوشك أن أدعى فأجيب، وانى تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممـــدود من الأرض الى السماء وعترتى أهل بيتى ، وأن اللطيف الخبير أخبرنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض يوم القيامة ، فانظروا بما تخلفونى فيهما » .

كما ورد عن زيد بن أرقم أنه قال ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا بمـاء يدعى خما بين المدينة ومكة ، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ، ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس فانما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب ، وانى تارك فيكم ثقلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، من استمسك به وأخذ به كان على الهدى ، ومن أخطأه ضل ، فخذوا بكتاب الله تعالى واستمسكوا به ، وأهل بيتى ؛ أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » • (كتاب فيض القدير جزء ٢) •

وعن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال ، لما صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع ، خطب فقال : « أيها الناس انه قد نبأنى اللطيف الخبير أنه لن يعمر نبى الا مثل نصف عمر الذى يليه من قبل ، وانى أظن أن يوشك أن أدعى فأجيب ، وانى فرطكم على الحوض ، وانى سائلكم حين تردون على عن الثقلين ، فانظروا كيف تخلفونى فيهما ، الثقل الأكبر كتاب الله تعالى ، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم ، فاستمسكوا به فلا تضلوا ولا تبدلوا ، والثقل الأصغر عترتى أهل بيتى ، فانى قد نبأنى اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » • (الشرف المؤبد والترمذى مع بعض مخالفة فى اللفظ والمعنى الا أن هذه أتم) •

وجاء فى البحر المحيط جزء أول لأبى حيان ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى آخر خطبة خطبها وهو مريض : « أيها الناس انى تارك فيكم الثقلين ، انه لن تعمى أبصاركم ولن تضل قلوبكم ولن تزل أقدامكم ولن تقصر أيديكم ، كتاب الله سبب بينكم وبينه ، طرفه بيده وطرفه بأيديكم ،فاعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، ألا وأهل بيتى عترتى ، وهو الثقل الآخر فلا تسبوهم فتهلكوا •

اذن فنحن مأمورون بحب أهل البيت النبوى وتعظيمهم وتقديرهم واحترامهم • فعن أبى بن كعب أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدبوا أولادكم على ثلاث خصال ، حب نبيكم وحب أهل بيته وقراءة القرآن ، فان حملة القرآن فى ظل الله يوم لا ظل الا ظله مع أنبيائه وأصفيائه » •

ذلك بأن حب النبى صلى الله عليه وسلم دليل الايمان الكامل واليقين

الصادق ، فعن أنس رضى الله تعالى عنه قال ، قال النبى صلى الله عليه وسلم .

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » (رواه البخارى) . وكذلك فان حب أهل البيت الكرام عنوان المودة الخالصة للنبى الكريم ، فالله تعالى يقول فى محكم تنزيله : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى »[1] وقد ورد عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد السبطين الكريمين الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما وقال: « من أحبنى وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معى فى درجتى يوم القيامة » . (رواه الترمذى بسند حسن) .

ولا يبلغ العبد المؤمن درجة الحب الخالص للنبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، الا اذا أدرك معنى الحب وحقيقته . فليس الحب عاطفة نشتعل جذوتها ثم تخبو حرارتها ، وليس الحب همهمة ولا صراخا ولا صياحا ولا تظاهرا بصلاح زائف أو بمسكنة مصطنعة ، ولكن الحب الحقيقى المراد من هذا الحديث الشريف ، هو الاتباع والتأسى والاقتداء السليم القويم مع الاحترام العظيم ، فالله تعالى يقول : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم»[2]

فعلامة حب النبى ، اتباعه والعمل بشريعته واحياء سنته ، وعلامة حب أهل بيته ، الاقتداء بهم فى مسالكهم الرشيدة وأعمالهم السديدة . ولا بد للمحب أن يتبع حبيبه ويترسم خطاه ، وأن يرى ما يراه حقا وصوابا ، ولذلك فخير الناس من أحب فاتبع وسار على هدى النبى صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ، لأنه بذلك يكون مع النبيين فى الجنة ومع من أحبهم فى منازل الرضوان ، يقول صلى الله عليه وسلم : « المرء مع من أحب » (متفق عليه) . ويقول سبحانه وتعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما »[3] .

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الشورى .
(٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه ، وأحبونى لحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى » (أخرجه الترمذى وحسنه) • وعن عبد الله بن الزبير رضى الله تعالى عنهما ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مثل أهل البيت مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ومن تركها غرق » (أخرجه البزار) •

وأهل البيت أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، بهم تنتشر الرحمة وتعم البركة ويزداد الخير ، وهم رحمة الله على خلقه ، وهم الأئمة الهداة والدعاة الى الله سبحانه وتعالى ، وهم مصابيح الدجى ومنار الهدى ، وهم العلم المرفوع للحق ، من تمسك بهم لحق ، ومن تأخر عنهم وأعرض غرق ومحق • وما أصدق الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين يصف آل البيت النبوى الكريم فيقول : « هم عيش العلم وموت الجهل ، يخبركم حلمهم عن علمهم ، وظاهرهم عن باطنهم ، وصمتهم عن حكم منطقهم ، لا يخالفون الحق ولا يختلفون فيه ، هم دعائم الاسلام وولائج الاعتصام ، بهم عاد الحق الى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه ، وانقطع لسانه عن منبته ، عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية ، لا عقل سماع ورواية ، فان رواة العلم كثير ورعاته قليل » •

ويقول رضى الله تعالى عنه فى خطبة أخرى له : « فأين تذهبون وأنى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنابر منصوبة ، فأين يتاه بكم وكيف تعمهون وبينكم عترة نبيكم وهم أزمة الحق وألسنة الصدق• أيها الناس خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، انه يموت من مات منا وليس بميت ، ويبلى من بلى منا وليس ببال ، فلا تقولوا بما لا تعرفون ، فان أكثر الحق فيما تنكرون ، واعذروا من لا حجة له عليكم » • ثم يقول : « انظروا بيت نبيكم فالزموا سمتهم واتبعوا أثرهم ، فانهم يخرجون بكم الى هدى ولن يعيدوكم فى ردى ، فان لبدوا فالبدوا[1] ، وان نهضوا فانهضوا ولا تستبقوهم فتضلوا ، ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا » •

وقد خطب رضى الله تعالى عنه بالمدينة المنورة بعد أن بايعه الناس بالخلافة فقال : « ألا ان أبرار عترتى وأطايب أرومتى ، أحلم الناس

---

(١) ماں اقاموا فأقيموا .

صغارا وأعلمهم كبارا ، ألا وانا أهل بيت من علم الله علمنا ، وبحكم الله حكمنا ، ومن قول الصادق الصدوق صلى الله عليه وسلم سمتنا ، فان تتبعوا آثارنا تهتدوا ببصائرنا ، وان لم تفعلوا يهلككم الله ، ومعنا راية الحق ، من تبعها لحق ، ومن تأخر عنها محق ، ألا وان بنا يدرك كل مؤمن ثواب عمله ، وبنا تخلع ربقة الذل من أعناقكم ، وبنا فتح الله تعالى وبنا يختم » •

وكان الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وأرضاه يقول : « أرقبوا محمدا فى أهل بيته » (أخرجه البخارى) ، وكان يقول: « والذى نفسى بيده ، لقرابة محمد صلى الله عليه وسلم أحب الى من قرابتى » •

وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما بال رجال يقولون ان رحم رسول الله لا تنفع يوم القيامة ، بلى والله ان رحمى لموصولة فى الدنيا والآخرة » • قال عمر بن الخطاب ، فتزوجت أم كلثوم بنت على رضى الله عنه رجاء أن يكون بينى وبينه صلى الله عليه وسلم نسب وسبب •

وعن أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه يقول ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اجعلوا أهل بيتى منكم مكان الرأس من الجسد ومكان العينين من الرأس ، ولا تهتدى الرأس الا بالعينين » •

ولقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن بغض أهل البيت ومخاصمتهم، فقد أخرج ابن سعد أنه صلى الله عليه وسلم قال : « استوصوا بأهل بيتى خيرا فانى أخاصمكم فيهم غدا ، ومن أكن خصمه أخصمه الله ، ومن أخصمه الله أدخله النار » •

وصح أن بنت أبى لهب ، لما هاجرت — بعد اسلامها — الى المدينة ، قيل لها لن تغنى عنك هجرتك ، أنت بنت أبى حطب النار • فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فاشتد غضبه فقام الى المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : « ما بال أقوام يؤذوننى فى نسبى وذوى رحمى، ألا من آذى نسبى وذوى رحمى فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله » (أخرجه البيهقى وابن مندة وابن أبى عاصم والطبرانى) •

وأخرج ابن حبان ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما بال رجال يؤذونني فى أهل بيتى ، والذى نفسى بيده لا يؤمن عبد حتى يحبنى ولا يحبنى حتى يحب ذريتى » ، ولذلك كان من أدب السلف الصالح أن لا يقرءوا فى الصلاة بسورة اللهب حفاظا على قلب رسول الله ونفسه ، مع أنها قرآن منزل .

ولما اشتدت قطيعة قريش لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، وعبسهم فى وجوههم ، وقطعهم الحديث عند لقائهم ، غضب الرسول عليه الصلاة والسلام غضبا شديدا حتى احمر وجهه ودر العرق بين عينيه وقال : « ما بال أقوام يتحدثون فاذا رأوا الرجل من أهل بيتى قطعوا حديثهم ، والله لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبهم لقرابتهم منى » . (لهذا الحديث شاهد من رواية العباس رضى الله عنه رواه الامام أحمد) .

وعن أبى سعيد ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبغضنا أهل البيت أحد ، الا وأدخله الله النار » (رواه الحاكم صحيحا على شرط الشيخين) . ولقد قال الامام على كرم الله وجهه لمعاوية بن أبى سفيان : « اياك وبغضنا ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبغضنا ولا يحسدنا أحد الا ذيد عن الحوض يوم القيامة بسياط من نار» (رواه الطبرانى فى الأوسط) . وعن سهل بن مالك عن أبيه عن جده قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :- « يا أيها الناس احفظونى فى أختانى وأصهارى وأصحابى ، لا يطالبنكم الله بمظلمة أحد منهم فانها ليست مما يوهب ، يا أيها الناس ارفعوا ألسنتكم عن المسلمين ، واذا مات الرجل فلا تقفوا فيه الا خيرا (أخرجه الخلعى والحافظ الدمشقى فى معجمه) . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب أصحابى وأزواجى وأهل بيتى ولم يطعن فى أحد منهم وخرج من الدنيا على محبتهم كان معى فى درجتى يوم القيامة » (أخرجه الملاء فى سيرته) .

ولذلك التزم السلف الصالح ما أمروا به من حب أهل البيت الكريم ، حتى أن الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ، قال لعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وقد جاءه فى حاجة له : « ان كانت لك حاجة فارسل أو اكتب بها فانى أستحى من الله أن يراك على بابى »

ولله در الامام الأكبر محيى الدين بن العربى اذ يقول :

رأيت ولائى آل طـه فريضـة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهدى بتبليغـه الا المـودة فى القـربى

وفى رواية أخرى لهذين البيتين يقول الامام :

أرى حب أهل البيت عندى فريضة على رغم أهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خـير الخلق منا جزاءه على هديه الا المودة فى القـربى

ويقول الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه :

يا آل بيت رسـول الله حبكمو فرض من الله فى القـرآن أنزله
يكفيكمو من عظيم الفخـر أنكمو من لم يصل عليكم لا صـلاة له

ويقول أيضا رضى الله تعالى عنه :

يا راكبـا قف بالمحصب من منى واهتف بساكن خيفها والنـاهض
سحرا اذا فاض الحجيج الى منى فيضـا كملتطم الفرات الفـائض
ان كان رفضـا حب آل محمـد فليشـهد الثقـلان أنى رافضى

ويقول كذلك :

آل النـبى ذريعـتى وهمـو اليـه وسـيلتى
أرجـو بهـم أعطى غـدا بيـدى اليمـين صـحيفتى

وقد أخرج أحمد وغيره عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال جبريل قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد صلى الله عليـه وسلم ، وقلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم » (ورواه كذلك الحاكم فى الكنى والطبرانى فى المعجم الكبير والبيهقى فى الشعب والزهد وابن عساكر) .

وعن أبى جعفر محمد الباقر عن أبيه سيدى على زين العابدين عن جده رضى الله تعالى عنهم جميعا أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أراد التوسل الى وأن يكون له عندى يد أشفع له بهـا يوم القيامة فليصل أهل بيتى ويدخل السرور عليهم » (رواه الديلمى مرفوعا) .

وفى كتاب (فوائد قرآنية) للكاتب الكبير والورع التقى المرحوم الأستاذ أحمد خيرى يقول بمناسبة تشريف كلب أصحاب الكهف بالذكر فى القرآن الكريم ، وقول بعض العارفين أنه مع أصحابه فى الجنة ، قال أحد المحبين يرد على الذين يلومونه على محبته لأهل البيت الأطهار عليهم السلام :

فاز كلب بحب أصحاب كهف　　كيف أشقى بحب آل النبى

وفى معرفة أحوال الأئمة من أهل العباءة ، جاء فى كتاب « الفصول المهمة » :

ان النبى محمدا ووصيه　　وابنيه وابنته البتول الطاهرة
أهل العباء فاننى بولائهم　　أرجو السلامة والنجا فى الآخرة

وقد أبدع الفرزدق الشاعر العربى الكبير فى مدحه لأهل البيت النبوى الكريم فى شخص زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما اذ يقول :

من معشر حبهم فرض وبغضهم　　كفر وقربهم منجى ومعتصم
يستدفع السوء والبلوى بحبهم　　ويستزاد به الاحسان والنعم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم　　فى كل بدء ومختوم به الكلم
ان عد أهل التقى كانوا أئمتهم　　أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيع جواد بعد غايتهم　　ولا يدانيهم قوم وان كرموا
هم الغيوث اذا ما أزمة أزمت　　والأسد أسد الشرى والبأس محتدم

وقد جاء فى الحديث الشريف : « أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة ، المكرم لذريتى ، والقاضى حوائجهم ، والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا اليه ، والمحب لهم بقلبه ولسانه » .

فواجب كل مؤمن ومؤمنة أن يجعل أهل البيت أسوة حسنة له ، وأن يجعلهم نبراسا يقتدى به فى حياته وتصرفاته ، وأن يملأ قلبه بحبهم والولاء لهم ، عسى أن يرحمنا الله تعالى بهم يوم القيامة « يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم » (١) .

ولله در دعبل الخزاعى اذ يقول فيهم :

---

(١) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

أحب قصى الرحـــم من أجل حبكم　　وأهجـــر فيــكم أسرتى و[illegible]

فيـــا رب زدنى من يقينى بصــيرة　　وزد حبهـــم يا رب فى حســ[illegible]

كما يقول فيهم أحد المحبين وما أبدع ما يقول :

فعتــرة طــه للعبـــاد أمانهـــم　　وعصـــــمة مــرتاد ورفد عفـــاة

فيـــارب زدنـــا فى هـــواهم مودة　　فودهـــــم يـــدنى من القــــربات

وحبهم آى العقيـــــدة والتـــقى　　وفيه الرضـــا من بارىء النسمات

نصـــلى واتمام الصـــلاة صلاتنا　　على المصطفى والآل فى الصـــلوات

ورحم الله تعالى شاعر الأولياء ، المحب لأهل البيت ، صاحب الالهامات المشرقة ، العارف بالله المرحوم الشيخ على عقل ، اذ يقول بالهام ربانى .

ومهمـــــا ألام على حبهـــــــم　　فلست الفتى خـــائف اللائمــــة

فـــروحى على بابهـــــم تــرتمى　　ونفسى بأعتـــــابهم خادمـــــة

اذا مس نفسى فتـــور المعـــاصى　　بذكرهمـــو أصـــبحت هائمـــــة

فيـــا عاذرى شـــم يا عـــــاذلى　　ســـواء رضـــــاك أو اللائمـــة

فقـــل ما تشـــاء وكن من تشـــاء　　فــــانى أحـــب بنى فاطمـــــة

كما يقول رضى الله تعالى عنه أيضا :

بنفسى أفدى الزهر من بضعة الزهرا　　بهم نلت كل الخير دنياى والأخرى

لقـــد غرسونى من زهور رياضهم　　فطابت حيـــاتى من مكارمهم زهرا

اذا قيـــل لى تهواهمو قلت ملكهم　　ووقف يمين لا يبـــاع ولا يشرى

تســـاموا على كل الأنام فضـــائلا　　وقد بين القرآن أوصافهم طهـــرا

وعينـــا من القرآن سورة هل أتى　　صفا سعيهم لله واستوجب الشكر

فـــلو أن جود العـــالمين أقيســـه　　على جودهم يوما لما مثل العشرا

جداول من بحر النبى محمـــــــد　　فما مثلهـــا تلقى جداول أو بحرا

اذا غشيت عينى فطى جـــوانحى　　عيـــون ترينى سر أنوارهم جهرا

فان كان ذنبى أن قـــلبى يحبهـــم　　فان ذنـــوبى لن تـــلم بهـــا حصرا

وما أحسن الدنيا على صدق ودهم　　وما أحسن الأخرى لتابعهم ذخـــرا

وها أنا مشتاق اليهم وســــــائر　　على حبهم أنفقت سعيى والعمـــرا

أحب واستجدى وأهوى واهتدى　　ولى لذة فى مدحهم تثلج الصدرا

اذا نظرونى زال من قلبى الأسى　　وان منحونى عشت أعترف الخيرا

على بابهم أسمو سمو أولى النهى　　فانهم رضوا نفسى فقد عظمت قدرا

الفصل الثاني

مولد السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ونسبها الشريف

كان ذلك فى السنة الخامسة من هجرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الى المدينة المنورة (سنة ٦٢٦ ميلادية) ، حيث عاش بها عشر سنين ينشر دعوته الى الله تعالى ، وحيث استتب الأمر لتلك الدعـوة الكبرى ، خاصة بعد انتصاره فى غزوة الأحزاب ـ عندما كانت المدينة كلها وأهلها ينتظرون فى اهتمام بالغ وقلق شديد ، ذلك النبأ السـعيد الذى ينتظره بيت النبوة الكريم ، ممثلا فى شخصية تلك السيدة الجليلة القدر ، الحبيبة الى قلب والدها العظيم والرسول الكريم ، السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنه وأرضاها ، وزوجة الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه وابن عم مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم •

كان الجميع ينتظرون فى شغف ولهفة ذلك المولود السعيد المرتقب،بعد أن قرت أعينهم ـ من قبل ـ بمولد السبطين الحبيبين الحسن والحسين وثالث لم يقدر له أن يظل حيا هو المحسن بن على رضى الله تعالى عنهم جميعـا •

وما أن وضعت السيدة فاطمة الزهراء وليدتها الكريمة ، حتى قالت السيدة أسماء بنت عميس زوجة جعفر بن أبى طالب وقد حملتهـا بين يديهـا :

ـ ياابنة رسول الله ، انها شبيهة بك فى جمال الخلقة وحسن التكوين، بل ان جمال النبوة لمجسم فى هذه المولودة الصغيرة ، وما أشبهها بأخيها الحسـين •

فحمدت الزهراء ، الله تعالى وشكرته على نعمته • ثم جاءت بها الى أبيها الامام على وقالت له :

ـ سم هذه المولودة ، فقال :

ــ ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم •

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام فى سفر ، فلما عاد صلوات الله وسلامه عليه ، سأله الامام على عن اسمها ، فقال :

ــ ما كنت لأسبق ربى تعالى •

فهبط جبريل الأمين يقرأ السلام من الله تعالى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال له :

ــ سم هذه المولودة زينب •

ثم أخبره بما يجرى عليها من المصائب ، فبكى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : « من بكى على مصاب هذه البنت كا نكمن بكى على أخويها الحسن والحسين » •

وقد تنبأ لها النبى صلى الله عليه وسلم بأنها ستكون مولودة سعيدة طاهرة مباركة ، وأنها ستكون من فضليات النساء المؤمنات من أمته •

وأقبل المهنئون من بنى هاشم والصحابة يباركون هذه الزهرة المتفتحة فى بيت الرسول الكريم ، تنتشر فى المهد عبير المنبت الطيب ، وتلوح فى طلعتها المشرقة ووجهها الصبيح ملامح آباء وأجداد لها كرام •

سماها جدها صلى الله عليه وسلم باسم خالتها زينب ، كبرى بناتهمن أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ، والتى كانت محببة اليه ، وهى التى تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى ابن عبد شمس قبل النبوة ، وأمه هالة بنت خويلد • وقد هاجرت الى المدينة بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولاقت من بعض القرشيين وهى فى طريقها الى المدينة من المتاعب والأهوال ما أثر على صحتها ، وذلك بعد أن أبى زوجها أن يسلم وقتئذ • فلما أسر زوجها فى غزوة بدر ، قدم أخوه عمرو فى فدائه ، فأعطته زينب قلادة كانت أمها السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها قد أدخلتها بها على أبى العاص •

فلما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم تلك القلادة عرفها وتذكر أم المؤمنين خديجة وترحم عليها ، ثم كلم أصحابه فى أمر أبى العاص ، فأطلقوا سراحه ، ورد النبى عليه الصلاة والسلام على ابنته القلادة ، وأخذ على أبى العاص وعدا أن يخلى سبيلها لعدم اسلامه حتى ذلك

الحين ، وقد أسلم بعد ذلك فى المحرم من السنة السابعة للهجرة وحسن اسلامه ، فرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم زوجه زينب •

درجت الوليدة المباركة زينب ابنة الزهراء والامام على رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فى بيت النبوة ، ونشأت نشأة كريمة طيبة يرعاها الله تعالى برعايته ، ويحوطها جدها العظيم وأبواها بعنايتهم وشفقتهم ، فلقيت فى صغرها حنان جدها وحدب أبيها ورءومة أمها ، حتى اذا ميزت وانطلق لسانها ، أخذ أبوها يعلمها ويثقفها ويهذبها ، شأنها فى ذلك شأن كل من درج وترعرع فى بيت النبوة ، فلقنها العلم والحكمة والخلق والدين والفقه والأدب ، ورواها الأحاديث والاخبار ، وبث فيها من روحه الاعتداد بالنفس والشجاعة والاقدام وقوة اليقين ، فتهيأ لها العقل الراجح والرأى الناصح وقوة الجنان والثبات والايمان •

ولا عجب على من جمعت صفة النسب الطاهر الذى لم يجتمع لغيرها من فضليات النساء ، أن تنال من المنزلة والمكانة وحسن الأحدوثة والخلود فى التاريخ ، ما نالته السيدة زينب بنت الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وعنها •

فجدها لأمها ، سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدتها لأمها ، أم المؤمنين وزوجة الرسول الأمين السيدة خديجة بنت خويلد ، وأمها ، السيدة فاطمة الزهراء بنت أكرم الخلق على الله تعالى ، وأبوها ، الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجدتها لأبيها السيدة فاطمة بنت أسد التى كفنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قميصه ، وهى شقيقة السبطين الكريمين الحسن والحسين ، وحموها ، جعفر ابن أبى طالب المعروف بجعفر الطيار ، وزوجها ، عبد الله بن جعفر ، رضى الله تعالى عنهم جميعا •

ولو عد كل من تتصل بهم السيدة زينب بنسب — وكلهم من أفضل الناس — لما وسعت المجلدات العديدة ذكر مناقبهم وآثارهم التى انعكست كلها وتجمعت فى صفات وأخلاق السيدة البتول زينب رضى الله تعالى عنها • ولذا نكتفى بلمحات من صفات هذا النسب الشريف الرفيع ، نتوجه بأسمى وأعلى شخصية بزغ نورها فى هذا الكون ، شخصية جدها الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم •

جدها الرسول الأعظم
صلى الله عليه وسلم

حبـــذا عقـد ســودد وفخـــار
أنت فيـــه اليتيمـــــة العصـماء

هو صلوات الله عليه وسلامه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبـد مناف بن قصى ، ويصـل نسبه الشريف الى سيدنا اسماعيل ابن سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

وقد روى الامام مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم ، اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل ، بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة ، قريشا ، واصطفى من قريش ، بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وكنيته سـيدنا أبو القاسم سيد ولد آدم وصفوة خلق الله قاطبة ، وقد قالت فيه أمـه السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف عندما أحست بدنـو أجلها تاركة اياه فى السادسة من عمره ، متأسية بما يناله من الفخر والمجد فى قومه وفى العالم أجمع :

بارك الله فيـــك من غـــلام	يا ابن الذى فى حومة الحمـــام
نجا بعـون الملك العـــلام	فودى غـداة الضرب بالسهام
بمـــائة من ابـــل ســوام	ان صح ما أبصرت فى المنـــام
فأنت مبعـوث الى الأنـــام	تبعث فى الحـل وفى الحـرام
تبعث بالتوحيـــد والاســلام	دين أبيـــك الـبر أبـراهام
فالله أنهـاك عن الأصـــنام	أن لا تواليهـا مع الأقـــوام

وهو نبى الهدى وسيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم ، وهو نبى التوبة الموحى اليه ، وهو الذىأسرى به ليلا من المسجد الحرام بمكة المكرمة الى المسجد الأقصى ببيت المقدس،وهو الذى عرج به الى السموات العلى الى سدرة المنتهى ، وهو الذى وصفه الله تعالى فى محكم آيه بقوله جل

شـــأنه : « وانك لعلى خلق عظيم[١] » ، وهو الذى قال فى الحـــديث الشريف : « انما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » (رواه ابن سعد والبخارى فى الأدب المفرد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى الشعب والزهد) ؛ وفى رواية للامام مالك « انما بعثت لأتمم حسن الأعمال[٢] » وهو الذى لمـــا سئل متى وجبت لك النبوة ؟ قال : كما ورد عن أبى هريرة : « وآدم بين الروح والجسد » (رواه الترمذى) . وفى رواية للعرباض بن سارية عنه صلى الله عليه وسلم قال : « انى عند الله لخـــاتم النبيين وأن آدم لمنجدل فى طينته » (رواه أحمد) وزيد عليه : « وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى ابراهيم وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت » ، وهو الذى كان فى قلوب وعقول الأنبياء وضمائرهم ومشاعرهم قبل أن يكون فى دنيا الناس ، ولقد آمنوا به وأقروا رسالته وأعطوا العهـــد والميثاق على أن يوصوا أقوامهم باتباعه اذا ظهر فيهم نوره ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « ما بعث الله نبيا الا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ، وأمره أن يأخـــذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وليتبعنـــه » . ويؤيد ذلك قوله تعالى : « واذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لمـــا معكم لتؤمنن به ولتنصرنه[٣] » ، وهو الذى قال : « كنت أول النبيـــين فى الخلق وآخرهم فى البعث » ، وهو الـــذى كان بالنسبة اليهم جميعا ، كما قال الامام البوصيرى :

وكل آى أتى الرسل الكرام بها ... فانمـــا اتصلت من نـــوره بهم
فانه شمس فضل هم كواكبها ... يظهرن أنوارها للناس فى الظلم

وكفاه شرفا وتعظيما ، أن الله تعالى يصلى عليه ويأمر أهل السموات والأرض بالصلاة عليه فيقول فى كتابه العزيز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فيقول : « ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »[٤] ، وهو الذى ــ مع جمعه كل هذه الصفات والمكانة السامية التى لم تكن ولن يصل اليهـــا

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم .
(٢) وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن أبى هريرة : « بعثت لأتمم مكارم الاخلاق » .
(٣) من الآية ٨١ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٥٦ من سورة الأحزاب .

مخلوق ـ كان يقول : « لا تطرونى[1] كما أطرت النصارى ابن مريم ؛ فانما أنا عبده فقولوا عبد الله ورسوله » (رواه البخارى) ورحم الله تعالى الامام البوصيرى حين يقول :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهمو | واحكم بماشئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ماشئت منشرف | وانسب الى قدرهماشئتمن عظم
فان فضـل رسول الله ليس له | حـد فيعـرب عنـه ناطق بفم
ومبلغ العـلم فيـه أنـه بشر | وأنـه خـير خـلق الله كلـهم

ورضى الله تعالى عن عبد الله بن رواحة الذى قال وهو يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى أبو هريرة :

وفينا رسول الله يتـلو كتابه | اذا انشقمعروف من الفجر ساطع
أرانا الهدى بعـد العمى فقلوبنا | به موقنـات أن ما قال واقـع
يبيت يجافى جنبـه عن فراشـه | اذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وهو الذى كان بارا رحيما بأهله وعشيرته وأصحابه وكل المحيطـين به ، لدرجة لا يدانيه فيها أحد ، فقد كان البر امامه والرحمة محيطة به ؛ وهو القائل : « ان البر يهدى الى الجنة » ، « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (رواه أبو داود والترمذى) ، « من لا يرحم من فى الأرض لا يرحمه من فى السماء ، من لا يرحم لا يرحم ، انمـا يرحم الله من عباده الرحماء » (رواه الطبرانى) . وصدق الله العظيم جلت قدرته اذ وصف رسوله الأمين عليه الصلاة والسلام فى القرآن الكريم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[2] .

وهو الذى « كان خلقه القرآن » كما روى مسلم من حديث السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها . وهو الذى كان الفقراء والضعفاء أقـرب الناس على قلبه الكبير وعطفه الشامل ، وبلغ من حبه للفقراء أن دعا الله

---

(١) الاطراء : الثناء والمدح . ولكن المقصود هنا عدم التاليه ، لأن الثناء عليه صلى الله عليه وسلم واجب . وقد جاء فى الحديث القدسى : « عبدى لم يشكرنى ما لم تشكر من أجريت النعمة لك على يديه » (رواه الشيخان) . وكانت الصحابة يمدحون الرسول الكريم نظما ونثرا فى مواجهته وبادته صلوات الله وسلامه عليه .

(٢) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

تعالى أن يبقى فيهم حيا وميتا ، فقد روت أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها أنه كان يقول: « اللهم أحينى مسكينا وتوفنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين »(الطبرانى فى الدعاء عن عبادة بن الصامت) فقالت له السيدة عائشة ، لم يا رسول الله ؟ فقال : « انهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا ، يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة أحبى المساكين وقربيهم يقربك الله يوم القيامة » .

وهو الذى كان « لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسلها » (رواه الطبرانى فى الاوسط باسناد حسن) ، وهو الذى كان حليما لا يغضب ، حتى قال أنس بن مالك خادمه ، خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لشيء فعلته لم فعلته ، ولا قال لشيء تركته لم تركته ، وما رأيت الغضب فى وجهه قط . ولقد كان صلوات الله تعالى وسلامه عليه كثير البر بالخدم والعمال . فقد روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أتى أحدكم خادمه بطعام قد كفاكم علاجه ودخانه فليجلسه معه ، فان لم يجلسه فليناوله أكلة أو أكلتين (رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى)، وبلغ من رفعه لانسانيتهم أنه كان لا يرضى لأحد أن يقول عبدى أو أمتى، ولذلك أمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك ، وأن يقولوا فتاى وفتاتى .

وهو الذى كان حييا حتى وصفه البعض بأنه كان أشد حياء من البكر فى خدرها ، وقد جاء فى الحديث الشريف أنه : « كان من أشد الناس حياء لا يثبت بصره فى وجه أحد » (رواه الشيخان من حديث أبى سعيد الخدرى قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حيا من العذراء فى خدرها » . كما كان قليل الكلام لا يحب الثرثرة ولا الاسترسال فى الحديث بغير طائل ، ولقد قال عليه الصلاة والسلام : « ان أبغضكم الى الثرثارون المتفيقهون » (رواه الترمذى) .

وكان صلى الله عليه وسلم روحا من النور فى جسم من القمر ، كما وصفه حسان بن ثابت رضى الله تعالى عنه فى قوله :

لما نظرت الى أنواره سطعت   وضعت من خيفتى كفى على بصرى
خوفا على بصرى من حسن صورته   فلست أنظره الا على قدر
روح من النور فى جسم من القمر   كحلية نسجت فى الأنجم الزهر

كما قال رضى الله تعالى عنه أيضا :

ألم تر أن الله أرسل عبده ببرهانه والله أعلى وأمجد
وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد
نبى أتانا بعد يأس وفترة من الدين والاوثان فى الأرض تعبد
فأرسله نورا منيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند

وهو الذى كان « نزر الكلام سمح المقالة اذا نطق ، ليس بمهذار وكان كلامه كخرزات النظم » (رواه الطبرانى من حديث أم معبد) • وقد وصفه أحد الشعراء فقال :

نزر الحديث ، من الحياء تخاله ضمنا[1] وليس بجسمه سقم
عقم النساء فما يجئن بمثله ان النساء بمثله عقم

وهو الذى عرف بين العرب جميعا ، حتى من ألد أعدائه الذين لم يؤمنوا به ، بالصادق الأمين ، وهو الذى لم يكذب فى حياته ولم يعرف لغو الحديث أو سقطه ، كما لم يعرف اللهو والعبث •

وهو الذى أدى الأمانة ، وبلغ عن ربه الرسالة ، ونصح الأمة وكشف عنها الغمة وهداها الى صراط مستقيم ، ويصفه صاحبه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فيقول :

أمين مصطفى للخير يدعو كضوء البدر زايله الظلام

وهو النبى الذى ظلله الغمام ونبع من بين أصابعه الماء ليروى الأنام• ويصفه عمه أبو طالب فيقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[2]

وهو الذى أودعه الله تعالى المعارف والأسرار ، ونشر دينه فى جميع الأقطار والامصار •

وهو الذى جعل من أمته خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله •

---

(١) ضمن ضمنا فهو ضمن مثل زمن زمنا فهو زمن وزنا ومعنى . والجمع ضمنى وزمنى •

(٢) ذكره ابن اسحاق فى السيرة وفى السند عن عائشة .

وهو الذى أظهر الله تعالى منآياته ومعجزاته على يديه ، مااستفاضت به الأخبار .

وهو الذى قالت فيه ابنته الزهراء البتول رضى الله تعالى عنها ، عندما انتقل الى الرفيق الأعلى — كما جاء فى صحيح البخارى :

« يا أبتاه ، الى جبريل ننعاه ، يا أبتاه من ربه ما أدناه — يا أبتاه من جنان الفردوس مأواه ، يا أبتاه أجاب ربا دعاه » ، وقالت رضى الله تعالى عنها ترثيه :

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة ... أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ... ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود العظيم وجوده ... والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه ... صلى عليك منزل القرآن

ولما وقفت على قبره الشريف — صلى الله عليه وسلم — أخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

كما قالت كذلك :

انا فقدناك فقد الارض وابلها ... وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكثب

وارضاء لعواطف البشر أن يعرفوا الصورة المشرقة لذلك الجسم الطاهر الذى تمثلت فيه كل هذه المعانى والأسرار والصفات الطيبة الحميدة ، نعرض وصفا لتلك الصورة التى كانت وعاء جميلا لكل ذلك . وليس هناك أحسن من أن نضع أمام القارىء تلك الصورة كما وصفها هند بن أبى هالة ، عندما سأله الامام الحسن بن على رضى الله عنهم جميعا ، وقال ، سألت خالى هندا وكان وصافا ، فقال :

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين (أى أنهما الى الغلظأقرب)،

ضخم الكراديس (ألواح الأكتاف) ، مشربا وجهه بحمرة ، طويل المسربة (الشعر ما بين السرة واللبة) ، واذا مشى تكفأ تكفؤا (أى يميل الى الأمام) كأنما ينحط من صبب (انحدار) ، لم أر قبله ولا بعده مثله، وكان أدعج العينين (أى شديد سوادهما وشديد بياضهما) ، سبط الشعر (سهلا غير ملبد) ، سهل الخدين (غير مرتفع الوجنتين) ، ذا فروة (ما وصل الى شحمتى الأذن من الشعر) كأن عنقه ابريق فضة، واذا التفت ، التفت جميعا ، كأن العرق فى وجهه ، اللؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه » .

ويقول ابن عمر رضى الله تعالى عنهما ، أن اليهود جاءوا الى أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، فقالوا صف لنا صاحبك ، فقال :

« معشر اليهود ، لقد كنت معه فى الغار كأصبعى هاتين ، ولقد صعدت معه جبل حراء وان خنصرى لفى خنصره ، ولكن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد ، وهذا على بن أبى طالب » .

فأتوا عليا فقالوا يا أبا الحسن ، صف لنا ابن عمك ، فقال :

« لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطويل الذاهب طولا ولا بالقصير المتردد ، كان فوق الربعة ، أبيض اللون مشربا حمرة ، جعد الشعر ليس بالقطط ، يضرب شعره الى أرنبته ، صلت الجبين[١] ، أدعج العينين ، دقيق المسربة ، براق الثنايا ، أقنى الأنف ، كأن عنقه ابريق فضة ، له شعرات من لبته الى سرته كأنهن قضيب مسك أسود ، ليس فى جسده ولا فى صدره شعرات غيرهن ، وكان شثن الكف والقدم[٢] . واذا مشى كأنما يقتلع من صخر[٣] ، واذا قعد علا الناس ، واذا تكلم أنصت الناس ، واذا خطب أبكى الناس ، وكان أرحم الناس بالناس ، ولليتيم كالأب الرحيم ، وللارملة كالريم الكريم ، أشجع الناس وأبذلهم كفا وأصبحهم وجها ، لباسه العباء ، وطعامه خبز الشعير ، وادامه اللبن، ووساده الأدم محشو بليف النخل ، سريره أم عيلان مرمل بالشريط ، كان له عمامتان احداهما تدعى السحاب والأخرى العقاب ، وكان سيفه ذا الفقار ورايته الغراء ، وناقته العضباء ، وبغلته دلدل ، وحماره

---

(١) أى واسعة . وقيل الصلت الأملس ، وقيل البارز .
(٢) أى أنهما يميلان الى الغلظ والقصر .
(٣) وفى رواية : « كأنما ينزل من صبب » .

يعفور ، وفرسه مرتجــز ، وشاته بــركة ، وقضيبه المشوق ، ولواؤه الحمد ، وكان يعقل البعير ، ويعلف الناضح ، ويرقع الثوب ، ويخصف النعل » (روى مثل هذه الرواية فى معناها وان اختلفت فى بعض ألفاظها ابن سعد فى الطبقات وأبو نعيم فى دلائل النبوة من حديث عائشة ، ومثله فى الصحيحين من حديث البراء وأبو داود والترمذى وحســنه بزيادات ونقصـــان) .

فلا عجب اذن بعد هذا الكمال الجسمانى والروحانى ، أن يكون من رآه ، بديهة هابه ، وكل من خالطه أحبه حبا نابعا من قلبه وروحه .

فصلى الله عليك ياسيدى يا رسول الله وعلى آلك وصحبك ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين ، وسلام عليك يا من قلت بحق : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أول من تنشق الأرض عنه ، وأنا أول شافع وأول مشفع ، بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه »(رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد الخدرى) ، وكتب لنا شفاعتك يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

جدتها أم المؤمنين السيدة خديجة

رضى الله تعالى عنها وأرضاها

السيدة خديجة أولى أمهات المؤمنين وخير نساء العالمين ، القرشية أبا وأما ، فأبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر ، وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم ابن رواحة بن حجر بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤى بن فهر •

ولدت رضوان الله تعالى عليها لأبوين كريمين كلاهما من أعرق الاسر ى الجزيرة العربية ، وقد اجتمع لها مع نبل الأصل وعراقة المحتد ، مكانة الثروة الوافرة والغنى العظيم ، حتى أن قافلتها فى التجارة الى الشام كانت تعدل قوافل قريش بأسرها فى كثير من الأعوام •

كانت عظيمة من عظيمات بنات آدم وحواء ، خلدت بمجدها منذ عرفت فى مكة المكرمة بالطاهرة أو بسيدة نساء قريش ، وازدادت فخرا ومجدا وعزا حين صارت أولى زوجات مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقد وصلت مجدها الذى كان لها قبل زواجها من الرسول الكريم بمجدها الذى جاءها بعد هذا الزواج المبارك ، حين خطبته لنفسها رغم صغره فى السن عنها ، ورغم قلة ماله وعدم ثرائه ، ورغم أنها رفضت من قبل الزواج من سادات قريش وأغنيائهم بعد أن ترملت مرتين ، فعكفت على التجارة بأموالها وتربية أطفالها اليتامى من زوجيها المتوفيين الواحد تلو الآخر •

وكانت السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها قد رأت فى منامها ، أن شمسا عظيمة مضيئة أشد ما يكون الضوء جمالا وجلالا ، تهبط الى دارها من سماء مكة فيغمر ضوءها ما يحيط به من بقاع وأماكن ، فقصت تلك الرؤيا على ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان من أهل العلم والحكمة . فاستبشر ورقة بما رأت ابنة عمه وبشرها قائلا : لك البشرى يا خديجة يا ابنة العم ، فهذه الشمس المضيئة علامة على قرب ظهور النبى الذى أظل زمانه ، ودخولها دارك دليل على أنك أنت التى ستتزوجين منه » •

لقد تفرست أمنا الاولى والكبرى ، النبوة والمجد فى الرسول الامين صلى الله عليه وسلم ، حين خطبته لنفسها قبل نزول الوحى عليه وقبل بعثه بالرسالة السماوية الخالدة ، ونظرت الى هذا الزواج بعين الدين الذى يربطها برب السماء والأرض ، ولم تنظر اليه بعين الدنيا التى يلحقها الفناء ، فآثرت نعيم الآخرة المقيم على نعيم الدنيا الزائل . فقد سمعت من ابن عمها ورقة بن نوفل ذلك المتحنث الذى قرأ التوراة والانجيل ، تلك البشرى التى أيدها غلامها ميسرة بمشاهداته الخارقة فى رحلته الى الشام وعودته منها فى أمر أمينها الذى استأجرته وائتمنته على تجارتها ، حين علمت بصدقه وأمانته . فأرسلت اليه تستأجره فى تجارتها وقالت له : « دعانى الى البعثة اليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وسأعطيك ضعف ما أعطى رجلا آخر من قومك » .

ولقد كانت أم المؤمنين الأولى ، عظيمة حقا حين أعانت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زواجها منه ، على العبادة فى خلوته بغار حراء ، كما كانت عظيمة حقا فى ثباتها وتثبيتها له حين جاءها واجف الفؤاد مضطرب القلب قائلا :

— « زملونى زملونى » وقص عليها قصة مجيء الوحى ببشائر القرآن الكريم : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم[1] » . فقالت له فى ثبات وتثبيت :

— « الله يرعاك يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لا يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة » .

وكانت عظيمة حقا حين كانت أول من استجاب للايمان فى هذه الأمة . فصدقت بكلمات ربها وكانت من القانتين ، وكانت عظيمة حقا حين انحازت مع زوجها الرسول الأمين الى شعب أبى طالب ، فصبرت على الحصار الذى فرضته قريش — وهى ظالمة — على صاحب الرسالة الخالدة ، وعاونته بمالها الوفير حتى ضاع معظمه .

---

(١) الآيات من ١ الى ٥ من سورة العلق .

وهى أم المؤمنين الأولى والعظيمة حقا حين قالت :

— « الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » .

وذلك حين جاء جبريل — فيما روى البخارى بسنده — فقال :

— « يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها اناء فيه ادام[1] ، فاذا أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب[2] لا صخب فيه ولا نصب » .

فقال صلى الله عليه وسلم :

— « يا خديجة ، هذا جبريل يقرئك السلام من ربك » .

فأجابته بما تقدم .

وما أصدق قول القائل فى شأنها رضى الله تعالى عنها اذ يقول :

جنـــاته قـــد فتحت لك كلهـــا
فتخــــيرى ما شـئت يا أمـــاه

لقد كانت أولى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، وعاشت معه خمسا وعشرين سنة ، منها خمسة عشر عاما قبل البعثة المباركة وعشرة أعوام بعدها ، أمضتها كلها فى مكة المكرمة الى أن وافاها الأجل المحتوم وثوى جثمانها الطاهر فى أرضها الطيبة .

ولم يكن لها فى حياتها الزوجية مع الرسول الكريم ضرائر ، اذ لم يتزوج عليها ابان حياتها . وفضلا عن ذلك ، فهى أم ولده لأنه صلى الله عليه وسلم لم ينجب من زوجاته الأخريات الا ولده ابراهيم من السيدة مارية القبطية ، وقد مات صغيرا .

وقد وصفها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عاشت له زوجة وفية مدة ربع قرن من الزمان ، فتوجها بتاج العز والكرامة حين قال :

— « والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى اذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها اذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها[3] من النساء » .

---

(١) طعام أو شراب .

(٢) القصب : اللؤلؤ .

(٣) رزقه الله تعالى ابراهيم من السيدة مارية ولكنه مات صغيرا وبذلك كانت ذريته الطاهرة من السيدة خديجة .

ولقد رزق مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها البنين والبنات، فكان لهما القاسم وعبد الله ويلقب بالطاهر والطيب ، ومن البنات زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة عليهم جميعا صلاة الله تعالى وسلامه ورضوانه وفقد الزوجان الكريمان ولديهما الحبيبين — القاسم ثم عبد الله — فى طفولتهما — فاحتسباهما عند الله ، وبقيت لهما بناتهما الأربع .

بالقاسم ابن المصطفى وبزينب ورقية هب لى القبول وفاطمة
وبأم كلثوم وعبد الله جند وقنى بابراهيم شر الحاطمة

ولقد كان لحصار قريش للرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته وصحابته ، أثره فى صحة السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها ، اذ أجهدها الاعياء فلم تعش بعد فك الحصار أكثر من ثلاثة أيام ، فأسلمت روحها الطاهرة الزكية الى خالقها راضية مرضية ، وكان الرسول الأمين لايفارقها لحظة واحدة من ليل أو نهار فى هذه الأيام الأخيرة من حياتها الطيبة .

وبلغ من ايمانها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته العظيمة ، أن قالت لابنتها أم كلثوم قبل أن تلفظ أنفاسها :

— « ليت الأجل يمهلنى حتى تنجلى المحنة فأموت قريرة العين راضية » .

فأجابتها أم كلثوم قائلة :

— « لا بأس عليك يا أماه » .

ثم خانها الجلد وخنقتها العبرات ، فاستطردت أم المؤمنين السيدة خديجة رضى الله تعالى عنها تقول :

— « أى وربى لا بأس على يا ابنتى ، ما من امرأة من قريش ذاقت ما ذقت من نعيم ، بل ما من أمرأة فى هذه الدنيا نالت مثل الذى نلت من مجد ، حسبى من دنياى أنى زوجة الحبيب المصطفى ، وحسبى من آخرتى أننى المؤمنة الأولى وأنى أم المؤمنين » .

ثم أسبلت عينيها وهمست :

— « اللهم انى لا أحصى ثناء عليك ، اللهم انى لا أكره لقاءك،ولكنى أطمع فى مزيد من التضحية لأكون جديرة بما أنعمت على » . وكان صلى الله عليه وسلم يلازمها فى هذه اللحظات ويهون عليها سكرات الموت ،

ويبشرها بما أعده الله تعالى لها من نعيم ، وكذلك كان بناتها الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة يحطن بفراشها ويودعنها قبل الرحيل .

ثم صعدت روحها الطاهرة الى بارئها ، وكان ذلك فى العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث ، فحملت سيدة نساء قريش وأم المؤمنين الى أرض الحجون ، حيث أضجعها الرسول صلى الله عليه وسلم بيديه الكريمتين فى قبرها ، وآب الى بيته محزونا وصابرا على البلاء المبين .

وكما حظيت أم المؤمنين الأولى بمحبة الرسول صلى الله عليه وسلم واعزازه وتقديره ، فقد حظيت أيضا بشهادة عظيمة أخرى بأنها من كاملات النساء ، وهن قليل بالقياس الى كملة الرجال . فقد روى شعبة عن معاوية بن قرة عن أبيه قرة بن اياس رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء الا ثلاث ، مريمبنتعمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، ان كلا منهن كفلت نبيا مرسلا ، وأحسنت الصحبة فى كفالتها ، وصدقته حين بعث » .

فما أروع ذكراك وأجلها ، وما أعظم مجدك يا أم المؤمنين خديجة ، انك لا تتحدثين عن نفسك لتزكيتها ، ولكن يتحدث عنك ويزكيك أعظم من تحدث من البشر وأصدقهم ، انه الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، الذى وصفه ربه بصدق الحديث فقال تعالى : « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى[1] » .

نفعنا الله تعالى بمحبتك ومحبة أهل البيت الطاهر ، لندنو من قلب الرسول الأعظم فنتصل به من بابك وعلى معراجك ، لأنه صلى الله عليه وسلم يقول : « انى أحب حبيبها » . ويؤكد ذلك أنه صلى الله عليه وسلم احتفى حفاوة ظاهرة بامرأة دخلت داره ، فلما سئل عن ذلك قال : « انها كانت تأتينا أيام خديجة وأن حسن العهد من الايمان » (الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين) .

فأعظم بوفائك ياسيدى يا رسول الله لأمنا خديجة الكبرى فى حياتها وبعد مماتها ، وفاء بوفاء وعهدا بعهد .

---

(١) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .

أمها السيدة البتول فاطمة الزهراء

رضى الله تعالى عنها

هى سيدة النساء فاطمة الزهـراء ، ولدت رضى الله تعالى عنهـا بمكة لعشر بقين من جمادى الآخرة ، وقـريش تبنى الكعبة وذلك قبل البعثة بخمس سنين • وهى أصغر بنات النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى النسمة الطاهرة الميمونة التى جعل الله تعالى نسلها حفدة أكرمين للرسول الأمين صلى الله عليه وسلم ، وجعل من نسلها أئمة فى الأمة، وجعلهم خلفـاء فى أرضه بعد انقضاء وحيه •

ولقد كانت الزهراء رضى الله تعالى عنهـا أحب أولاد النبى صلى الله عليه وسلم اليه ، وأقرهم لعينه وأسرهم لفؤاده ، وآثرها القدر بما لم يؤثر به شقيقاتها الثلاث ، فهى وحدهـا الوعاء الطاهر للسلالة الزكية ، والمنبت الطيب لدوحة الأشراف من أهل البيت النبوى الكريم •

ودرجت فى بيت أبيها عليه الصلاة والسلام يحوطها برعايته ويتولاها بحـدبه ورأفته ، يغرس فى نفسها تقوى الله ، ويغذيها بهـدى النبوة والرسالة ، فنشأت نشأة كريمة ، عزوفة عن الدنيـا ومتاعهـا ، مقبلة على الله تعالى • وقد هاجرت عليها السلام الى المدينة المنـورة عقب هجرة أبيها صلى الله عليه وسلم ، وكان قد مضى على وفاة أمها ثلاث سنوات ، وهاجر معهـا فيمن هاجر ، الامـام على كرم الله وجهه والسيدة عائشة ونساء المهاجرين رضى الله تعالى عنهن جميعا •

وقد لقبت رضى الله عنها بأسماء عديدة،تمثل كلهـا صفاتها الحميدة الجليلة ، فعرفت بالصديقة ، والمبـاركة ، والطـاهرة ، والـزكية ، والراضية ، والمرضية ، والمحدثة ، والزهراء ، فعن على كـرم الله وجهه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : « يا فاطمة ، أتدرين لم سميت فاطمة ؟ » قال على ، يا رسول الله لم سميت فاطمة ؟ قال : « ان الله عز وجل قد فطمها وذريتها من النار يوم القيامة » ، (أخرجه الحافظ الدمشقى) • وقد رواه الامام على بن موسى الرضا

رضى الله تعالى عنهما فى مسنده ولفظه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان الله عز وجل فطم ابنتى فاطمة وولدهــا ومن أحبهم من النار فلذلك سميت فاطمة » •

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ابنتى فاطمة حوراء ، اذ لم تحض ولم تطمث، وانما سميت فاطمة لأن الله عز وجل فطمها ومحبيها من النــار » ، (أخرجه النسائى) •

ولقد لقبت بالبتول تشبيها لها بمريم فى المنــزلة عند الله تعالى ، لتبتلهــا وسبقها فى العبادة لنساء زمانها ، فضلا عن دينها وحسبهــا وعفافهــا • كما أنها رضى الله تعــالى عنها اشتهرت باسم الزهــراء ، لأنها كانت بيضاء اللون نيرته ،وقيل انه حين ولدت سطع فى السماء نور زاهر لم تره الملائكة قبل ذلك اليوم ، ولذلك لقبت بالزهراء •

ولقد كانت السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، أعــرف القوم بدينها وبما جاء به والدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ كانت تتلقى عنــه ، ما يتلقاه من الوحى • ولذلك كانت محببة اليه ، وكان اذا سافر ودعها ، واذا قدم من ســفره بدأ بزيارتهــا ، وكان يدعوها بأم أبيها لأنها كانت أشبههن به فى خلق وخلق ، وكانت تتوافر على خدمته وتهتم بشئونه ورعايته ، فضلا عن شئون البيت كله خاصة بعد انتقال أمها الكبرى • وقد ورد عن السيدة عائشة رضى الله تعالىعنها أنها قالت : « مارأيت أحدا أشبه سمتا ، ودلا وهديا ، وحديثا ، برسول الله صلى اللهعليه وسلم وفى قيامه وقعوده من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، قالت : « وكان اذا دخلت عليــه قام اليهــا فقبلها وأجلسها فى مجلسه ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا دخل عليها قامت من مجلسها وأجلسته فى مجلسها » •

ولقد قال لها مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » • وتصفها السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها بقولها : « ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها » فهى رضوان الله تعالى عليها تمثل أشرف ما فى المرأة من انسانية وصيانة وكرامة وقداسة ورعاية وعناية ، فضلا عن ذكاء وقاد ، وفطنة حادة ، وعلم واسع •

وروى الحاكم فى المستدرك بسنده عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال ، سألت أمى عن صفة فاطمة رضى الله عنها فقالت : « والله كأنها القمر ليلة البدر ، أو الشمس خرجت من السحاب ، وكانت بيضاء بضة ، أشد الناس شبها برسول الله صلى الله عليه وسلم بيضاء مشربة بحمرة ، لها شعر أسود يتعفر لها » • ويقول الشاعر فى ذلك :

بيضاء تسحب من قيام شعرها ... وتغيب فيه وهو داج أسحم
فكأنها فيه نهار مشرق ... وكأنها ليل عليها مظلم

فالله تعالى قد أبدعها فى قسامة ووسامة وصباحة وملاحة •

وجاء فى « كشف الغمة » أن بعض الوعاظ ذكر فى كلامه السيدة فاطمة الزهراء عليها رضوان الله تعالى وسلامه ، وما وهبها الله من المزايا والفضائل ، وما وسمها من ميسم الحسن والجمال والبهاء ، فأخذته النشوة واستخفه الطرب ، فأنشد يقول :

خجلا من نور بهجتها ... تتوارى الشمس بالشفق
وحياء من شمائلها ... يتغطى الغصن بالورق

كما ميزها الله تعالى بمزايا وخصها بخصائص وأكرمها بمكرمات جعلت لها قداسة وجلالة منها :

١ ـ أنها بضعة الرسول صلى الله عليه وسلم وحبيبته • فقد روى البخارى فى صحيحه بسنده ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها فقد أغضبنى » •

كما روى مسلم فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انما فاطمة بضعة منى ، يريبنى ما رابها ، ويؤذينى ما آذاها »•

٢ ـ أن الله تعالى يغضب لغضبها ويرضى لرضاها ، فعن كنز الدقائق للمناوى قال صلى الله عليه وسلم : « ان الله يغضب لغضب فاطمة ويرضى لرضاها » ، (رواه الديلمى) • وعن ابن سعد فى شرف النبوة ، وابن المثنى فى معجمه عن على كرم الله وجهه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا فاطمة ان الله عز وجل يغضب لغضبك ويرضى لرضاك » • (أخرجه ابن سعد فى شرف النبوة وابن المثنى فى معجمه) •

٣ — أنها سيدة نساء العالمين ، ففى الحلية لأبى نعيم بسنده عن مسروق عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ، كنا عند النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرضه الأخير ، فجاءت فاطمة تمشى ما تخطىء مشيتها من مشية النبى صلى الله عليه وسلم شيئا ، فلما رآها قال : « مرحبا بابنتى » ، ثم قال : « يا فاطمة ، ألا ترضين أن تكونى سيدة نساءالعالمين، وسيدة نساء هذه الأمة ، وسيدة نساء المؤمنين » •

وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أسر لها بحديث وهو فى هـذا المرض الذى انتقل فيه الى الرفيق الأعلى ، فبكت ، ثم أتبـع ذلك بحديث فضحكت ، فقالت السيدة عائشة رضى الله عنهـا مستفسرة عن سبب بكائها ثم ضحكها ، « أنا من بين نسائه وقد خصك الرسول بهذا الحديث » ، فقالت الزهراء رضى الله تعـالى عنها « مـا كنت لأفشى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره » •

فلما قبض الرسول الكريم ، أعادت السيدة عائشة استفسارها ، فقالت الزهراء رضى الله تعالى عنها : « أما بكائى ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى : « ان جبريل عليه السلام كان يعرض على القرآن كل عام مرة ، فعرضه العام مرتين ، ولا أرى أجلى الا قد اقترب » ، فبكيت ثم قـال : « اتق واصـبرى ، فـانى أنـا نعم السلف لك » ، ثم قال : « يا فاطمة ، أما ترضين أن تـكونى سـيدة نساء العالمين ، أو سيدة نساء هذه الأمة » ، فضحكت • (رواه مسلم، وقريب من لفظه ومعناه فى البخارى • وفى الصحيحـين من حـديث عائشة عن فاطمة رضى الله تعالى عنهما،« يا فاطمة أما ترضين أن تكونى سيدة نساء المؤمنين » •

وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال ، قال ، رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان ملكا من السماء لم يكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى ، فبشرنى وأخبرنى أن فاطمة سيدة نسـاء أمتى » (رواه الامام أحمد) • وروى ابن عبد البر ، أنه صلى الله عليه وسلم قال لها : « يا بنية ألا ترضين أن تكونى سيدة نساء العالمين ، قالت يا أبت فأين مريم ؟ قال تلك سيدة نساء عالمها » • وفى روايـة النسـائى • « وأخبرنى أنى سيدة نساء أهل الجنة الا مريم ابنة عمران » • وفى رواية للبخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « فاطمة سيدة نسـاء أهل الجنـة » •

٤ ـ شدة حب النبى صلى الله عليه وسلم اياها ، وأنها أحب النساء اليه ، فقد ذكر فى الاستيعاب بسنده ، سئلت السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ، أى الناس كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : « فاطمة » ، قيل ومن الرجال ؟ قالت « زوجها ، ان كان ما علمته صواما قواما » • وروى مثله الحاكم فى المستدرك ورواه الترمذى :

« وكان النبى صلى الله عليه وسلم ، اذا رجع من غزوة أو سفر ، أتى المسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم ثنى بفاطمة ، ثم يأتى أزواجه » • وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا على ان فاطمة بضعة منى ، هى نور عينى ، وثمرة فؤادى ، يسوءنى ما ساءها ، ويسرنى ماسرها ، وانها أول من يلحقنى من أهل بيتى ، فأحسن اليها من بعدى ، وأما الحسن والحسين فهما ابناى وريحانتاى ، وهما سيدا شباب أهل الجنة ، فليكونا عليك كسمعك وبصرك » ، ثم رفع صلى الله عليه وسلم يديه الى السماء فقال : « اللهم انى أشهدك أنى محب لمن أحبهم ، مبغض لمن أبغضهم ، سلم لمن سالمهم ، حرب لمن حاربهم ، عدو لمن عاداهم ، ولى لمن والاهم »• (بعض هذا الحديث بنصه أخرجه الترمذى وأبو حاتم) •

٥ ـ أنها أصدق الناس لهجة ، فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها ، قالت : « ما رأيت أحدا كان أصدق فى لهجة من فاطمة ، الا أ نيكون الذى ولدها صلى الله عليه وسلم » ، (أخرجه أبو عمر)•

٦ ـ طهارتها من حيض الآدميات ، فعن أسماء رضى الله تعالى عنها قالت : « قبلت (أى ولدت) فاطمة بالحسن ، فلم أر لها دما ، فقلت يا رسول الله انى لم أر لها دما فى حيض ولا فى نفاس » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما علمت أن ابنتى طاهرة مطهرة لا يرى لها دم فى طمث ولا ولادة » ، خرجه الامام على ابن موسى الرضا رضى الله عنه) •

٧ ـ كرامتها على ربها عز وجل ، فعن عائشة رضى الله عنها ، مختصرا لفظه : « اذا كان يوم القيامة ، نادى مناد يا معشر الخلائق طأطئوا رءوسكم حتى تجوز فاطمة عليها السلام » •

وعن على كرم الله وجهه ، مختصرا لفظه كذلك : « اذا كان يوم

القيامة ، نادى مناد من وراء الحجاب ، غضوا أبصاركم عن فاطمة بنت النبى محمد حتى تمر » •

٨ — زفافها الى الجنة كالعروس ، فعن على رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تحشر ابنتى فاطمة يوم القيامة ، وعليها حلة الكرامة قد عجنت بماء الحيوان والحياة ، فتنظر الى الخلائق فيتعجبون منها ، ثم تكسى حلة من حلل الجنة على ألف حلة ، مكتوب بخط أخضر أدخلوا ابنة محمد صلى الله عليه وسلم الجنة على أحسن صورة وأكمل هيئة وأتم كرامة وأوفر حظ ، فتزف الى الجنة كالعروس ، حولها سبعون ألف جارية » (خرجه الامام على ابن موسى الرضا رضى الله عنه) •

٩ — تحريم ذريتها على النار ، فعن عبد الله ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان فاطمة حصنت فرجها فحرم الله ذريتها على النار » (أخرجه أبو همام فى فوائده) •

وهناك كثير من المزايا والخصائص التى لا يتسع لها العديد من المجلدات ، خصها الله تعالى بها ، لتكون بحق سيدة نساء العالمين • ولهذا ما ان بلغت الحلم ، حتى تكاثر خطابها ، وتنافس طلابها ، وأقبلوا يطلبون يدها ، لما عرف من وسامتها ، ولما لأبيها صلى الله عليه وسلم من سمو وقداسة ، وكان والدها الرسول الأمين صلوات الله تعالى عليه وسلامه يحدث نفسه قائلا : « يا ترى هذه الحورية لمن » ؟ فجاءه جبريل عليه السلام يوما وقال له : « ان الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك ، اليوم كان عقد فاطمة فى موطنها فى قصر أمها فى الجنة ، الخاطب اسرافيل وجبريل وميكائيل الشهيد ، والولى رب العزة والزوج على بن أبى طالب •

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال ، خطب أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه الى النبى صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا بكر لم ينزل القضاء بعد » • ثم خطبها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، مع عدة من قريش كلهم يقول له مثل قوله لأبى بكر • فقيل لعلى ، لو خطبت الى النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة لخليق أن يزوجكها • قال ، وكيف وقد خطبها أشراف قريش فلم يزوجها • قال فخطبها ، فقال صلى الله

عليه وسلم : « قد أمرني ربي عز وجل بذلك » . قال أنس ، ثم دعاني النبي صلى الله عليه وسلم بعد أيام ، فقال لي : « يا أنس أخرج وادع لي أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار». قال فدعوتهم ، فلما اجتمعوا عنده صلى الله عليه وسلم وأخذوا مجالسهم ، وكان علي غائبا في حاجة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المرهوب من عذابه [1] ، المرغوب اليه فيما عندم من ثوابه ، النافذ أمره في أرضه وسمائه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم . ان الله تبارك اسمه وتعالت عظمته ، جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا، أوشج به الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال تبارك اسمه وتعالى جده « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا »[2] . فأمر الله يجري الى قضائه ، وقضاؤه يجري الى قدره ، ولكل قضاء قدر ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب ، « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب »[3] . ثم ان الله تعالى أمرني أن أن أزوج فاطمة من علي ، وأني أشهدكم أني قد زوجتها اياه ، على أربعمائة مثقال فضة ان رضي علي بن أبي طالب بذلك ، على السنة القائمة والفريضة الواجبة » .

وعندئذ دخل علي ، على النبي صلى الله عليه وسلم فتبسم في وجهه ثم قال : « ان الله أمرني أن أزوجك فاطمة على أربعمائة مثقال فضة ان رضيت بذلك » فقال ، قد رضيت بذلك يا رسولَ الله ، ثم خر لله ساجدا .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « جمع الله شملكما ، وبارك لكما ، وأسعد جدكما ، وأطاب نسلكما ، وجعل نسلكما مفاتيح الرحمة، ومعادن الحكمة ، وأمن الأمة ، وأخرج منكما الكثير الطيب ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم » . (أخرجه أبو الخير القزويني الحاكمي) .

---

(١) وفي رواية : المهروب اليه من عذابه .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٣٩ من سورة الرعد .

وعن ابن مردوية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى تكلم خطيبا لنفسك فقال :

« الحمد لله الذى قرب من حامديه ، ودنا من سائليه ، ووعد الجنة من يتقيه ، وأنذر بالنار من يعصيه ، نحمده على قديم احسانه وأياديه، حمد من يعلم أنه خالقه وباريه ، ومميته ومحييه ، وسائله عن مساوبه نستعينه ونستهديه ، ونؤمن به ونستكفيه ، ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، شهادة تبلغه وترضيه ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، صلاة تزلفه وتحظيه ، وترفعه وتصطفيه ، وهـذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، زوجنى ابنته فاطمة على أربعمائة مثقال ، فاسألوه واشهدوا » .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قد زوجتك ابنتى فاطمة على ما زوجك الرحمن جل جلاله ، وقد رضيت بما رضى الله تعالى ، فنعم الختن [1] أنت ، ونعم الصاحب أنت ، وكفاك برضا الله تعالى رضـا » .

ولما كانت ليلة البناء [2] ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : « لا تحدث شيئا حتى تلقانى » . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم باناء فتوضأ فيه ثم أفرغه على على ، ثم قال : « اللهم بارك فيهماوبارك عليهما وبارك لهما فى نسلهما » .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم انهما أحب الخلق الى فأحبها وبارك فى ذريتهـا ، واجعل عليهمـا منك حافظـا ، وانى أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم »[3] .

ثم دعا لفاطمة فقال : « أذهب الله عنك الرجس وطهرك تطهيرا ».
وروى أنه صلى الله عليه وسـلم قال : « مرحبا ببحـرين يلتقيان ، ونجمين يقترنان ، اللهم هذه ابنتى وأحب الخلـق الى ، اللهم وهـذا أخى وأحب الخلق الى ، اللهم أجعله لك وليـا ، وبك حفيـا ، وبارك له فى أهله » ثم قال : « يا على ، أدخل بأهلك ، بارك الله تعالى لك، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد » .

(١) ختن الرجل عند العامة : زوج ابنته .
(٢) ليلة الزفاف .
(٣) كل هذه الروايات أخرجها أبو حاتم وأحمد فى المناقب من حديث أبى يزيد المدائنى .

ولما هم النبى صلى الله عليه وسلم بالخروج من عندهمـــا ، التفت فاذا بفاطمة تبكى ، فقال لها : « ما زوجتك من نفسى ، بل الله تعالى تولى تزويجك فى السماء ، وقد زوجتك خير أهلى ، ســيدا فى الدنيـــا وسيدا فى الآخرة ومن الصالحين » • ولأحمـــد والطبرانى من حـــديث معقل بن يسار ••• ••••وفيه « أما ترضين أن زوجتك أقدم أمتى سلما وأكثرهم علما وأعظمهم حلما » واسناده صحيح •

وقد دعا لهـــا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائـــلا : « أســـأل الله عز وجل أن يحرسك من فوقك ومن تحتك ومن بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم » • كما دعا لعلى رضى الله تعالى عنه بقوله : « جمـــع الله شملكما فجعل الله نسلكما مفـــاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة » • ولم يزل صلى الله عليه وسلم يدعو حتى توارى فى حجرته •

وعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنـــه ، فى قوله تعالى : « مرج البحرين يلتقيان » (١) ، قال ، على وفاطمة ، « يخرج منهمـــا اللؤلؤ والمرجان » (٢) ، قال الحسن والحسين •

وكانت سن السيدة البتول فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنهـــا عند زواجها ، خمس عشرة سنة وخمسة أشهر ونصف الشهر ، وقيل ثمان عشرة سنة كما روى ابن ســـعد فى الطبقات • وكان سن الامام على كر مالله تعالى وجهه ، احدى وعشرين سنة وخمســـة أشهـــر . وكان ذلك بعد عودته من غزوة بدر •

وقد عاشا معا فى منزل الزوجية ترفرف عليهما أعـــلام الســـعادة والهنـــاء من كل جانب ، فكانت تقوم بعمل البيت ، وترعى زوجهـــا وأولادهـــا ، لا يقوم بمعاونتها أحد الا زوجها عندما تسمح له ظروفه بالعودة الى البيت أثنـــاء النهار • فكانت مثلا كريما للزوجة المثـــالية ، وأسوة طيبة يجدر بنسائنا التأسى بهـــا •

وقد دخل عليها يوما ، زوجها الامام على كرم الله تعالى وجهـــه ، وهى تدير الرحاء لتطحن الحبوب وكانت مجهدة متعبة من أثر العمل

(١) الآية ١٩ من سورة الرحمن •
(٢) الآية ٢٢ من سورة الرحمن •

المنزلى الشاق ، فأشار عليها أن تذهب الى والدها الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم لتطلب منه ــ وقد جاءه سبى كثير[1] ــ خادما تعاونها ، فذهبت الى أبيها عليه الصلاة والسلام وقالت له :

ــ يا أبى يا رسول الله ، لقد طحنت كثيرا حتى كلت يداى ، وقد جاءك الله بخدم فأخدمنا (يعنى أعطنا خادما) .

فقال صلوات الله تعالى وسلامه عليه :

ــ « والله لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع » . ثم قال : « ألا أخبركما[2] بخير مما سألتمانى » . قالا :

بلى يا رسول الله . قال :

ــ « كلمات علمنيهن جبريل ، اذا أتيتما فراشكما فاقرآ آية الكرسى وسبحا الله ثلاثا وثلاثين ، واحمدا الله ثلاثا وثلاثين ، وكبرا الله أربعا وثلاثين » . (رواه أحمد بسند جيد عن على) . وفى رواية ، أنه صلى الله عليه وسلم قال لها :

ــ « قولى قبل ذلك ، (اللهم رب السموات السبع ، والأرضين السبع ، ورب العرش العظيم ، وسعت كل شيء رحمة) » .

فما تركا ذلك فى أى ليلة بعد ذلك . وقد قال الامام على كرم الله تعالى وجهه ، ماتركتهن منذ سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له ولا يوم صفين ؟ فقال : ولا يوم صفين .

وقد أنجب زواجهما المبارك من الذرية الصالحة الكريمة ، الحسن ، والحسين ، والمحسن ، وزينب ، وأم كلثوم ، ورقية ، عليهم جميعا رضوان الله تعالى وبركاته .

ويصف الشاعر الباكستانى الشهير المرحوم محمد اقبال ، تقوى السيدة البتول فاطمة الزهراء ، فى شعر بالفارسية ، نقله الى العربية ، الرجل الورع الشيخ الصاوى شعلان ، يقول :

فمها يردد آى ربك بينما يدها تدير على الشعير رحاها

(١) أسرى كثيرون ومن بينهم نساء .
(٢) فاطمة وعلى (رضى الله تعالى عنهما) .

بلت وسادتها لآلىء دمعهـــا من طول خشيتها ومن تقواها
جبريل نحو العرش يرفع دمعها كالطل يروى فى الجنان رباهـــا

وقد انتقلت رضى الله تعالى عنها وأرضـــاها الى الرفيــق الأعلى ، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من شهر رمضان سنة احدى عشر هجرية وهى الموافقة ٢٢ من نوفمبر سنة ٦٣٢ ميلادية ، وهى فى نحو الثلاثين من عمرهـــا ، وذلك بعد انتقال أبيها الكريم صلى الله عليه وسلم بستة أشـــهر •

ويروى أن الامام عليا كرم الله وجهه ، لمـــا تولى مواراة جســـدها الطاهر التراب ، قال عند قبرهـــا :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك ، قل يا رسول الله عن صفيتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ، الا أن لى فى التأسى بعظيم فرقتـــك وفادح مصيبتك موضع تعز ، فلقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصـــدرى نفسك ، فانا لله وانا اليه راجعون • فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة ، أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، الى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم » •••• الى أن قال : « والسلام عليكما سلام مودع لا قال ولا سئم ، فان أنصرف فلا عن ملالة ، وان أقـــم فلا عن سوء ظن بما وعـــد الله الصابرين » • ثم تمثل فقال :

لكل اجتماع من خليلين فرقـــة وكل الذى دون الممـــات قليل
وان افتقادى واحدابعدواحد[1] دليل على أن لا يـــدوم خليـــل

وفى رواية أخرى أنه رضى الله تعالى عنه قال :

أرى علل الدنيـــا على كثـــيرة وصاحبها حتى الممـــات عليـــل
لكل اجتماع من خليلين فرقـــة وكل الذى دون الفـــراق قليل
وان افتقادى فاطما بعد أحمد دليل على أن لا يدوم خليـــل

رضى الله تعالى عنـــك وأرضاك يا أم الحســـن ، ويا أم الحســـين ، ويا أم زينب ، ويا أم أم كلثوم ، ويا أم رقيـــة ، يا من أنجبت خـــير نسل ، وأشرف ذرية ، وأكرم عترة لرسول الله صلى الله عليـــه وعلى آلـــه وصحبه وسلم •

---

(١) وفى رواية : وان افتقادى فاطمة بعد أحمد •

أبوها الإمام على بن أبى طالب
كرم الله وجهه

هو الامام على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف • وقد كان أول هاشمى من أبوين هاشميين ، وبذلك اجتمعت له خلاصة الصفات التى اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة ، وهى فى جملتها النبل والشجاعة والمروءة والذكاء ، عدا المأثور فى سماتها الجسدية التى تلاقت أو تقاربت فى عديد من أفراد هذه الأسرة •

ويقال ان أمه اختارت له اسم حيدره باسم أبيها أسد ، ثم غيره أبوه فسماه عليا وبه عرف واشتهر بعد ذلك • وهو أصغر أبناء أبويه• ولد سنة ٣٠ من عام الفيل بالكعبة المكرمة فى يوم الجمعة الثالث عشر من رجب ، وهو أول وآخر مولود يولد بها • وفى ذلك يقول السيد الحميرى :

ولدته فى حرم الاله وأمنه — والبيت حيث فناؤه والمسجد
بيضاء طاهرة الثياب كريمة — طابت وطاب وليدها والمولد
فى ليلة غابت نحوس نجومها — وبدت مع القمر ، المنير الأسعد

ولما أصاب القحط قريشا ، أهاب الرسول الأمين صلى الله عليه وسلم بعميه حمزة والعباس رضى الله تعالى عنهما ، أن يحملا معه ثقل أبى طالب فى تلك الشدة ، فجاءوه وسألوه أن يدفع اليهم بأولاده ليكفوه أمرهم • فقال دعوا لى عقيلا وخذوا من شئتم ، وكان عقيل أحب أولاده الى نفسه ، فأخذ العباس طالبا ، وأخذ حمزة جعفرا ، وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم عليا ، فعوضه ايثار النبى بالحب عن ايثار أبيه •

نشأ فى حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتأدب بآدابه ، وتخلق بأخلاقه ، وأحبه الرسول الكريم حبا شديدا ، فكان يحمله

على صدره فى حنان وعطف ويقول ، أخـــى ووليى وناصرى وصفيى ووصيى وزوج كريمتى •

نشأ رضى الله عنـــه رجلا مكين البنيان ، وظل حافظا لتكوينه البدنى المتين حتى جاوز الستين من عمره • وقد وصفوه وهو فى كمال رجولته بقولهم : انه رضى الله عنه كان ربعة أميـــل الى القصر ، آدم (أى أسمر الوجه) شديد الأدمة ، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها ، ثقيل العينين فى دعج وسعة ، حسن الوجه واضح البشاشة ، عريض المنكبين لهما مشاش (رأس العظم) كمشاش السبع الضارى ، لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت ادماجا ، وكان أبجر (أى كبير البطن) يميل الى السمنة فى غير افراط ، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها ، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها ، شثن الكفين ، يتكفأ فى مشـــيته على نحو يقارب مشية النبى صلى الله عليه وسلم ، ويقدم فى الحرب مهرولا لا يلوى على شىء •

ومن متانة تركيبه وقوته كرم الله وجهه ، أنه كان لا يبالى بالتغيرات الجوية صيفا أو شتاء ، ولا يهتم بالملابس التى تناسب كل جـــو • وفى البخـــارى عن سهل بن سعد رضى الله تعـــالى عنه ، أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه » قال ، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها • فقال : « أين على بن أبى طالب ؟ » فقالوا يشتكى عينيـــه يا رسول الله • قال : « فأرسلوا اليه فأتونى به » •

فلما جاء بصق فى عينيـــه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن بـــه وجع• فأعطـــاه الراية •

وفى رواية أخرى للبخارى عن سلمة قال ، كان على قد تخلف عن النبى صلى الله عليه وسلم فى خيبر وكان به رمد ، فقال أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج على فلحق بالنبى صلى الله عليه وسلم • فلما كان مساء الليلة التى فتحها الله فى صباحهـــا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية (أو ليأخذن الراية) غدا رجلا يحبه الله ورسوله (أو قال ، يحب الله ورسوله) يفتح الله عليه (أو على يديه) • فاذا نحن بعلى وما نرجوه ، فقالوا هذا

على ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الراية . ففتح الله عليــه .

لقد كان رضى الله تعالى عنه ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهم كما جاء فى الرياض النضرة فى مناقب العشرة للطبــرى : أبــو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب الملقب بالفــاروق ، وعثمــان بن عفــان المعروف بذى النورين ، وعلى بن أبى طالب مدينة العلم ، وعبد الرحمن ابن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وســعد بن أبى وقاص ، وسعيد بن زيد ، وأبو عبيدة الجراح رضى الله تعــالى عنهم جميعا .

ولقد ورد عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، قال رســول الله صلى الله عليه وسلم : « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأقــواهم فى دين الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على بن أبى طالب، ...... فمن أحبهم فقد نجا ، ومن أبغضهم فقد هلك » (أخرجه الملاء فى ســيرته) .

وفى حديث طويل عن أنس بن مالك رضى الله تعــالى عنه قال ، صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « مالى أراكم تختلفون فى أصحابى ، أما علمتم أن حبى وحب آل بيتى وحب أصحابى فرضه الله تعالى على أمتى الى يوم القيامة » ، ثم قال : « أين أبو بكر ... وأين عمر بن الخطاب ... وأين عثمــان .... » ثم قال : « أين على بن أبى طالب » ، فوثب اليه وقال هاأنذا يا رسول الله ، قال : « أدن منى » ، فدنا منه فضمه الى صدره وقبل بين عينيه ــ كما فعل بأصحابه من قبل ــ ودموعه تجرى على خــده ، وقال بأعلى صوته : « يا معاشر المســلمين ، هــذا شيخ المهــاجرين والأنصار ، هذا أخى وابن عمى وختنى ، هذا لحمى ودمى وشعرى ، هذا أبو السبطين الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنــة ، هــذا مفرج الكرب عنى ، هــذا أسد الله وسيفه فى أرضه على أعدائه ، فعلى مبغضــه لعنة الله ولعنة اللاعنين ، والله منه برىء ، وأنا منه برىء ، فمن أحب أن يبــرأ من الله فليبرأ من على بن أبى طــالب ، وليبلــغ الشاهد منكم الغائب » ، ثم قال : « اجلس يا أبا الحسن فقــد عرف لك ذلك » (أخرجه أبو سهل فى شرف النبوة) .

ولما سئل ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ، عن الخلفاء الراشدين الأربعة ، وصف كلا منهم ، الى أن جـاء الى على بن أبى طالب فقال، « رحمة الله على أبى الحسن ، كان والله علم الهدى ، وكهف التقى ، وطود النهى ، ومحـل الحجى ، وعـين الندا ، ومنتهى العلم الورى ، ونورا أسفر فى ظلم الدجى ، وداعيا الى المحجة العظمى ، مستمسكا بالعروة الوثقى ، أتقى من تقمص وارتـدى ، وأكرم من شهد النجوى بعد محمد المصطفى ، وصاحب القبلتين ، وأبو السبطين ، وزوجتـه خير النسـاء ، فما يفوقه أحد ، لم تر عيناى مثله ، ولم أسمع بمثله، فى الحرب ختالا ، وللاقران قتالا ، وللأبطال شغالا ، فعلى من يبغضه لعنة الله ولعنة العباد الى يوم التناد » ، قيل فما نقش خاتمه حين ولى الأمر ؟ قال : « نقش عليه (الله الملك) » . خرجه بكماله الأصفهانى وأبو الفتح القواس) .

وها هو ابن أبى حديد يصفه فى شرح نهج البلاغة فيقول : « اجتمع للامام على بن أبى طالب من صفات الكمال ، ومحمود الشمائل والخلال، وسناء الحسب ، وباذخ الشرف ، مع الفطرة النقية ، والنفس المرضية، ما لم يتهيأ لغيره من أفذاذ الرجال .

« تحـدر من أكرم المناسب ، وانتهى الى أطيب الأعـراق ، فأبوه أبو طالب عظيم المشيخة من قريش ، وجده عبد المطلب أمـير مكـة وسيد البطحاء ، ثم هو قبل ذلك من هامات بنى هاشم وأعيانهم ، وبنو هاشم كما وصفهم الجاحظ ، ملح الأرض ، وزينـة الدنيـا ، وحـلى العالم ، والسنام الأضخم ، والـكاهل الأعظم ، ولبات كل جـوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغـرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم .

« واختص بقرابته القريبة من الرسول عليه الصلاة والسلام ، فكان ابن عمه ، وزوج ابنته وأحب عترته اليه ، كمـا كان كاتب وحيـه ، وأقرب الناس الى فصاحته وبلاغتـه ، وأحفظهم لقوله وجوامـع كلمـه .

« أسلم على يديه صبيا قبل أن يمس قلبه عقيدة سابقة ، أو يخالط عقـله شوب من شرك موروث ، ولازمه فتيا يافعا ، فى غدوه ورواحه، وسلمه وحربه ، حتى تخلق بأخلاقه ، واتسم بصفاته ، وفقـه عنـه

الدين ، وما نزل به الروح الأمين فكان من أفقه أصحابه وأقضاهم ، وأحفظهم وأوعاهم ، وأدقهم فى الفتيا ، وأقربهم الى الصواب ، حتى قال فيه عمر ، لا بقيت لى معضلة ليس لها الا أبو الحسن ، وقال أيضا ، أعوذ بالله من معضلة ليس لها الا أبو الحسن ، وقال أيضا : لولا على لهلك عمر » .

وكانت حياة الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، مفعمة كلها بالأحداث ، مليئة بجلائل الأمور وعظائمها ، فعلى عهد الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، ناضل المشركين واليهود ، فكان فارس الحلبة ، وسعر الميدان ، صليب النبع ، جميع الفؤاد .

« وفى أيام خلافته كانت له أحداث أخرى ، لقى فيها ما لقى من جراء تفرق الكلمة ، واختلاف الجماعة وانفصام العروة ، ما طوى أضالعه على الهم والأسى ، ولاع قلبه بالحزن والشجن .

« وفى كل ما لقى من أحداث وأمور ، وما صادف من محن وخطوب ، بلا النـاس وخبرهم ، وتفطن لمساوىء نفوسهم ، واستشف ما وراء مظاهرهم ، فكان العالم المجرب الحكيم ، والناقد الصيرفى الخبير .

« وكان لطيف الحس ، نقى الجوهر ، وضاء النفس ، سليم الذوق ، مستقيم الرأى ، حسن الطريقة ، سريع البديهة ، حاضر الخاطر ، عارفا بمهمات الأمور اصدارا وايرادا » .

ولقـد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهمـا : « لقد أعطى على بن أبى طالب تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شاركهم فى العشر العاشر» . وحدث كرم الله وجهه عن علمه فقال مشيرا الى صدره ، تحدثا بنعمـة الله تعالى عليه : « ان ها هنا لعلما جما لا أجد له حملة » .

ويصفه الحسن البصرى فيقول عنه : « كان سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، وربانى هذه الأمة وذا فضلها وسابقتها ، وذا قرابتهـا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يكن بالنئومة عن أمر الله ، ولا بالملومة فى دين الله ، ولابالسروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمـه ، ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام[1] مشرقة ، ذاك على بن أبى طالب» .

---

(١) وفى رواية : وانوار .

ويقولون الفضل ما شهد به الأعداء ، فقد دخل ضرار بن ضمرة الكنانى ــ وكان من محبى الامام على ــ على معاوية بن أبى سفيان وهو خصم الامام على ، فقال صف لى عليا ، قال ضرار أعفنى ، قال (مهـددا) لتصفنه ، قال أما اذ لابد من وصفه ، فانه :

« كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ، وكان غزير الدمعة ، طويـل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن[1] . ومن الطعام ما جشب[2] ، وكان فينا كأحدنا ، يدنينا اذا أتيناه ، ويجيبنا اذا سألناه ، ويلبينا اذا دعوناه ، وينبئنا اذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه ايانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه هيبة له ، فان تبسم فعن مثـل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ــ وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه ــ قابضا على لحيته ، يتململ تململ السليم[3] ، ويبكى بكاء الحزين ، فكأنى أسمعه الآن وهو يقول : « يا ربنا يا ربنا » ، يتضرع اليه ثم يقول :

« يا دنيـا غرى غيرى ، أ الى تعرضت أم الى تشوقت[4] ، هيهـات هيهات ، قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك كبير ، وعيشك حقير ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » .

فبكى معاوية ، ووكفت[5] دموعه على لحيته ما يملكها ، وجعل يجففها بكمه وقد اختنق القوم بالبـكاء وقال : رحم الله أبا الحسن ، كان والله كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال :

ــ حزن من ذبح ولدهـا بحجرها ، فهى لا ترقأ عبرتها ولا يسـكن حزنهـا .

---

(١) وفى رواية : ما قصر .
(٢) وفى رواية : ما خشن .
(٣) ويعبر بهذا اللفظ عن الأجرب .
(٤) وفى رواية : تشوفت اى تطلعت .
(٥) اى سالت .

ولما ولى أمير المؤمنين على كرم الله تعالى وجهه الخلافة ودخل الكوفة ، قال له رجل من حكماء العرب :

ـ يا أمير المؤمنين لقد زنت الخلافة وما زانتك ، ورفعتها ومارفعتك، وهى كانت أحوج اليك منك اليها .

اقتبس رضى الله تعالى عنه من نور النبوة ، وتصدى لنشر العلم والفتيا ، وكان يقول :

ـ « أيها الناس سلونى سلونى قبل أن تفقدونى ، فوالله ما من آية فى كتاب الله تعالى نزلت ، الا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل أم فى جبل » .

ولقد وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته البتول السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها عند زواجهما بقوله :

ـ « فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما ، وأفضلهم حلما ، وأولهم سلما» .

ولما بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم قاضيا الى اليمن ، قال :

ـ يا رسول الله ، انهم كهول ذوو أسنان ، وأنا فتى ، وربما لم أصب فيما أحكم به بينهم . فقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـ « اذهب فان الله سيثبت قلبك ويهدى لسانك » .

وعن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أقضى أمتى على » .

أما فضله على العرب ، فقد جاء عن معاذ بن جبل ، أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تختصم الناس بسبع ولا يحاجك أحد من قريش ، أنت أولهم ايمانا بالله ، وأوفاهم بعهد الله ، وأقومهم بأمر الله ، وأقسمهم بالسوية ، وأعدلهم فى الرعية ، وأبصرهم بالقضية ، وأعظمهم عند الله مزية » (أخرجه الحاكمى).

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ـ وهو يحتضر بعد أن طعن ـ للامام على كرم الله وجهه :

ـ لعل هؤلاء القوم يعرفون لك حقك وقرابتك وشرفك من رسول الله ، وما آتاك الله من العلم والفقه والدين ، فيستخلفونك . فان وليت

هذا الأمر فاتق الله يا على فيه ، ولا تحمل أحدا من بنى هاشم على رقاب النـــاس •

ويبين قدر الامام على بن أبى طالب كذلك ومنزلته ، من ثنايا النقاش الذى دار بينه وبين سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما ، عمن يتقدم منهما ليقرع باب حجرة الرسول صلى الله عليه وسلم مستأذنا فى الدخول عليه • فقال أبو بكر الصديق مقدما الامام عليا :

ــ أنا لا أتقدم على رجل قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ان جبريل أتانى فقال لى يا محمد ، ان الله عز وجل يقرئك الســـلام ويقول لك أنا أحبك وأحب عليا فسجدت شكرا ، وأحب فاطمة فسجدت شكرا وأحب حسنا وحسينا فسجدت شكرا » •

وقد أعلم الله تعالى رسوله الكريم بهذه المساجلة التى حفت بالأدب والاسلام والايمان ، اذ بعث اليه جبريل الأمين عليه السلام ، طالبــا اليه الخروج اليهمـــا ليكون معهمـــا ، فان الله تعالى قد حفهما بالرحمـــة والرضوان ، فوجدهما الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه كما ذكر له جبريل ، فقبلهما النبى فى وجهيهما وقال :

ــ « وحق من نفس محمـــد بيده ، لو أن البحار أصبحت مدادا ، والأشجار أقلاما ، وأهل السموات والأرض كتابا ، لعجزوا عن فضلكما وعن وصف أجركما » •

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال : جاء أبوبكر وعلى يزوران النبى صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى بستة أيام • فقال على لأبى بكر :

ــ تقدم يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال أبو بكر :

ــ ما كنت لأتقدم رجلا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « على منى بمنزلة هارون من موسى الا النبوة » (متفق عليه من حديث سعد بن أبى وقاص)، فقال على :

ــ ما كنت لأتقدم رجلا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « ما منكم من أحد الا كذبنى غير أبى بكر ، وما منكم من أحد يصبح الا على بابه ظلمة الا باب أبى بكر » • فقال أبو بكر :

ــ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله ؟ قال :

ــ نعم •

(أخرجه ابن السمان) •

وفى خصائص وصفات الخلفاء الراشدين الأربعة الكرام يقول الشاعر:

من ذا يطيق بأن يحصى الثناء ع … لى محمد وعلى الصديق صاحبه
وقد رقى عمر الفاروق منزلة … وحاز عزا وفخرا فى مراتبه
وحاز عثمان فضلا بالنبى وقد … أثنت جميع البرايا عن مناقبه
وذو الفقار على المرتضى فله … بحر من العلم يبدو من عجائبه
فهم ملاذ لمن خاف الحساب اذا … ضاقت عليه أمور فى مذاهبه
عليهم صلوات الله ما لمعت … فى الليل أنوار برق فى غياهبه

ومما قاله الامام اللغوى أبو عبد الله محمد بن على بن يوسف الأنصارى الشاطبى :

عدى وتيم لا أحاول ذكرهم … بسوء ولكنى محب لهاشم
وما يعترينى فى على ورهطه … اذا ذكروا فى الله لومة لائم
يقولون ما بال النصارى تحبهم … وأهل النهى من أعرب وأعاجم
فقلت لهم انى لأحسب حبهم … سرى فى قلوب الخلق حتى البهائم

ومناقب الامام على كرم الله تعالى وجهه كثيرة جدا ، وكلها مؤيدة بالأحاديث النبوية الشريفة ، فمن ذلك ، كما جاء فى الرياض النضرة فى مناقب العشرة (الجزء الثانى) أنه :

١ ــ أول المسلمين فى سنه اسلاما وايمانا • فعن عمر رضى الله تعالى عنه قال ، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من أصحابه ، اذ ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكب على ، وقال : « يا على ، أنت أول المؤمنين ايمانا ، وأول المسلمين اسلاما ، وأنت منى بمنزلة هارون من موسى » • (أخرجه ابن السمان) •

وعن زيد بن أرقم ، قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان أول من أسلم على بن أبى طالب » ، (أخرجه أحمد والترمذى وصححه) وعن ابن عباس قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان على

أول من أسلم بعد خديجة » ، قال ابن عمر ، هذا حديث صحيح حسن الاسناد لا مطعن فى رواته لأحد .

٢ — أول من صلى . فعن أنس قال : « استنبىء النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وصلى على يوم الثلاثاء» (أخرجه الترمذى وابن عمر)

وفى رواية عن ابن عباس أنه قال : « لعلى أربع خصال ليست لأحد غيره ، وذكر منها أنه أول عربى وعجمى صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

٣ — وأول من يقرع باب الجنة بعد النبى صلى الله عليه وسلم . فعنه كرم الله وجهه أنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا على انك أول من يقرع باب الجنة فتدخلها بغير حساب بعدى» (أخرجه الامام على بن موسى الرضا فى مسنده) .

٤ — خصه الرسول صلى الله عليه وسلم بمحبته . فعن عائشة رضى الله تعالى عنها ، أنها لما سئلت ، أى الناس أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : فاطمة ، فقيل من الرجال ؟ قالت ، زوجها ، ان كان ما علمت صواما قواما » (أخرجه الترمذى وقال حسن غريب) .

٥ — أنه كان من النبى صلى الله عليه وسلم بمنزلة الرأس من الجسد، وأنه بمنزلة هارون من موسى . فعن البراء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « على منى بمنزلة رأسى من جسدى » (أخرجه الملاء) .

وعن سعد بن أبى وقاص ،أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى . « أنت منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى (أخرجه أحمد ومسلم وأبو حاتم) .

٦ — من آذاه فقد آذى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن أحبه فقد أحبه ، ومن تولاه فقد تولاه . فعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها قالت ، أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أحب عليا فقد أحبنى ، ومن أحبنى فقد أحب الله ، ومن أبغض عليا فقد أبغضنى ، ومن أبغضنى فقد أبغض الله عز وجل » (أخرجه المخلص والجلكمى عن عمار بن ياسر ، وزاد فى أوله : « من تولاه فقد تولانى ، ومن تولانى فقد تولى الله .. » .

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال ، بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى على بن أبى طالب فقال له : « أنت سيد فى الدنيا ، سيد فى الآخرة ، من أحبك فقد أحبنى ، وحبيبى حبيب الله ، وعدوك عدوى ، وعدوى عدو الله ، الويل لمن أبغضك» (أخرجه أحمد فى المناقب).

وعن البراء بن عازب قال ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصلى الظهر ، وأخذ بيد على رضى الله عنه فقال : « ألستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ » .

قالوا بلى . قال : « ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ » قالوا بلى . قال فأخذ بيد على فقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » . قال فلقيه عمر بعد ذلك . فقال له ، هنيئا يا ابن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة (مسند الامام أحمد ج ٤) .

٧ ــ اخاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له . فعن على أنه كان يقول : « أنا عبد الله وأخو رسوله ، لا يقولها أحد غيرى الا كذاب » (أخرجه أبو عمر وأخرجه الخلعى وزاد) : « وأنا الصديق الأكبر ، ولقد صليت قبل الناس بسبع سنين » . وللحاكم من حديث ابن عباس أن عليا كان يقول فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انى لأخوه ووليه ووارث علمه » ، وللترمذى من حديث ابن عمر « وأنت أخى فى الدنيا والآخرة » .

٨ ــ ذرية النبى صلى الله عليه وسلم من صلبه . فعن عبد الله بن عباس قال ، كنت أنا والعباس جالسين عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ دخل على بن أبى طالب ، فسلم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام وعانقه وقبل بين عينيه وأجلسه عن يمينه ، فقال العباس ، يا رسول الله ، أتحب هذا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عم ، والله ، لله أشد حبا له منى أن جعل ذرية كل نبى فى صلبه ، وجعل ذريتى فى صلب هذا » (أخرجه أبو الخير والحاكمى) .

وقد رزق الامام على كرم الله وجهه من زوجاته ، أحدا وعشرين من الذكور وثمانى عشر من الأناث ، على خلاف فى ذلك . والذين أعقبوا من ولده خمسة . قال ابن سعد فى الطبقات ، كان النسل من ولد على

لخمسة هم الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية والعباس بن الكلابيـه وعمر بن التغلبية .

٩ ـ هو مولى من كان النبى صلى الله عليه وسلم مولاه ، فعن ابن مسعود قال ، أنا رأيت النبى صلى الله عليه وسلم أخذ بيد على وقال : « هـذا وليى وأنا وليـه ، واليت من والاه ، وعاديت من عاداه » ، (أخرجه الحاكمى) .

١٠ ـ يبلغ عن النبى صلى الله عليه وسلم . فعن أبى سعيد ، أو أبى هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليـه وسلم أبا بكر أميرا على الحج ، وبعث معه أربعين آية من صدر سورة « براءة » ليقرأها على أهل الموسم . فلما خرج ، دعا النبى صلى الله عليه وسلم عليا فقال . « أخرج بهذه القصة من صدر براءة فأذن بذلك فى الناس اذا اجتمعوا . فخرج على على ناقة النبى صلى الله عليه وسلم (العضباء) ، حتى أدرك أبا بكر الصديق رضى الله عنـه بذى الحليفـة . فقال له أبو بكر لمـا رآه : أمير أو مأمور ؟ فقال بل مأمور . ثم نهضا فأقام أبو بكر للناس الحج ، وقرأ على على الناس (براءة) حتى ختمها قبل يوم التروية بيوم ، (كما جاء فى كتاب النسائى عن جابر) .

فلما كان يوم النفر ، قام أبو بكر فخطب الناس يعلمهم مناسـكهم . فلمـا فرغ ، قام على فقرأ على الناس براءة حتى ختمها .

وروى الترمذى عن زيد بن يثيع قال ، سألت عليا بأى شىء بعثت فى الحج ؟ قال بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينـه وبين النبى صلى الله عليه وسلم عهد فهو الى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة الا نفس مؤمنة ، ولا يجتمـع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا . قال : (هذا حـديث حسـن صـحيح) .

وكانت الحكمة فى اعطاء سورة براءة لعلى رضى الله تعالى عنـه ، أن سورة براءة تضمنت نقض العهد الذى كان عقده النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت سيرة العرب ، ألا يحل العقد الا الذى عقـده أو رجل من أهل بيته . فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يقطع السنة العرب بالحجة ، ويرسل ابن عمه الهاشمى من بيته ينقض العهد حتى لا يبقى لهم متكلم .

١١ ــ قال عنه صلى الله عليه وسلم أنه سيد العرب ، وحث الانصار على حبه ، فعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أدعوا لى سيد العرب » (يعنى عليـــا) ، قالت عائشة ، ألست سيد العرب ؟ قال : « أنا سيد ولد آدم وعلى سيد العرب » ، فلما جاء (على) ، أرسل الى الأنصار فأتوه فقـــال لهم : « يا معشر الأنصار ، ألا أدلكم على ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، قالوا بلى يا رسول الله ، قال : « هذا على فأحبوه بحبى وأكرموه بكرامتى ، فان جبريل عليه السلام ، أخبرنى بالذى قلت لكم عن الله عز وجل » ، (أخرجه الفضائلى) ، والمراد بسيد العرب أنه ســـيد شبابهم ، لأن أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، اختص بأنه سيد كهول العرب ، جمعا بين الحديثين .

١٢ ــ سيد المسلمين وولى المتقين (وأنه سيد فى الدنيا والآخرة) . فعن على كرم الله وجهه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وســـلم : «انك سيد المسلمين وامام المتقين وقائد الغر المحجلين ويعسوب الدين» ، (أخرجه على بن موسى الرضا) .

وعن ابن عباس قال ، نظر رسول الله صلى الله عليه وســلم الى على بن أبى طالب فقال : « أنت سيد فى الدنيا وسيد فى الآخــرة » ، (أخرجه أبو عمر وأبو الخير والحاكمى) .

١٣ ــ زواجه بالسيدة فاطمة الزهراء بأمر الله تعالى وبوحى منـــه ، وقد سبق ايضاح ذلك فى موضعه عند الكلام عن البتول السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها .

١٤ ــ خصه الرسول صلى الله عليه وسلم باعطائه الراية يوم خيبر وفتحها ، وانه يحمل رايته يوم بدر وفى المشاهد كلهـــا ، فعن ســـلمة رضى الله تعالى عنه قال ، بعث رسول الله صلى عليه وســـلم ، أبا بكر الصديق برايته وكانت بيضاء ، الى بعض حصون خيبر ، فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد . فقال رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم : « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ، ليس بفـــرار » . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى وهو أرمـــد (بعينيه رمد) ، فتفل فى عينيه ثم قال : « خذ هذه الراية فامض بهـــا حتى يفتح الله عليك » . قال سلمة ، فخرج والله بها يهرول هرولة وأنا

خلفه نتبع أثره حتى ركز رايته فى رضم من حجارة تحت الحصن . فأطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال من أنت ؟ قال ، أنا على بن أبى طالب . قال ، يقول اليهودى علوتم وما أنزل على موسى ، أو كما قال ، قال ، فما رجع حتى فتح الله على يديه . (أخرجه ابن اسحاق) .

وعن على كرم الله وجهه قال ، كسرت يد على يوم أحد ، فسقط اللواء من يده ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ضعوه فى يده اليسرى ، فانه صاحب لوائى فى الدنيا والآخرة . (أخرجه الحضرمى) .

١٥ — هو وزوجه الزهراء وابناهما رضى الله عنهم جميعا ، أهل البيت . فانه لما نزلت الآية الكريمة التى بها : « فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم .... [١] » ، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عليا وفاطمة والحسن والحسين وقال : « اللهم هؤلاء أهلى » ، (أخرجه مسلم والترمذى) .

وعن أم سلمة رضى الله تعالى عنها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، جلل عليا والحسن والحسين وفاطمة كساء ، وقال : « اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى ، أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ، (أخرجه الترمذى وقال حسن صحيح) . وعن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاصى قال ، قلت لعبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، يا عم لم كان صغو[٢] الناس الى على ؟ فقال ، يا ابن أخى ، ان عليا كان له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم ، وكان له من السطة[٣] فى العشيرة ، والقدم فى الاسلام ، والصهر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب ، والجود فى الماعون .

١٦ — اختصاصه بالقتال على تأويل القرآن ، كما قاتل النبى صلى الله عليه وسلم على تنزيله . فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله » . قال أبو بكر ، أنا هو يا رسول الله ؟ قال : « لا » . قال عمر ، أنا يا رسول الله ؟ قال :

(١) من الآية ٦١ من سورة آل عمران .
(٢) ميل .
(٣) التوسط . ويقال فيه التمكن لأن من توسط شيئا تمكن منه .

« لا ، ولكن خاصف النعل » ، وكان عليه الصلاة والسلام قد أعطى عليا كرم الله وجهه ، نعله يخصفها [1] ، (أخرجه أبو حاتم) •

١٧ — اختصاصه بأن لم يسد بابه مع سد الابواب الشارعة فى المسجد ، فعن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال ، لقد أوتى ابن أبى طالب ثلاث خصال ، لأن يكون لى واحدة منهن أحب الى من حمر النعم ، زوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وولدت له ، وسد الأبواب الا بابه فى المسجد ، وأعطاه الراية يوم خيبر ، (أخرجه أحمد) وعن زيد بن أرقم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانى أمرت بسد هذه الأبواب الا باب على ، وقال فيه قائلكم وانى والله ما سددت شيئا ولا فتحته ولكنى أمرت بشىء فاتبعته » (مسند الامام أحمد جزء ٤) •

١٨ — هو حجة النبى صلى الله عليه وسلم على أمته ، وهو باب دار العلم ، وباب مدينة العلم • فعن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال ، كنت عند النبى صلى الله عليه وسلم ، فرأى عليا مقبلا فقال : « يا أنس » قلت لبيك ، قال : « هذا المقبل حجتى على أمتى يوم القيامة » •

وعن على رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دار العلم وعلى بابها » • وزاد ابن عمر وقال : « أنا مدينة العلم » ، وزاد : « فمن أراد العلم فليأته من بابه » • وفى رواية للحاكم من حديث ابن عباس « أنا مدينة العلم وعلى بابها » • وللترمذى من حديث على « أنا دار الحكمة وعلى بابها » •

١٩ — أعلم الناس بالسنة ، وأنه أكثرهم علما وأعظمهم حلما ، فعن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها قالت ، من أفتاكم بصوم عاشوراء ؟ قالوا على ، أما أنه أعلم الناس بالسنة ، (أخرجه أبو عمر) •

وعن ابن مسعود رضى الله تعالى عنه قال ، أعلم أهل المدينة بالفرائض على بن أبى طالب •

وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : « والله لقد أعطى

---

(١) يصلحها •

على تسعة أعشار العلم ، وايم الله لقد شارككم فى العشر العاشر » . (أخرجه أبو عمر) .

وروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، أراد رجم المرأة التى ولدت لستة أشهر . فقال له على . ان الله تعالى يقول : « وحمله وفصاله ثلاثون شهرا [1] » . ويقول : « وفصاله فى عامين [2] » ، فالحمل ستة أشهر والفصال فى عامين . فترك عمر رجمها ، وقال ، لولا على لهلك عمر ، (أخرجه العقيلى وأخرجه ابن السمان عن أبى حزم بن أبى الأسود) .

وعن زيد بن على عن أبيه عن جده قال ، أتى عمر بامرأة حامل قد اعترفت بالفجور ، فأمر برجمها . فرده على وقال ، هذا سلطانك عليها فما سلطانك على ما فى بطنها ؟ ولعلك انتهرتها أو أخفتها . قال ، قد كان ذلك . قال أو ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا حد على معترف بعد بلاء ؟ انه من قيد أو حبس أو تهدد علا اقرار له » ، فخلى عمر سبيلها .

وبالجملة ، فقد كان كرم الله تعالى وجهه ، أهلا لأن يجيب على أى سؤال ، كما أنه كان أقضى الامة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم شهد له بالجنة ، وأنه دعا له حين ولاه قضاء اليمن بقوله : « ان الله سيهدى قلبك ويثبت لسانك » ونصحه بقوله : « يا على ، اذا جلس اليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الاخر كما تسمع من الأول ، اذا فعلت ذلك تبين لك القضاء » ، وأن الله تعالى يحبه ورسوله ، وأن له منزلة عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه شبهه بخمسة من الأنبياء هم ، آدم فى علمه ، ونوح فى فهمه ، وابراهيم فى حلمه ، ويحيى بن زكريا فى زهده ، وموسى بن عمران فى بطشه ، عليهم جميعا أفضل الصلوات وأتم التسليم ، وأنه رضى الله تعالى عنه راسخ القدم فى الايمان ، كثير الصدقة ، متواضع .

ومن كراماته رضى الله تعالى عنه ، أنه أخبر عن نفسه أنه يقتل . فلما ضربه عبد الرحمن بن ملجم (عليه لعنة الله) ، أوصى بوصية طويلة قال فيها :

---

(١) من الآية ١٥ من سورة الأحقاف .
(٢) من الآية ١٤ من سورة لقمان .

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به أمير المـؤمنين على ابن أبى طالب ، أوصى بأنه يشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ؛ وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، صلوات الله وبركاته عليه ، وقرأ : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسـلمين » [1] .

« أوصيك يا حسن وجميع ولدى وأهل بيتى ومن بلغه كتابى هذا ، بتقوى الله ربنا ، ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبـل الله جميعا ولا تفرقوا ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسـلم يقول : « اصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام ، وأن المبيدة الحالقة للدين فساد ذات البين ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

« أنظروا الى ذوى أرحامكم ، فصلوهم يهون الله عليكم الحساب الله الله فى الايتام ، فلا تغبرن أفواههم بجفوتكم ، الله الله فى جيرانكم، فانها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما زال يوصينا بهم حتى ظننا أنه سيورثهم .

« والله الله فى بيت ربكم ، فلا يخلون منكم ما بقيتم ، فانه ان ترك لم تناظروا ، وانه ان خلا منكم لم تنظروا .

« والله الله فى صيام شهر رمضان ، فانه جنة[2] من النار ،

« والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ،

« والله الله فى زكاة أموالكم ، فانها تطفىء غضب ربكم ،

« والله الله فى أمة نبيكم ، فلا يظلمن بين أظهركم ،

« والله الله فى أصحاب نبيكم ، فان رسول الله صلى الله عليـه وسـلم أوصى بهم ،

« والله الله فى الفقراء والمساكين ، فأشركوهم فى معايشكم ،

« والله الله فيما ملكت أيمانكم ، فانها كانت آخر وصية رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، اذ قال : « أوصيكم بالضعيفين فيما ملكت أيمـانكم » .

---

(١) من الآية ١٦٢ ، والاية ١٦٣ من سورة الأنعام .

(٢) سترة ووقاية .

ثم قال : « الصلاة الصلاة ، لا تخافوا فى الله لومة لائم ، فانه يكفيكم من بغى عليكم وأرادكم بسوء .

« قولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الامر عنكم ، وتدعون فلا يستجاب لكم .

« عليكم بالتواضع والتباذل والتبار [1] ، واياكم والتقاطع والتفرق ، ثم قال : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب [2] » .

« حفظكم الله من أهل بيت ، وحفظ فيكم نبيه ، استودعكم الله خير مستودع ، وأقرأ عليكم سلام الله ورحمته » .

ثم أوصى ولديه الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما ، وصية أخرى طويلة جاء فيها :

« يا بنى عبد المطلب ، لا تخوضوا دماء المسلمين خوضا ، تقولون قتل أمير المؤمنين . ألا لا تقتلن بى الا قاتلى ، أنظروا اذا أنا مت من ضربته هذه ، فاضربوه ضربة ولا تمثلوا به ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور » ، (أخرجه الفضائلى) .

وقد استشهد كرم الله تعالى وجهه اثر ضربة بسيف مسموم قبل فجر ليلة الجمعة ٢١ من رمضان سنة أربعين هجرية .

ولقد عرف الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه ، بأنه سيد الفصحاء وامام البلغاء ، حتى قيل فيه ، (كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق) . وليس أدل على ذلك من مراجعة أقواله كرم الله تعالى وجهه ، فانها شاهدة على بلاغته ، وكان له شعر رصين ، وان قل ،يحمل من كريم المعانى وغالى النصائح ودرر الكلام ، ما يجعلنا نورد القليل منه ، رغم نفاسة كل ما قال .

فمن ذلك قوله تحدثا بنعمة الله تعالى عليه :

---

(١) فعل البر .
(٢) من الآية ٢ من سورة المائدة .

محمــــد النبى أخى وصــــهرى وحمــزة ســـيد الشــهداء عمى
وجعفـــر الذى يمسى ويضــحى يطـير مـــع الملائــكة ابن أمى
وبنت محمــــد ســكنى وعرسى مشـــوب لحمهــا بــدمى ولحمى
وســبطا أحمـــد ابنـــاى منهـــا فمن منـــكم له ســـهم كســـهمى
ســـبقتكمو الى الاســلام طفـــلا صــغيرا ما بــلغت أوان حــلمى
وصــليت الصــلاة وكنت فـــردا فمن منـــكم لـــه يـــوم كيـــومى
فـــويل ثـــم ويـــل ثـــم ويـــل لمن يــــلقى الاله غـــدا بظـــلمى

وقد عدد رضى الله تعالى عنه خصالا عشرا يجمعن مكارم الأخلاق فى أبيات خمسة من الشعر البليغ قال فيها :

ان المـــكارم أخــــلاق مطهـــرة فالعقـــل أولهـــا والـــدين ثانيهـــا
والعـــلم ثالثهـــــا والحـــلم رابعها
والجود خامسها والعرف[1] ساديها[2]
والبـــر ســـابعها والصـــبر ثامنهـــا
والشـــكر تاسعها واللـــين عاشيهـــا[3]
والنفس تعـــلم أنى لا أصـــدقها ولست أرشـــد الا حين أعصـــيها
والعـــين تعـــلم من عينى محدثها ان كان من حزبهـــا أو من أعاديها

وجاء فى كتاب « الفصول المهمة فى معرفة أحوال الأئمة » عليهـــم السلام للشيخ على بن محمد بن أحمد المالكى المكى الشهير بابن الصباغ أن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال ، سمعت عليا كرم الله وجهه ينشد ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسمع :

أنا أخو المصـــطفى لا شـــك فى نســـبى
بـــه ربيت وســــبطاه همــــا ولـــدى
جدى وجد رســـول الله منفـــرد وفاطم زوجتى لا قـــول ذى فند
صدقته وجميع النـــاس فى بهـــم من الضـــلالة والاشراك والنـــكد

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وقال : « صدقت يـــا على » .

وقوله كرم الله وجهه :

فـــــلا تفش سرك الا اليــــــك فان لـــكل نصـــيح نصـــيحا

(١) اى امر بالمعروف .
(٢) اى سادسها .
(٣) اى عاشرها .

وانى رأيت غـــواة الرجـــــال لا يتركـون أديمـا صـحـحا

وقـــوله :

كـد كـد العبـد ان آثـــرت أن تصـــبح حـــرا
لا تقـــل ذا مـــكسب يـــزرى سـؤال ، النـــاس أزرى

وقـــوله :

عليـك باخـوان الصـفاء فانهم عمـاد اذا اســتنجدتهم وظهور
وليس كثـيرا ألف خل وصـاحب وان عدوا واحــدا لـــكثير

وقـــوله :

حقيـق بالتواضـع من يمـــوت ويـكفى المـرء من دنيـاه قوت
فمـا للمـرء يصـبح ذا همـوم وحـرص ليس تـدركه النعـوت
فيـا هـذا سترحل عن قـريب الى قـوم كـلامهم السـكوت

أما جوامع كلمه وحكمه النثرية ، فلا تعد ولا تحصى ، فقد كان كلامه كله حكمة • فمن ذلك قوله :

- الحسد رأس العيوب •
- القلب خازن اللسان •
- التجوع أنفع الدواء ، والشبع يكثر الداء •
- السكوت عن الأحمق جوابه •
- اخوان الدين أبقى مودة •
- امام عادل خير من مطر وابل •
- أدب عيالك تنفعهم •
- أداء الدين من الدين •
- بذكر الله تستنزل الرحمة •
- بئس القلادة ، قلادة الدين •
- بر الوالدين سـلف •
- تعرف حماقة الرجل فى ثنتين ، كلامه فيما لا يعنيه ، وجوابه عما لا يسأل عنه •
- تكاسل المرء فى الصلاة من ضعف الايمان •
- ثوب التقى أشرف الثياب •
- ثروة العاقل فى علمه ، وثروة الجاهل فى ماله •
- ثلاثة مهلكات : العجب والبخل والهوى •

ـ ثلمة الدين موت العلماء •
ـ جهاد النفس أفضل الجهاد •
ـ جليس السوء شيطان •
ـ حرام على قلب متوله بالدنيا ، أن تسكنه التقوى •
ـ حلى الرجال الأدب ، وحلى النساء الذهب •
ـ حارس كل امرىء أجله •
ـ خمس تستقبح فى خمس : كثرة الفجور فى العلماء ، والحرص فى الحكماء ؟ والبخل فى الأغنياء ، والقحبة فى النساء ، وفى المشايخ الزناء •
ـ خابت صفقة من باع الدنيا بالدين •
ـ داروا الغضب بالصمت ، والشهوة بالعقل •
ـ دليل عقل المرء فعله ، ودليل علمه قوله •
ـ ذكر الله قوت القلوب ومجالسة المحبوب •
ـ ذلل قلبك باليقين ، وقرره بالفناء ، وبصره فجائع الدنيا •
ـ ذليل الخلق عزيز عند الله
ـ رب سكوت أبلغ من كلام •
ـ رسول الموت الولادة •
ـ زيادة الدنيا نقصان الآخرة •
ـ زوال العلم أهون من موت العلماء •
ـ سرور المؤمن ، بطاعة ربه ، وحزنه ، فى ذنبه •
ـ سيرة المرء تنبىء عن سريرته •
ـ شر الولاة من خافه البرىء •
ـ شر الأموال ما اكتسب من الآثام •
ـ شفاء الجنان فى قراءة القرآن •
ـ صن دينك بدنياك تربحهما ، ولا تبذل دينك لصيانة دنياك فتخسرهما •
ـ صحة البدن فى الصوم •
ـ ضع فخرك ، واحطط كبرك ، واذكر قبرك ، فان عليه ممرك ، وكما تزرع تحصد ، وكما تدين تدان ، وكما قدمت اليوم تقدم عليه غدا •
ـ ضياء القلب من أكل الحلال •
ـ ضل سعى من رجا غير الله •

ـ طوبى لمن شغل قلبه بالفكر ، ولسانه بالذكر •
ـ طول الاحتراس والحذر ، لا يمنع المقدور •
ـ طول العمر مع الطاعة ، من خلق الأنبياء •
ـ ظلم الرجل فى الدنيا ، عنوان شقائه فى الآخرة •
ـ ظلامة المظلوم لا تضيع •
ـ عليك بالآخرة تأتك الدنيا صاغرة •
ـ عظم الخالق فى نفسك ، يصغر المخلوق فى عينك •
ـ عدو عاقل خير من صديق جاهل •
ـ غنى المؤمن ، بالله •
ـ غشك من أسخطك بالباطل •
ـ فعل المرء يدل على أصله •
ـ قسوة القلب من الشبع •
ـ كثرة الأكل تدفن ، وكثرة السرف تدمر •
ـ ليس لقاطع رحم قرين •
ـ ليس لبخيل حبيب •
ـ ليس لسلطان العلم زوال •
ـ ما آمن بالله من سكن الشك فى قلبه •
ـ مرارة الدنيا حلاوة الآخرة •
ـ مجلس العلم روضة من رياض الجنة •
ـ نال الغنى من رزق ثلاثا : القناعة بما أوتى ، واليأس مما فى أيدى الناس ، والرضا بالقضاء •
ـ نور المؤمن فى قيام الليل •
ـ هانت عليه نفسه من أمر عليه لسانه •
ـ هم السعيد آخرته ، وهم الشقى الدنيا •
ـ وقروا كباركم توقركم صغاركم •
ـ ويح الحسد ما أعدله ، بدأ بصاحبه فقتله •
ـ والله لأن أبيت على حسك السعدان ، وأجر فى الاغلال مصفدا ، أحب الى من أن ألقى الله ورسوله ظالما لبعض العباد ، أو غاصبا لشىء من الحطام •
ـ وضع الاحسان فى غير موضعه ظلم •
ـ لا تثق بالصديق قبل الخبرة •
ـ لا توقع بالعدو قبل القدرة •

— لا تنافس فى مواهب الدنيا ، فان مواهبها حقيرة .
— لا يقرب من الله ، الا كثرة السجود والركوع .
— لا يذهب الفاقة ، مثل الرضا والقنوع .
— لا أمان لمن لا ايمان له .
— يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم .
— يتفاضل الناس بالعلوم والعقول ، لا بالأموال والأصول .
— يبلغ المرء بالصدق منازل الأبرار .

وكمسك الختام فى الكلام عن مولانا الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، نورد ما قاله أبو عبيدة رضى الله تعالى عنه ، قال ، ارتجز الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، تسع كلمات قطع الأطماع عن الالتحاق بواحدة منهن ، ثلاث فى المناجاة ، وثلاث فى العلم ، وثلاث فى الأدب .

فأما التى فى المناجاة فهى قوله : « كفانى عزا أن تكون لى ربا ، وكفى بى فخرا أن أكون لك عبدا ، أنت لى كما أحب ، فوفقنى لما تحب » .

وأما التى فى العلم ، فهى قوله : « المرء مخبوء تحت لسانه ، فتكلموا تعرفوا ، ما ضاع امرؤ عرف قدره » .

وأما التى فى الأدب فهى قوله : « أنعم على من شئت تكن أميره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج الى من شئت تكن أسيره » .

رضى الله تعالى عنه وأرضاه وكرم وجهه آمين .

أخواها السبطان الكريمان
الحسن والحسين
رضى الله تعالى عنهما

أولا : الامام الحسن بن على ، هو أمير المؤمنين الامام أبو محمد الحسن السبط ، خامس الخلفاء الراشدين ، وشقيق السيدة الطاهرة العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وأرضاها •

ويروى أن أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب قالت (كما جاء فى أسد الغابة) :

ـ يا رسول الله ، رأيت كأن عضوا من أعضائك فى بيتى • قال :

ـ « رأيت خيرا ، تلد فاطمة غلاما فترضعينه بلبن قثم » (ابنها) • فولدت الحسن ، فأرضعته بلبن ابنها قثم •

ولد رضوان الله تعالى عليه للنصف الأول من شهر رمضان سنة ثلاث من الهجرة ، فأسماه أبوه الامام على « حربا » • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال (كما جاء فى الاستيعاب) :

ـ « أرونى ابنى ، ما أسميتموه » ؟ قال الامام على :

ـ أسميته حربا • قال صلى الله عليه وسلم :

ـ « بل هو حسن » •

ولم يكن هذا الاسم معروفا فى الجاهلية ، انما هو من أسماء أهل الجنة •

وفى اليوم السابع لمولده ، عق عنه النبى صلى الله عليه وسلم وختنه ، والعقيقة ذبيحة تذبح ليطعم منها الفقراء شكرا لله تعالى الذى وهب المولود • وكانت أمه البتول الزهراء ترقصه وتقول فى طرب :

أشـــبه أبـــاك يا حســـــن واخلـــع عن الحـــق الوسن [1]
واعبـــــد الهـــــا ذا مـــنن ولا تـــــــوال ذا الاحـــــن

ولقد كان رضى الله تعالى عنه ، أقرب الناس شبها بجده المصطفى صلى الله عليه وسلم • فقد روى الترمذى من طريق الزهرى عن أنس قال ، لم يكن أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن • ولابن حبان من حديث أنس « لم يكن أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحسن » •

ويقول عبد الله بن الزبير ، أنا أحدثكم بأشبه أهله به وأحبهم اليه ، الحسن بن على ، رأيته يجىء وهو ساجد فيركب رقبته أو قال ظهره ، فما ينزل حتى يكون هو الذى ينزل ، ولقد رأيته يجىء وهو راكـــع فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر •

وللترمذى من حديث أبى جحيفة أن النبى صلى الله عليـــه وسلم قال للحسن : « أشبهت خلقى وخلقى » •

كما كان الصديق رضى الله تعالى عنه ، يحمل الحسن على عاتقه ويقول، بأبى شبيه بالنبى ليس شبيها بعلى • (رواه البخارى) •

ولقد لقب رضى الله تعالى عنه بألقاب كثيرة هى : النقى ، والطيب ، والزكى ، والولى ، والسبط ، والسيد ، وأمير المؤمنين • وأشهر هذه الألقاب السبط وأعلاها السيد ، كما كان يكنى بأبى محمد ، كناه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم •

كما شرفه جده المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، كما شرف أخاه الامام أبا عبد الله الحسين السبط بأن نسبهما اليه بالبنوة ، وان كانا من صلب على كرم الله وجهه ، وذلك كما روى الترمذى من حديث أسامة ابن زيد حين قال ، طرقت النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الحاجة فقال : « هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » •

نشأ رضى الله تعالى عنه ، عفا ، كريما ، حليما ، عليما ، خطيبـــا ، فارسا ، عابدا ، زاهدا ، راشد الرأى ، ولقد صوره شقيقه الامام الحسين رضى الله عنه وهو يؤبنه فى حزن ووحشة لفراقه فقال :

---

(١) النعاس : وفى رواية الرسن وهو الحبل اى اخلع القيد .

« رحمك الله أبا محمد ، ان كنت لناصرا للحق ، وتؤثر الله عند مداحضة الباطل ، فى مكان التقية بحسن الروية ، وتستشف جليل معاظم الدنيا بعين حاذرة ، وتقبض عليها بيد طاهرة ، وتردع ما يريده أعداؤك بأيسر المؤنة عليك ، وأنت ابن سلالة النبوة ، ورضيع لبان الحكمة ، فالى روح وريحان وجنة نعيم ، أعظم الله لنا الأجر عليه ، ووهب لنا ولكم السلوة وحسن الاساء (١) عليه » .

لقد كان رضى الله تعالى عنه ، عابدا ذا همة خارقة فى عبادته ، حتى كأنه قطع الدنيا الى الآخرة ، وعاين الغيب فرأى أن الأمر جد لا هزل فيه ، فشد ذلك من عزمه حتى حج بيت الله الحرام عشرين مرة ماشيا على قدميه الشريفتين ، وابله تقاد بين يديه ، ويقول تواضعا لله تعالى ، انى أستحى أن أذهب الى بيت الله الحرام راكبا .

كما كان وفيا بوالديه وأهله وصحبه وصحب أبويه ، مترسما فى ذلك خطى جده المصطفى صلى الله عليه وسلم حين قال : « حسن العهد من الايمان » .

وكان سخيا يعطى بسؤال وبغير سؤال ، حتى وصفه أبوه الامام على كرم الله تعالى وجهه بقوله : « صاحب جفنة وخوان (٢) ، فتى من فتيان قريش » . ولقد قيل له :

— لأى شىء نراك لا ترد سائلا وان كنت على فاقة ؟ فقال :

— انى لله سائل ، وفيه راغب ، وأنا أستحى أن أكون سائلا وأرد سائلا ، وأن الله تعالى عودنى عادة ، عودنى أن يفيض نعمه على ، وعودته أن أفيض على الناس ، فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعنى العادة ، وأنشد يقول :

اذا ما أتانى سائل قلت مرحبا ... بمن فضله فرض على معجل
ومن فضله فضل على كل فاضل ... وأفضل أيام الفتى حين يسأل

ولقد جاءه رجل يسأله صدقة ، ولم يكن عنده ما يعطيه ، فاستحيا أن يرده ، فقال للرجل :

---

(١) الصبر .
(٢) ذا مائدة وطعام .

ــ ألا أدلك على شيء يحصل لك منه البر • فقال الرجل :
ــ ماذا ؟ قال :
ــ ان ابنة الخليفة ماتت فاذهب اليه وقل له الحمد لله الذى سترها بوقوفك على قبرها ، ولم يهتكها بوقوفها على قبرك) •

فذهب الرجل وعزى الخليفة بهذه التعزية • فلما سمعها ذهب عنه الحزن ، وأمر للرجل بجائزة ، وقال له :

ــ بالله عليك ، أكلامك هذا ؟ فقال الرجل :
ــ بل كلام الحسن بن على • قال :
ــ صدقت ، انهم معدن الفصاحة • وأمر له بجائزة أخرى •

ولقد أحل الحلال من الطيبات وزينة الله التى أخرج لعباده وذلك لتظهر للناس نعمة الله عليه وغناه عنهم • فلبس ما طاب ، وركب الخيل المسومة • ملك الدنيا ولكنه زهد فيها ، فحقق ما قال به الصوفية حين قالوا ، (ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك ، بل الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك) ، وهو ما كان منه بفضل الله تعالى •

كان رضى الله تعالى عنه حلو الحديث ، عف اللسان ، لا تصدر عنه الكلمات النابية ، وكان يأخذ الأمور بالروية والأناة ، فلا يذهب عنه رشده غضب أو تسرع ، وكل ذلك فى هيبة ووقار يحسب حسابهما صاحب السلطان فى عرشه ، حتى لقد قال معاوية : (والله ما رأيته جالسا عندى الا خفت مقامه •

كما كان حليما حلما شاد به خصومه ، فقال مروان وهو عدو له : (ان حلمه كان يوزن بالجبال) •

وكان يواسى المنكوب فى ساعة العسرة وان تباعد عنه أحبابه • فقد خرج مع أبيه وأخيه يودعون الصحابى الجليل ، أباذر رضى الله تعالى عنه وهو خارج الى الربذة مما أثر فى نفسه فقال : (رحمكم الله أهل بيت النبوة ، مالى بالمدينة سكن ولا شجن غيركم ، اذا رأيتكم ذكرت بكم رسول الله صلى الله عليه وسلم) •

أما اذا اطمأنت نفسه الطاهرة الى رأى ، فانه كان يثبت عنده ويعتد به ويعتز ، ويقف مدافعا عنه ، حتى مع أقرب الناس اليه •

وكم كان خاشعا لله تعالى خائفا فى دماء المسلمين ، فرفض أن يلى أمر الخلافة على الأمة المحمدية اذا أريق فى سبيل ذلك محجمة دم . ولذلك تنازل عن حقه المشروع فى الخلافة لمعاوية ، رغم معارضة أهله وأنصاره .

وقد روى عن أبى بكرة رضى الله تعالى عنه قال ، رأيت النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر ، والحسن بن على معه وهو يقبل على الناس مرة وعليه مرة ويقول : « ان ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » (رواه البخارى) .

كما روى عنه أن رجلا سمعه يناجى ربه ويبكى ، فقال له :

ــ أتخاف عذاب الله وعندك أسباب النجاة ، ابن رسول الله ، وشفاعته صلى الله عليه وسلم ، ورحمة الله التى وسعت كل شىء ! فرد عليه الامام الحسن :

ــ أما انى ابن رسول الله ، فالله يقول : « فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم [1] » ، وأما الشفاعة فهو سبحانه يقول : « من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه [2] » ، وأما الرحمة التى وسعت كل شىء ، فالله يقول : « فسأكتبها للذين يتقون [3] » ، فكيف الأمان يا أخا العرب .

وما أروعه وأورعه من عابد ، فقد درأ الحدود بالشبهات ، حين شكا الى أخيه الامام أبى عبد الله الحسين ، السم الذى دس له فى طعامه سرا وغدرا ومكيدة ، والذى أودى بحياته ، وذلك حين سأله أخوه الامام الحسين عمن سقاه ذلك السم ليقتص منه ، فقال له :

ــ ألقتله ؟ قال :

ــ نعم . فأجابه بايمان صادق :

ــ ما أنا بمخبرك ، ان يكن صاحبى الذى أظن ، فالله أشد نقمة ، والا فما أحب أن يقتل بى برىء .

(١) من الآية ١٠١ من سورة المؤمنون .
(٢) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٣) من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

وبذلك أكد الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، مرة أخرى ، أنه رجل السلام ، حين كانت الصدور تغلى حقدا وترغب فى الانتقام من الأعـــداء .

وقد كان الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، شجاعا ولا يخشى فى الله لومة لائم . فقد جابه معاوية بن أبى سفيان ــ بعد أن استتب له الملك والسلطان ــ وذلك حين قام على المنبر خطيبا ، فتهكم على أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، وقال :

ــ من على ؟ فقام الامام الحسن ، فحمد الله تعالى وأثنى عليـه ثم قال :

ــ ان الله لم يبعث نبيا الا جعل له عدوا من المجرمين قال تعالى : « وكذلك جعلنـا لـكل نبى عدوا من المجـرمين »[1] ، وأنا ابن على ، وأنت ابن صـخر ، وأمك هنـد ، وأمى فاطمـة ، وجدتك قتيـلة ، وجدتى خديجة ، وجدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجـدك عتبة بن ربيعة ، فلعن الله الأمنا حسبا ، وأخملنا ذكرا ، وأقدمنا كفرا ، وأشدنا نفاقا . فصاح أهل المسجد ، آمين . قال الفضل ، قال يحيى ابن معين :

ــ وأنا أقول آمين .

فقطع معاوية كلامه وفر الى منزله .

وقد تفاخر معاوية يوما ، على الحسن بن على رضى الله تعـالى عنهما ، فقال الحسن يرد على معاوية :

ــ أفعلى تفتخر يا معاوية ؟ أنا ابن من ساد أهل الدنيا بالحسـب الثابت (أو الثاقب) ، والشرف الفائق ، والقديم السابق ، أنا ابن من رضاه رضا الرحمن ، وسخطه سخط الرحمن ، فهل لك أب كأبى وقديم كقديمى ؟ فان قلت لا ، تغلب ، وان قلت نعم ، تكذب . فقـال معـاوية :

ــ أقول لا تصديقا لقولك . فقال الحسن :

الحق أبلـج ما تخـون سـبيله   والصدق يعرفـه ذوو الألبـاب

وذات يوم قال عمرو بن العاص لمعاوية :

---

(1) من الآية ٣١ من سورة الفرقان .

ـ ابعث الى الحسن بن على ، فمره أن يخطب على المنبر ، فلعله يحصر (أى يعيى عن الكلام) ، فيكون ذلك مما نعيره به . فبعث اليه معاوية فأصعده على المنبر وقد جمع الناس .

فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

ـ يا أيها الناس ، من عرفنى فأنا الذى يعرف ، ومن لم يعرفنى فأنا الحسن بن على بن أبى طالب ، ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، أنا ابن البشير النذير ، السراج المنير ، أنا ابن من بعث رحمة للعالمين ، وسخطا على الكافرين ، أنا ابن أول من ينفض رأسه من التراب ، أنا ابن أول من يقرع باب الجنة ، أنا ابن من قاتلت معه الملائكة ، ونصر بالرعب من مسيرة شهر .

ولم يزل يخطب حتى أظلمت الدنيا على معاوية ، فقال :

ـ يا حسن ، قد كنتَ ترجو أن تكون خليفة ولست هناك . فقال الحسن .

ـ انما الخليفة من سار بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمل بطاعة الله ، وليس الخليفة من دان بالجور ، وعطل السنن ، واتخذ الدنيا أبا وأما . ولكن ذلك ملك اصاب ملكا يمتع به قليلا ، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته وبقيت عليه تبعته ، فكان كما قال الله عز وجل : « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين [1] »

ثم انصرف ، فقال معاوية لعمرو :

ـ والله ما أردت الا هتكى ، وما كان أهل الشام يرون أن أحدا مثلى ، حتى سمعوا من الحسن ما سمعوا .

وكان الامام الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما ، رجل سلام وأمن بحق ، فحين سالم ، انما سالم ابتغاء مرضاة الله ، لا خوف الناس ، ولا خوف الحرب ، حتى أنه حين أشار عليه المسيب الفزارى أن ينقض صحيفة الصلح الذى أبرمه مع معاوية ، قال رضى الله عنه :

---

(١) الآية ١١١ من سورة الأنبياء .

ـ يا مسيب ، انى لو أردت بما فعلت الدنيا ، لـم يـكن معـاوية بأصبر عند اللقاء ولا أثبت عند الحرب منى ، ولكنى أردت صـلاحكم وكف بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه ، حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر •

وهذا يدل دلالة واضحة على ثباته على رأيه الذى اطمأنت اليـه نفسه الطاهرة ، واعتز به ، وظل مدافعا عنه ، حتى مع أخيه الامام الحسين ، الذى كان يرى خلاف هذا الرأى •

ولينظر القارىء الكريم فى قوة ايمانه بالقضـاء والقدر ، وفهمـه الصحيح له حين سأله فيه الحسن البصرى ، فكتب اليه يقول :

ـ « من لم يؤمن بقضاء الله وقدره ، خيره وشره ، فقد كفر • ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، وان الله تعالى لا يطاع استكراها ، ولا يعصى بغلبة ، لانه تعالى مالك لمـا ملكهم ، وقادر على ما أقدرهم ، فان عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما عملوا ، فان لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، ولو أجبر الخلق على الطاعة لاسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم فان ذلك عجز فى القدرة ، ولـكن الله له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فان عملوا بالطاعة فله المنة عليهم ، وان عملوا بالمعصية فله الحجة عليهم •

وليس هـذا الـكلام غريبا ممن كان أبوه الامام عليا كرم الله وجهه: الذى كان العلم يتفجر من جوانبه ، والذى تحدث بنعمة ربه عليه فيما آتاه من العلم ، فقال مشيرا الى قلبه وصدره :

ـ ان ها هنا لعلما جما لو أجد له حملة •

وقد سئل الامام على مرة عن القدر : فقال لسائله :

ـ طريق دقيق لا تمش فيه • فقال يا أمير المؤمنين

ـ أخبرنى عن القدر • فقال :

ـ ان الله تعالى خلقك كما يشاء أو كما شئت ؟ فقال :

ـ كما شاء • قال :

ـ ألك مشيئة مع الله ، أو فوق مشيئة الله ، أو دون مشيئة الله . أما ان قلت مع مشيئته فقد أدعيت الشركة معه ، وان قلت دون مشيئته،

استعصيت عن مشيئته ، وان قلت فوق مشيئته ، كانت مشيئتك غالبة على مشيئته .

ولقد كان الامام الحسن كثير التزوج ، ولذلك كان له ولد كثير من أزواجه ، وبلغ عدد الذكور بينهم أحد عشر ولدا هم : زيد ، والحسن ، والقاسم ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وعمرو ، وعبد الرحمن ، والحسين الملقب بالاثرم ، ومحمد ، ويعقوب ، واسماعيل .

وقال أصحاب السير أن العقب الصحيح الموجود للآن من الحسن السبط . لزيد والحسن بن الحسن (المثنى) لا غير .

ورث الامام الحسن رضى الله تعالى عنه من أبيه كرم الله وجهه ، العلم والحكمة وحسن المقال ، ولذلك لما قيل له ان أبا ذر يقول :

ــ الفقر أحب الى من الغنى ، والسقم أحب الى من الصحة ، قال :

ــ رحم الله أبا ذر ، أما أنا فأقول ، من اتكل على حسن اختيار الله ، لم يتمن أنه فى غير الحالة التى اختارها الله له .

وكان يقول :

ــ يا ابن آدم ، عف عن محارم الله تكن عابدا ، وأرض بما قسم الله لك تكن غنيا ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلما ، وصاحب الناس بمثل ما تحب أن يصاحبوك به تكن عادلا .

ويقول رضى الله تعالى عنه :

ــ لا أدب لمن لا عقل له ، ولا مودة لمن لا همة له ، ولا حياء لمن لا دين له ، ورأس العقل معاشرة الناس بالجميل ، وبالعقل تدرك الدارين جميعا .

وكانت وفاة الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، بعد عشر سنين خلت من امارة معاوية على المسلمين وذلك فى سنة خمسين من الهجرة ، ويقول أبو الفدا وابن الاثير ، الصحيح أنه توفى فى سنة تسع وأربعين من الهجرة .

وكان الامام الحسن بن على قد أوصى بأن يدفن مع جده النبى صلى

الله عليه وسلم ، فلما أذنت بذلك السيدة عائشة رضى الله عنهـــا ، رفض بنو أمية ذلك وقالوا لا يدفن مع النبى صلى الله عليه وسلم أبدا • ولذلك دفن رضى الله عنه بالبقيع الى جوار أمه البتول السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، وشهد جنازته خلق كثير جـدا ، ويقول فى ذلك ثعلبة بن أبى مالك :

ــ شهدت الحسن يوم مات ودفن بالبقيع ، فلقد رأيت البقيع لو طرحت فيها ابرة ما وقعت الا على رأس انسان (لشدة الزحام) •

وقد رثاه الكثيرون من الشعراء وغيرهم ، كما رثاه أخوه محمد بن الحنفية رضى الله عنه ، فقال :

ــ لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا ، وأنت عقب الهدى ، وخلف أهل التقوى ، وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدى الايمان ، وربيت فى حجر الاسلام ، فطبت حيا وميتا ، وان كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد • ثم أنشد يقول :

أأدهن رأسى أم تطيب مجالسى ... وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الاحشاء منك لهيب
سأبيكك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضر فى أرض الحجاز قضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كل من تحت التراب غريب

***

ثانيا : الامام أبو عبد الله الحسين بن على ، هو السبط الثانى وشقيق السيدة الطاهرة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنهم جميعا •

ولكون الاحداث الاليمة التى جرت فى حياته الى أن استشهد رضى الله عنه ، تتصل اتصالا وثيقا بحياة السيدة العقيلة زينب ، فانه لزاما علينا أن نكتفى بالقدر الواجب من تاريخ حياته الاولى ، على أن يستوفى ما بقى من تاريخ حياته الطاهرة ، عند الكلام فى السيرة الزينبية العطرة الكريمـة •

ولد رضوان الله تعالى وبركاته عليه ، لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة ، وذلك بالمدينة المنورة ، فى بيت النبوة ، بيت النور والهدى • وما أن أتمت أمه البتول الزهراء رضى الله تعالى عنهـا

وضعه ، حتى جيء به الى جده المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فاستبشر به وسماه « حسينا » ، كما سبق أن سمى أخاه « الحسن » ، ولم تكن الجاهلية قد عرفت هذين الاسمين من قبل . وقد عق عنه النبى صلى الله عليه وسلم كبشا وختنه لسابعه .

ويروى أبو داود والترمذى ، عن أبى رافع مولى النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « رأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، أذن فى أذن الحسين حين ولدته أمه كما يؤذن للصلاة » فكان صوت جده عليه الصلاة والسلام أول صوت يسمعه المولود السعيد .

وقد لقب رضى الله تعالى عنه بألقاب كثيرة منها : الرشيد ، والطيب ، والزكى ، والوفى ، والسيد ، والمبارك ، والتابع لمرضاة الله ، والسبط ، وأشهرها الزكى . أما أعلى هذه الالقاب رتبة فهو ما لقبه به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله عنه وعن أخيه : « أنهما سيدا شباب أهل الجنة (رواه الترمذى) ، وكذلك السبط فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حسين سبط من الاسباط » (أخرجه الترمذى) ، والسبط لغة ولد الولد ، والاسباط فى بنى اسرائيل تقابل القبائل عند العرب ، فكأنه صلى الله عليه وسلم يقول :

« حسين أمة وحده فى خصال الخير » .

ولقد أحبه جده المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، كما أحب شقيقه الامام الحسن ، محبة عظيمة . وفى هذا يروى الترمذى فى سننه عن أسامة بن زيد قال ، طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فى بعض الحاجة ، فخرج النبى صلى الله عليه وسلم وهو مشتمل على شىء لا أرى ما هو ، فلما فرغت من حاجتى ، قلت :

ــ ما هذا الذى أنت مشتمل عليه.؟

فكشفه ، فاذا حسن وحسين على وركيه فقال :

ــ « هذان ابناى وابنا ابنتى ، اللهم انى أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما » .

وكان من أثر محبة الله تعالى للسبطين الكريمين ، أن صاحبتهما منذ الصغر ، بل منذ الازل ، العناية الربانية ، فكانا أطهر ذرية لاعظم رسول مشى على وجه هذه الارض .

ومن الطيبي ، وقد رأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك الحب والاعزاز ، وتلك المنزلة للسبطين الكريمين عند جدهما صلى الله عليه وسلم ، أن يجلوهما ويقدروهما حق قدرهما . كما كان لهما رضى الله تعالى عنهما ، حرمة خاصة ومنزلة عند أبيهما الامام على كرم الله تعالى وجهه ، اذ كان يعلم علم اليقين أن فى هلاكهما ، انقطاعا لنسل رسول الله صلى الله عليه وسلم،ولذلك حدث فى موقعة الجمل ، أن قدم أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، ابنه محمدا بن الحنفية عند القتال ، وكف أبنيه الحسن ، فقال بعضهم لمحمد بن الحنيفة .

ــ لم يغرر بك أبوك فى الحرب ، ولا يغرر بالحسن والحسين ؟ فقال فى رشد وأدب :

ــ انهما عيناه وأنا يمينه ، فهو يدفع عن عينيه بيمينه . ومن طريف ما يروى أن سيدنا الحسن والحسين كانا يناديان جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته بلفظ « يا أبت » ، وكان الامام الحسن ينادى أباه الامام عليا بقوله « يا أبا الحسين » ، أما الامام الحسين فكان ينادى أباه بقوله « يا أبا الحسن » ، وبقيا كذلك الى أن انتقل الرسول الكريم الى الرفيق الاعلى ، فأصبحا يهتفان بأبيهما بقولهما « يا أبت » .

وروى ابن عباس قال ، كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، يحب الحسن والحسين ويقدمهما على ولده ، وقد قسم يوما مالا ، فأعطى كل واحد منهما عشرة آلاف ، وأعطى ولده عبد الله ، ألف درهم فقط . فقال عبد الله لابيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :

ــ قد علمت سبقى فى الاسلام وهجرتى ، وأنت تفضل على هذين الغلامين ! فقال :

ــ ويحك يا عبد الله ، ائتنى بجد مثل جدهما ، وأب مثل أبيهما ، وأم مثل أمهما ، وجدة مثل جدتهما ، وخال مثل خالهما ، وخالة مثل خالتهما ، وعم مثل عمهما ، وعمة مثل عمتهما ، جدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبوهما على ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة،وخالهما ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وعمهما جعفر بن أبى طالب ، وعمتهما أم هانىء بنت أبى طالب (رضى الله تعالى عنهم أجمعين) . واستمع الى شهادة من أحد

معارضيه ، عبد الله بن عمرو بن العـاص ، الذى كان فى صف معـاوية فى واقعة صفين ، فقد روى عنه أنه كان فى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى حلقة فيها أبو سعيد الخدرى ، فمر الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما فسلم ، فرد القوم السلام ، وسكت عبد الله حتى فرغوا من رد التحية ، فرفع صوته قائلا ، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته • ثم أقبل عبد الله على القوم قائلا :

ـــ ألا أخبركم بأحب أهل الأرض الى أهل السماء • قالوا :

ـــ بلى •

ـــ قال :

ـــ هو هذا الماشى ، ماكلمنى كلمة منذ ليالى صفين ، ولأن يرضى عنى أحب الى من أن يكون لى حمر النعم •

فقال أبو سعيد الخدرى :

ـــ ألا تعتذر اليه ؟ قال :

ـــ بلى •

فتواعدا أن يغدوا اليه ، فاستأذن أبو سعيد فأذن له • فلما دخـل أبو سعيد قال :

ـــ يا ابن رسول الله ، انك لمـا مررت بنا أمس ••• وأخبره بمـا كان من قول عبد الله بن عمرو • فقال الامام الحسين رضى الله عنه :

ـــ أعلمت يا عبد الله أنى أحب أهل الأرض الى أهل السماء ؟ قال :

ـــ اى ورب الكعبة • قال :

ـــ فما حملك على أن قاتلتنى وأبى يوم صفين ؟ فوالله لأبى كان خيرا منى • قال :

ـــ أجل ، ولكن عمرا شكانى مرة الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فقال ، يا رسول الله ، ان عبد الله يقوم الليل ويصوم النهار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم أخبر أنك تصـوم النهار وتقوم الليل » ، قلت بلى يا رسول الله ، قال : « فلا تفعل صل ونم وأفطر ونم وقم » • (من رواية الصحيحين) • قال ، فلما كان يوم صفين ، أقسم على فخرجت ، أما والله ما اخترطت سيفا ولا طعنت برمح ولا رميت بسهم •

ويكفى من ملامح تلك الصور الباهرة المنيرة ، أن الامام الحسين كان نور الارض ، وعلم المهتدين ، ورجاء المؤمنين .

وقد جاهد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه جهاد الأبطال ، فى سبيل الله ، وفى سبيل الدعوة الى الله ، وفى سبيل اعلاء كلمة الله ، فاشترك هو وأخوه الامام الحسن رضى الله تعالى عنهما ، فى فتح شمال أفريقيا ، حيث كانا فى المدد الذى أرسله أمير المؤمنين عثمان بن عفان الى عبد الله بن أبى السرح ، كما شهدا فتح طبرستان وحروب الجمل وصفين والخوارج ، وشهد الامام الحسين غزوة القسطنطينية ، وفى هذه يروى البخارى فى صحيحه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أول جيش يغزو مدينة قيصر [(١)] مغفور له » . كما اشترك مع شقيقه السبط الامام الحسن فى الدفاع عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، حين حاصره الثوار فى داره ومنعوا عنه الماء ، فوقفا على بابه بالسلاح تنفيذا لأمر والدهما الامام على كرم الله وجهه ، الذى قال لهما :

— اذهبا بسيفكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحدا يصل اليه بمكروه .

وقد تحاشاهما الثوار ولم يتمكنوا من دخول الدار من بابها . بل تسوروا الدار من الخلف من بيت أحد الأنصار ، وقتلوه مظلوما وهو يتلو كتاب الله تعالى ، فسال الدم الزكى الطاهر على المصحف ، والفتنة صماء عمياء لا تسمع ولا تبصر .

وقد استشهد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه فى موقعة كربلاء . فى يوم الجمعة العاشر من المحرم سنة احدى وستين هجرية — يوم عاشوراء — (وسيجىء تفصيل ذلك فى مكانه المناسب عند الكلام فى السيرة الزينبية) ، وذلك فى معركة غير متكافئة العدد والعدة ، اذ لم يزد أهله وأصحابه وأعوانه عن اثنين وثلاثين فارسا وأربعين راجلا ، بينما زاد أعداؤه على الأربعة آلاف مقاتل بين فارس وراجل مدججين بالأسلحة والعتاد .

وكانت قتلته رضى الله تعالى عنه ، على يد اللعين سنان بن أنس النخعى ، وأجهز عليه خولى بن يزيد الأصبحى من حمير .

---

(١) القسطنطينية .

وقد قال النجاشي [1] يرثي الحسين بن علي حين بلغه ذلك :

يا جمند بكيه ولا تسأمي بكاء حق ليس بالباطل
على ابن بنت الطاهر المصطفى وابن ابن عم المصطفى الفاضل
لن تغلقي بابا على مثله في الناس من حاف ولا ناعل

وكانت سنه يوم قتل ستا وخمسين سنة وشهورا . وكان رضى الله تعالى عنه رابط الجأش قوى العزيمة على الرغم من دقة موقفه ، بعد أن خذله أهل الكوفة الذين استقدموه ثم امتنعوا عن نصرته ، ويدل على رباطة جأشه أنه قام في أصحابه خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« قد نزل من الأمر ما ترون ، وأن الدنيا تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت ، حتى لم يبق منها الا كصبابة الاناء ، والا خسيس غشيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله عز وجل ، وانى لا أرى الموت الا سعادة ، والحياة مع الظالمين الا جرما » .

وقدر الله — وقدره سبحانه وتعالى لابد نافذ — أن يستشهد في كربلاء ، كل كبير وصغير من أبناء الامام على كرم الله وجهه ، ولم ينج من ذرية الحسين الا سيدى على زين العابدين ، الذى حال مرضه وقتئذ دون تعرضه للقتل . وفي ذلك يقول سراقة الباهلي :

عين جودى بعبرة وعويل واندبي ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب على قد أبيدوا وسبعة لعقيل

كما استشهد باقي أعوان الامام الحسين ، رضى الله تعالى عنهم جميعا .

هذا هو الشهيد الكريم الامام الحسين الذى يقول فيه كعب بن زهير !

مسح النبي جبينه فله بياض في الخدود

(1) وهو غير نجاشي الحبشة الأول الذى كان مسلما أو كان يخفي اسلامه وقت هجرة المسلمين الأوائل فرارا من كفار قريش ، ومات في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبوجهـــــه ديبـــــاجة كـــرم النبـــوة والجـدود

ويقول الشاعر فيه :

نفى عنــه عيب الآدمــيين ربــه ومن مجده مجد الحسين المطهــر

ويقول الحميرى فى السبطين الكريمين رضى الله تعالى عنهما :

أتى حســنا والحسين الرسول وقــد بــرزا حجــرة يلعبــان
فضــــمهما وتفداهمــــا وكــانا لــديه بـــذاك المـــكان
ومـــرا وتحتهمــا عاتقـــاه فنعـم المطيــة والراكبـــان

وللامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه ، أولاد من زوجاته ، هم من الذكور : على الأكبر،وعلى الأوسط زين العابدين،وعلى الأصغر، ومحمد ، وعبد الله ، وجعفر ، ومن الاناث : زينب ، وسكينة ، وفاطمة ، رضى الله تعالى عنهم جميعا .

ومن أروع الحكم التى جاءت على لسان مولانا الامام الحســين رضى الله تعالى عنه ، قوله :

— اعلموا أن حوائج الناس اليكم من نعم الله عز وجل عليكم ، فلا تملوا النعم فتعود نقما .

— من جاد ساد ، ومن بخل ذل ، ومن تعجل لأخيه خيرا وجده اذا قــدم عليــه غدا .

— الهى نعمتنى فلم تجدنى شاكرا ، وابتليتنى فلم تجدنى صابرا ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أدمت الشدة بترك الصــبر ، الهى ما يكون من الكريم الا الكرم .

ومما قاله الامام الحسين رضى الله تعالى عنه شعرا ، قوله :

اذا ما عضــــك الدهـــر فــلا تجنـــح الى الخـــلق
ولا تســـأل ســـوى الله تعـــالى قاســـم الـــرزق
فـــلو عشـــت وطـــوفت مــن الغـــــرب الى الشرق
لمـــا صـــادفت من يقـــدر أن يســـعد أو يشـــقى

ومن قصيدة طويلة هذا أولها ، يقول رضى الله تعالى عنه .

اذا استنصر المرء امرءا لا يدا له فنـــاصره والخـــاذلون ســـواء

أنا ابن الذى قد يعلمون مكانه   وليس على الحق المبين طخاء
أليس رسول الله جدى ووالدى   أنا البدر ان خلا النجوم خفاء
ألم ينزل القرآن خلف بيوتنا   صباحا ومن بعد الصباح مساء
ينازعنى والله بينى وبينه   يزيد وليس الأمر حيث يشاء
فيا نصحاء الله أنتم ولاته   وأنتم على أديانه أمناء
بأى كتاب أم بأية سنة   تناولها عن أهلها البعداء

الفصل الثالث

زواج العقيلة السيدة زينب

رضى الله تعالى عنها

جاء فى الفصل السابق ، أن السيدة زينب ابنة البتول الزهراء رضى الله تعالى عنهما ، ولدت فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، وأنها درجت فى بيت النبوة ، عاشت فيه خمس سنوات ، متمتعة بعطف جدها العظيم صلى الله عليه وسلم ، ورعاية أبويها الكريمين ، وأن جدها صلوات الله وسلامه عليه سماها زينب باسم خالتها السيدة زينت زوجة أبى العاص بن الربيع ، التى كانت محببة اليه .

وكانت عادة أهل البيت النبوى الكريم أن يكرروا أسماء أبناء وبنات جدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى أبناء وبنات البيت الواحد . ولذلك عرفت السيدة العقيلة[1] زينب ابنة الزهراء بزينب الكبرى ، وعرفت شقيقتها أم كلثوم بزينب الوسطى ، وهذه رضوان الله عليها ، هى التى تزوجها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى خلافته ، وأعقب منها ابنه زيدا ، وقد دفنت بعد انتقالها الى الدار الآخرة بقرية راوية قرب حجيرة من غوطة دمشق المعروفة بقرية الست ، ولها مشهد عظيم هناك ، كما عرفت أختها لأبيها رقية[2] بزينب الصغرى ، وقد دفنت رضوان الله عليها بعد انتقالها ، فى المدينة المنورة .

فقدت السيدة العقيلة زينب الكبرى ، جدها العظيم صلوات الله وسلامه عليه وهى بنت خمس ، ثم فقدت أمها البتول الزهراء رضى الله تعالى عنها ، بعد ذلك بشهور قليلة لا تتجاوز الستة ، فحزنت لفقدهما حزنا شديدا أليما ، ولكنه حزن المؤمنين الصابرين ، فعملت بوصية أمها السيدة فاطمة الزهراء وهى على فراش الموت ، وذلك بأن تصحب أخويها

---

(١) العقيلة : السيدة الكريمة على قومها العزيزة فى بيتها .

(٢) وهى شقيقة سيدى محمد بن الحنفية .

السبطين الكريمين الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما ، وأن ترعاهما، وأن تكون لهما من بعدها أما ، رغم أنها تصغرهما بقليل •

فكان لهذه المسئولية التى ألقيت على عاتقها فى تلك السن المبكرة ، أن أصبحت رضى الله تعالى عنها ، أنضج ادراكا وأرهف حسا ، فبدت فى بيت أبيها الامام على كرم الله تعالى وجهه ، ذات مكانة أكبر من سنها ، صقلتها الأحداث وهيأتها لأن تشغل مكان أمها الراحلة الكريمة ، فكانت للسبطين الكريمين وشقيقتيها أم كلثوم ورقية ، أما لا تنقصها عاطفة الأمومة بكل ما فيها من حنو وايثار ، وان كان ينقصها التجربة والاختبار•

وما أن أيفعت السيدة العقيلة الطاهرة وشبت وجاوزت حد الصغر ، حتى طلب زواجها الكثيرون من أعظم بيوتات المسلمين ، وكان من بينهم عبد الله بن جعفر ، رضى الله تعالى عنهما ، فقبل الامام على كرم الله تعالى وجهه ، أن يزوجها من عبد لله بن جعفر ، فهو ابن شقيقه جعفر بن أبى طالب ، أحد السابقين الى الاسلام ، والذى قال فيه أبو هريرة رضى الله تعالى عنه : « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطىء التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبى طالب » •

وكان جعفر يحب المساكين ويجلس اليهم ، ويخدمهم ويخدمونه ، ويحدثهم ويحدثونه ، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكنيه « أبا المساكين » ، ويقول له : « أشبهت خلقى وخلقى» (رواه البخارى)•

قبل الامام على أن يزوج ابنته العقيلة زينب من عبد الله ، لأنه تذكر فورا حين طلب يدها ، شقيقه جعفر ، وما له فى نفسه من حب واجلال وتقدير ، فقرت عينه وسر قلبه بهذه المصاهرة التى وجد فيها رضاء وغبطة ، خاصة أن عبد الله كان أول مولود ولد للمسلمين فى هجرة الحبشة ، ولم يكن عبد الله يكبرها بأكثر من خمس سنوات أو ست ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب عبد الله ويعطف عليه ، حبا وعطفا زادا بعد استشهاد أبيه جعفر بن أبى طالب فى موقعة مؤتة بأرض الشام، حينما جاهد الروم فى حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، مقبلا غير مدبر • وقد ظل جعفر يقاتل فى هذه الموقعة بهمة وشجاعة واقدام حتى استشهد رضى الله تعالى عنه ، فوجد فى ما بقى من جسده المثخن بالجراح ، المقطوع الذراعين ، بضعا وتسعين جرحا ، بين ضربة سيف ورمية رمح ، وكان ذلك فى جمادى الأولى من السنة الثامنة من الهجرة •

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « رأيت جعفرا يطير فى الجنة مع الملائكة ، لأنه قاتل حتى قطعت يداه ، فعوضه الله من يديه جناحين يطير بهما حيث شاء » (رواه الطبرانى) • وكان ابن عمر رضى الله عنهما اذا سلم على عبد الله بن جعفر يقول له : « السلام عليك يا ابن ذى الجناحين » (رواه البخارى) •

ولما أتى الخبر باستشهاد جعفر ، ظهر الحزن والأسى على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا له بقوله : « اللهم ان جعفرا قد قدم الى أحسن الثواب ، فاخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته » • وفى رواية أخرى : « اللهم اخلف جعفرا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه — قالها ثلاث مرات — وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة » • ثم قال لزوجته أسماء بنت عميس الخثعمية ، أخت ميمونة بنت الحارث زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أسماء ألا أبشرك ان الله قد جعل لجعفر جناحين يطير بهما فى الجنة » ، ولذلك عرف فيما بعد ذلك بجعفر الطيار •

وأسماء — زوجته — كانت من المهاجرات الى أرض الحبشة مع زوجها جعفر ، حيث ولدت له هناك أولاده ، وكانت كذلك أكرم النساء أصهارا ، فمن أصهارها ، النبى صلى الله عليه وسلم ، وحمزة ، والعباس ، رضى الله تعالى عنهما •

وقد قال لها عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه مرة ، نعم القوم لولا أن سبقناكم الى الهجرة ، فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فقال: « بل لكم هجرتان ، الى أرض الحبشة ، والى المدينة » •

والسيدة أسماء كانت هى التى حرست[1] السيدة البتول فاطمة الزهراء ليلة بنى بها على كرم الله وجهه ، فلما رآها النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك المهمة ، قال : « فانى أسأل الهى أن يحرسك من بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك من الشيطان الرجيم » •

ولما استشهد جعفر ، تزوجها أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه، فولدت له محمدا ، ثم تزوجها بعد ذلك الامام على كرم الله وجهه ، فولدت له عونا ، ويحيى •

---

(١) تكون قريبة منها تلبى طلبها ان عرضت لها حاجة أو أرادت شيئا .

وقد حدث أن تفاخر ابناها محمد بن جعفر ، ومحمد بن أبى بكر ، فقال كل منهما ، أنا أكرم منك ، وأبى خير من أبيك • فقال لها الامام على ، اقضى بينهما • فقالت : ما رأيت شابا خيرا من جعفر ولا كهلا خيرا من أبى بكر • فقال لها الامام على فما أبقيت لنا ؟ فقالت : ان ثلاثة أنت آخرهم لأخيار •

هذا هو جعفر بن أبى طالب ، وهذه هى أسماء بنت عميس ، وهما اللذان أنجبا عبد الله بن جعفر ، الذى ارتضاه الامام على كرم الله تعالى وجهه ليكون زوجا لابنته العقيلة السيدة زينب ، فأنعم بهما من والدين، أنجبا خير خلف ، تزوج خير زوجة •

وقد كان عبد الله بن جعفر كريما جوادا سخيا ، وكان يقال له قطب السخاء ، وبحر الجود ، اذ كان من أوائل الأجواد فى الاسلام • فقد كان بيته محط آمال المحتاجين ، وكان رضى الله عنه من أيسر بنى هاشم وأغناهم ، يمتلك فى المدينة قرى وضياعا ومتاجر ، عدا ما كان يصله من الخلفاء من الأموال • وقد عرف أنه لم يرد سائلا قصده ، فكان يبدؤه بالعطاء قبل أن يسأله ، حتى لقد قال فيه فقراء المدينة بعد موته ، ماكنا نعرف السؤال حتى مات عبد الله بن جعفر •

ومما يروى عن جوده وكرمه أن امرأة سألته شيئا فأعطاها مالا كثيرا فقيل له انها لا تعرفك وكان يرضيها اليسير من المال ، فقال ، ان كان يرضيها اليسير ، فانى لا أرضى الا بالكثير ، وان كانت لا تعرفنى فأنا أعرف نفسى •

ومن أقواله المأثورة عنه فى الجود والكرم قوله :

ـ ليس الجواد الذى يعطى بعد المسألة ، لأن الذى يبذله السائل من ماء وجهه وكلامه ، أفضل مما يبذل له من النائل ، وانما الجواد الذى يبتدىء بالمعروف •

ومما يذكر عن سخائه وعطائه ، أن نصيبا بن رباح مدحه ، فأمر له بمال كثير وكسوة شريفة ورواحل موقرة برا وتمرا • فقيل له :

ـ أتفعل هذا بمثل هذا العبد الأسود ؟ قال :

ـ أما لئن كان عبدا ، ان شعره فى الحر ، ولئن كان أسود ، ان ثناءه

لأبيض ، وانما أخذ مالا يفنى ، وثيابا تبلى ، ورواحل تنضى ، وأعطى مديحا يروى ، وثناء يبقى .

ولذلك كان الامام الحسين رضى الله تعالى عنه يقول ، علمنا ابن جعفر السخاء . ولم يأبه عبد الله يوما بما يجره عليـــه السرف فى السخاء حتى أصابه الجهد وكثر عليه الدين . فعاتبه البعض من الاصحاب على سخائه فرد عليهم قائلا :

ـــ يا هؤلاء ، انى عودت الله عادة وعودنى عادة ، وانى أخاف ان قطعتها قطعنى .

ولقد رأت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، صنع زوجها بالمـــال ، وخلقه فى الاسراف سخاء وكرما ، فلم تنهه ولم تحدثه فيما يصنع .

ولقد خرج عبد الله بن جعفر مرة الى ضيعة له ، فنزل على حائط[1] به نخيل لقوم ، وفيه غلام أسود يقوم عليه ، فأتى بقوته ثـــلاثة أقراص (أى أرغفة) . فدخل كلب فدنا من الغلام ، فرمى اليه بقرص فأكله ، ثم رمى اليه بالثانى والثالث على التوالى فأكلهما ، وعبد الله ينظر اليه ، فقـــال :

ـــ يا غلام كم قوتك ؟ قال :

ـــ كما رأيت . قال :

ـــ فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال :

ـــ ان أرضنا ، ما هى بأرض كلاب ، وان هذا الكلب جاء من مسافة بعيدة جائعا ، فكرهت أن أرده . قال :

ـــ فما أنت صانع اليوم ؟ قال :

ـــ أطوى يومى هذا .

فقال عبد الله بن جعفر لنفسه ، أألام على السخاء وهذا الفتى أسخى منى ! ؟ ثم اشترى الحائط بما فيه من النخيل وغيره ، واشترى الغلام ثم أعتقه ، ووهبه الحائط وما فيه . فقال الغلام :

ـــ ان كان ذلك لى ، فهو فى سبيل الله تعالى .

---

(١) بســتان .

فاستعظم عبد الله ذلك منه وقال :

ــ يجود هذا وأبخل أنا ، لا كان ذلك أبداً .

وحدث أن أعرابيا عطبت راحلته ، فوقف على مروان بن الحكم ، أيام الموسم بالمدينة ، وكان أميرا عليها ، فسأله الاعرابى أن يحمله ، فقال :

ــ يا أعرابى ما عندنا ما نصلك به ، ولكن عليك بابن جعفر . فأتى الاعرابى بابه ، فاذا ثقله قد سار نحو مكة ، وراحلته ما زالت بالباب عليها متاع وسيف معلق . فخرج عبد الله ، فأنشأ الاعرابى يقول :

أبا جعفر من أهل بيت نبوة ... صلاتهم للمسلمين طهور
أبا جعفر ان الحجيج ترحلوا ... وليس لرحلى فاعلمن بعير
أبا جعفر ضن الأمير بماله ... وأنت على ما فى يديك أمير
أبا جعفر يا ابن الشهيد الذى له ... جناحان فى أعلى الجنان يطير
أبا جعفر ما مثلك اليوم ارتجى ... فلا تتركنى بالفلاة أدور

فقال :

ــ يا أعرابى ، سار الثقل فعليك الراحلة بما فيها ، واياك أن تخدع عن السيف فأنى أخذته بألف دينار .

فولى الاعرابى وهو يقول :

حبانى عبد الله ، نفسى فداؤه ... بأعيس موار سباط مشافره
وأبيض من ماء الحديد كأنه ... شهاب بدا والليل داج عساكره
فكل امرىء يرجو نوال ابن جعفر ... سيجرى له باليمن والبشر طائره
فيا خير خلق الله نفسا ووالدا ... وأكرمه للجار حين يجاوره
سأثنى بما أوليتنى يا ابن جعفر ... وما شاكر عرفا كمن هو كافره

لقد كان لعبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما ، من السؤدد والمجد والفصاحة والبلاغة ، ما لم يكن لكثيرين غيره ، ومما يروى فى هذا الصدد ، ما جاء فى كتاب المحاسن والمساوىء للبيهقى ، أنه حضر مجلس معاوية ، عبد الله بن عباس ، وابن العاص ، فأقبل عبد الله بن جعفر ، فلما نظر اليه ابن العاص ، قال :

ــ قد جاءكم رجل كثير الخلوات بالتمنى ، والطربات بالتغنى ، محب

للقيان[1] كثير مزاحه ، شديد طموحه ، صدوف عن السنان[2] ، ظاهر الطيش ، لين العيش ، أخاذ بالسلف ، منفاق بالسرف .

فقال ابن عباس :

ــ والله أنت وليس كما ذكرت ، ولكنه لله ذكور ، ولنعمائه شكور ، وعن الخنا زجور ، جواد كريم ، وسيد حليم ، ان ابتدأ أصاب ، وان سئل أجاب ، غير حصر ولا هياب ، ولا فحاش عياب ، حل من قريش في كريم النصاب كالهزبر الضرغام ، الجرىء المقدام ، ليس يدعى لدعى،ولا يدنو لدنى ، .... ، الى أن قال ، وليت شعرى بأى قدم تتعرض للرجال ، وبأى حسب تبارز عند النضال .... وظل ابن عباس يقول ويقول في ابن العاص ، الى أن قال عبد الله بن جعفر :

ــ أقسمت عليك لما أمسكت ، فانك عنى ناضلت ، ولى فاوضت .

وكفى بهذا بيانا لصفات عبد الله بن جعفر ، كما جاءت على لسان ابن عباس (رضى الله تعالى عنهم جميعا) .

ولما قبض رضى الله تعالى عنه سنة ثمانين هجرية ، شهد جنازته أهل المدينة كلهم ، ورثاه الكثيرون ، وحمل نعشه أبان بن عثمان وهو أمير المدينة لعبد الملك بن مروان . فلما وضعه بالبقيع سالت دموعه ، ثم قال:

ــ كنت والله خيرا لا شر فيك ، وكنت والله شريفا واصلا برا .

وقام عمرو بن عثمان ووقف على حافة القبر فقال :

ــ رحمك الله يا ابن جعفر ، ان كنت لرحمك لواصلا ، ولأهل الشر لمبغضا ، ولأهل الريبة لقاليا ، ولقد كنت فيما بينى وبينك كما قال الأعشى :

رعيت الذى قد كان بينى وبينهم
من الود حتى غيبتك المقابر

فرحمك الله يوم ولدت ، ويوم كنت رجلا ، ويوم مت ، ويوم تبعث حيا، والله لئن كانت هاشم أصيبت بك ، لقد عم قريشا كلها هلكك ، فما أظن أن يرى بعد مثلك .

---

(1) الاماء المغنيات .
(2) معرض عن الرماح ، أى لا يميل للحرب والقتال .

وقال هشام المخزومى ، أجمع أهل الحجاز وأهل البصرة وأهل الكوفة، على أنهم لم يسمعوا بيتين ، احسن من بيتين رأوهما على قبر عـبد الله ابن جعفر وهما :

مقـيم الى أن يبعث الله خلقـــه
لقـاؤك لا يرجـى وأنت قـريب
تزيـد بـلى فى كل يـوم وليــلة
وتنسى كمـــا تبـلى وأنت حبيب

هذا هو عبد الله بن جعفر ، الذى اختاره وارتضاه الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، زوجا لابنته العقيلة الطاهرة السيدة زينب ، صفوة من صفوة ، وكريمة من كرام •

وجاء فى كتاب الطاهرة السيدة زينب بنت على كرم الله وجهه ، لمؤلفه الأستاذ عبد الخبير الخولى ما نصه :

ـــ « ولما بنى بها فى المدينة المنورة ، كان يوما عظيما من أيام انتصار المسلمين على الكفار فى فتوح الاسلام العظيمة بالعراق والشام •

وكان ذلك فى أواخر عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ، الذى حضر ذلك الزواج الميمون • وكانت مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم تموج وتنتئذ بعشرات الألوف من الجنود البواسـل الذين خاضوا معارك تلك الفتـوح ، وكان فيهـا كذلك مئات من أبنـاء الروم والفرس الذين اتبعوا دين الاسلام الحنيف وانضووا تحت لوائه •

ولما علموا أن عقيلة بنى هاشم سيعقد قرانها فى هذا اليوم السعيد ، وأن الفتاة الفريدة فى كمال الخلق والخلق ، انما هى حفيدة النبى محمد ابن عبد الله ، المبعوث بالحق هدى للعالمين ، اشتركوا فيه جميعاوحضروا هـذا الزواج ، كما حضره أكابر الصحابة ، وفيهم عثمـان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وأبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى ، وغـيرهم من علية القوم من المهاجرين والانصـار ، والكل مبتهج بهذه المصاهرة الكريمة لأهـل بيت النبى محمد صلى الله عليـه وسلم •

وقد أقيم زفافها فى بيت أبيها الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، وفى هذه المناسبة السعيدة قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب :

ـ فى هذا اليوم سأحضر زواجا سعيدا وقرانا مباركا ، ونسبا موصولا ، ألا وهو مصاهرة آل بيت النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو والله نسب موصول •

وأقام والدها الامام على ، مأدبة عظيمة لاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين حضروا الزفاف • وقد قال الصحابى الجليل أبوهريرة لأنس بن مالك رضى الله تعالى عنهما :

ـ والله يا أنس ، لو كان رسول الله موجودا فى هذا الزواج لكان يوما من أيام النبوة التى تشتاق النفوس المؤمنة الصادقة الى مشاهدتها

وقد رد أنس بن مالك قائلا :

ـ أما علمت أن عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يكاد يكون موجودا بوجود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على رأس هذا الحفل الكريم ، وما رأيت حفلا أبهج من هذا الحفل ، الذى أسأل الله من فضله أن يوفق بين الزوجين الكريمين ، وهما بفضل الله من التوفيق والوئام بمكان » •

فكانت السيدة العقيلة زينب مع زوجها عبد الله بن جعفر رضى الله تعالى عنهما ، أكمل سيدة ضمتها أسعد دار وأهنأ بيت •

وقد أنجب هذا الزواج ذرية طيبة صالحة ، حيث ولدت له محمدا المكنى بجعفر الاكبر ، واخوته عونا الاكبر وعليا الاكبر ، وأم كلثوم ، وأم عبد الله ، وجميعهم مات دون عقب ، الا عليا الاكبر ، وأم كلثوم ، فكان منهما الذرية من أبنائهما وبناتهما والعدد الكبير من سلالتهما •

الفصل الرابع

عبادتها رضوان الله عليها وانقطاعها الى الله تعالى

العبادة لله تعالى وحده ، ولا تصح لغيره ، لأنه جل شأنه ، ولى كل نعمة ، وغاية كل رجاء ، ومنتهى كل أمل .

ومثلنا الأعلى فى العبادة وقدوتنا ، هو مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى كان ينصرف فى عبادته الى الله تعالى بكليته ، ومما يروى فى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم ، قام عشر سنين على أطراف أصابعه حتى تورمت قدماه وشحب لونه . فأنزل الله تعالى عليه قوله الكريم :

« طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى[1] » . ولما قيل له صلى الله عليه وسلم ، أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفلا أكون عبدا شكورا » . (رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء،وهو عند مسلم وكذلك فى الصحيحين)

فرسول الله صلى الله عليه وسلم هو المثل الذى يحتذى فى الخشوع والخضوع ومراقبة الله تعالى ، الخالق لكل شىء . ولهذا كان ديدن أهل البيت وقدوتهم ، أن يتأسوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يفعل فى عبادته . فكان والدها الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، يصلى فى اليوم والليلة ما وسعه من جهد وطاقة ، حتى لقد قيل أنه كان يصلى ألف ركعة فى اليوم والليلة ، وأنه لم يترك النافلة حتى فى أوقات الحرب والنضال .

أما أمها البتول السيدة فاطمة الزهراء ، بنت الرسول الأعظم ، وزوجة الامام على رضى الله تعالى عنه وعنها ، فانها كانت تصلى عامة الليل ، فاذا وضح نور الصباح ، أخذت فى الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

---

(١) الآية رقم ١ ، ٢ من سورة طه .

فلا عجب — اذن — أن تكون السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، وقد نشأت ودرجت فى بيت النبوة ، بيت الهدى والنور ، بيت العفاف والتقى ، ورأت بعينيها ما رأت ، وسمعت بأذنيها ما سمعت ، ألا تكون فى عبادتها كأمها البتول الزهراء ، وكأبيها الامام على رضى الله تعالى عنهما •

لذلك بلغت تربيتها من السمو بمكان ، بل انها كانت فى الذروة العليا من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم • فشبت رضوان الله تعالى عليها على هذا الأدب العالى ، وتسربلت بسربال الخلق الفاضل الكريم ،وأخذت من مدرسة أمها الزهراء نبالة الخلق ونهاية الورع والتقوى •

شبت فى هذه البيئة الطاهرة ، ونبتت فى هذا البيت الكريم،بيت النبوة، ومنزل الرسالة الرحيمة ، فكانت وهى بنت السنين الخمس ، تسابق أمها الزهراء فى اسباغ الوضوء اسباغا كاملا ، وتتجه الى محرابها وتصلى مع أمها • وكانت السيدة الزهراء رضى الله تعالى عنها ، تلتفت الى ابنتها الطاهرة وتضمها الى صدرها ضمة حنان ، حنان الأم الرءوم لكريمتها العزيزة ، وتقبلها فى وجنتيها وتقول لها :

— جعل الله فيك الخير وفى أبنائك البررة الأتقياء ، وكأنى يا بنيتى العزيزة أنظر اليك وأنت تدافعين عن الحق المهضوم بمنطق فصيح ولسان عربى مبين •

تقوم تجافى النوم وهى صغيرة الى ربها فى ليلها تتقرب
فتحنو عليها أمها وتضمها اليها سرورا والملائك ترقب

لقد درجت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها فى بيت الرسالة ، ورضعت لبان الصفاء من ثدى الزهراء البتول ، وغذيت بغذاء الكرامة من كف أبيها ابن عم الرسول الكريم ، فنشأت نشأة قدسية ، وتربت تربية روحانية ، وتجلببت جلابيب الجلال والعظمة ، وارتدت رداء العفاف والحشمة ، فأصحاب الكساء الخمس ، هم الذين قاموا بتربيتها وتثقيفها وتهذيبها ، وكفى بهم مؤدبين ومعلمين •

فكانت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها — لذلك — مثلا حيا من مثل أهلها ، فكانت صوامة قوامة ، قانتة لله تعالى تائبة اليه ، تقضى أكثر لياليها متهجدة تالية للقرآن الكريم ، ولم تترك كل ذلك حتى فى أشد

الليالى عليها كربا وهى ليالى كربلاء ــ التى سيرد ذكرها فيما بعــد ــ فكانت مع أخيها الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه ، وأهل بيته ، يقطعون اليل فى تــلاوة القرآن والعبادة ، لا تغفل لهم عــين ولا يهجعون •

وظلت السيدة العقيلة الطاهرة كذلك طول دهرها حتى فى ليلة العاشر والحادى عشر من المحرم سنة احدى وستين ، أى يوم استشهاد أخيها الامام الحسين واليوم الذى يليه ، وكذلك وهى فى طريقها الى الكوفة ثم الى الشام ، فما تركت نوافلها الليلية رغم المصائب والمحن التى نزلت بها • ويروى أن الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، لما ودعها الوداع الأخير قبل المعركة التى استشهد فيها ، قال لها : « يا أختاه لا تنسينى فى نافلة اليل » •

وكثيرا ما كانت تدعو بدعاء آل البيت ، الذى توارثوه عن جـــدهم المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم ، فتقول :

« يا من لبس العــز وتردى به ، سبحان من تعطف بالمجد وتــكرم ، سبحان من لا ينبغى التسبيح الا له جل جلاله ، سبحان من أحصى كل شىء عددا بعــلمه وخلقه وقدرته ، سبحان ذى العــزة والمن والنعم ، سبحان ذى القدرة والكرم ، اللهم انى أسألك بمعاقد[1] العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابــك ، وباسمك الاعظم وجــدك الأعلى وكلماتك التامات التى تمت صدقا وعدلا ، أن تصلى على محمد وعلى آل محمــد الطيبين الطاهرين ، وأن تجمع لى خيرى الدنيا والآخرة بعد عمر طويل ، اللهم أنت الحى القيوم ، أنت هديتنى ، وأنت تطعمنى وتسقينى ، وأنت تميتنى وتحيينى ، برحمتك يا أرحم الراحمين » •

ومما تلقنته عن أبيها أمير المؤمنين الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، الدعاء الذى تعلمه من مولانا رسول الله صلى الله عليــه وسلم ، ومن قرأه كفاه الله هموم دنياه ، وكان له نورا فى أخراه ، وفيه يقــول :

« يا عماد من لا عماد له ، ويا ذخر من لا ذخر له ، ويا سند من لاسند له ، ويا حرز الضعفاء ، ويا كنز الفقراء ، ويا سميع الدعاء ، ويا مجيب

---

(1) مجالس •

المضطرين ، ويا كاشف السوء ، ويا عظيم الرجاء ، ويا منجى الغرقى ، ويا منقذ الهلكى ، يا محسن ، يا مجمل ، يا منعم ، يا متفضل ، أنت الذى سجد له سواد الليل ، وضوء النهار ، وشعاع الشمس ، وحفيف الشجر ، ودوى الماء ، يا الله الذى لم يكن قبله قبل ، ولا بعده بعد ، ولا نهاية له ولا حد ، ولا كفؤ ولا ند ، وبحرمة اسمك الذى فى الآدميين معناه ، المرتدى بالكبرياء والنور والعظمة ، محقق الحقائق ، ومبطل الشرك والبوائق ، وبالاسم الذى تدوم به الحياة الدائمة الأزلية التى لا موت معها ولا فناء ، وبالروح المقدسة ، وبالسمع الحاضر ، والبصر النافذ ، وتاج الوقار ، وخاتم النبوة ، وتوثيق العهد ، ودار الحيوان[1] ، وقصور الجمال ، يا الله لا شريك له » .

ويا السيدة العقيلة زينب من خاشعة لله تعالى متبتلة ، ممعنة الفكر فى خفى لطفه سبحانه ، داعية الناس الى الثقة به والتشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم . فما من عبد ضاقت به السبل ، فلجأ الى المولى القدير الواحد القهار ، وتشفع بالنبى الكريم المختار ، الا فرج الله كربته ، وبسر عسرته ، وأجاب دعوته . وكثيرا ما كانت السيدة العقيلة تردد هذه الاستغاثات وهى قائمة ليلها تتهجد وتتعبد ، فتقول :

وكم لله من لطف خفى ... يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم يسر أتى من بعد عسر ... وفرج كربة القلب الشجى
وكم أمر تساء به صباحا ... فتأتيك المسرة بالعشى
اذا ضاقت بك الأحوال يوما ... فثق بالواحد الفرد العلى
تشفع بالنبى فكل عبد ... يغاث اذا تشفع بالنبى
ولا تجزع اذا ما ناب خطب ... فكم لله من لطف خفى

وكان لعبادتها رضى الله تعالى عنها ، وخشوعها لله تعالى ، وسمو روحها ، وكثرة اطلاعها ، أكبر الأثر فيمن حولها ، كما كان له كذلك تأثير فى كلامها ، فنظمت الشعر الرفيع ،ومنه :

سهرت أعين ونامت عيون ... لأمور تكون أو لا تكون
ان ربا كفاك ما كان بالأمس ... سيكفيك فى غد ما يكون
فادرأ الهم ما استطعت عن النفس ... فحملانك الهموم جنون

---

(١) الاخرة : « وان الدار الآخرة لهى الحيوان ... » (من الاية ٦٤ من سورة العنكبوت) .

ولقد تعلمت كذلك من أبيها الامام على كرم الله تعالى وجهه ، دعاء هو أمن من الهموم والكروب ، وفيه يقول :

« اللهم انى أسألك يا عالم الأمور الخفية ، ويا من الارض بعـزته مدحية ، ويا من الشمس والقمر بنور جلاله مشرقة مضيئة ، ويا مقبلا على كل نفس مؤمنة زكية ، يا مسكن رعب الخائفين وأهـل التقيـة ، يا من حوائج الخلق عنده مقضية،يامن ليس له بواب ينادى،ولاصاحب يغشى ، ولا وزير يؤتى ، ولا غير رب يدعى ، ولا يزداد على الالحـاح الا كرما وجودا ، صل على محمـد وآله ، وأعطنى سؤلى انك على كل شىء قدير » •

ومن بليغ كلامها ، قولها : « من أراد أن يكون الخلق شفعاءه الى الله فليحمده ، ألم تسمع قولهم سمع الله لمن حمده ، فخف الله لقدرته عليك ، واستح منه لقربه منك » •

ذكرنا من قبل أن السيدة العقيلة رضى الله تعالى عنها ، كانت تحاكى أمها الزهراء فى طريقتها فى الحياة ، وفى الخوف من الله سبحانه وتعالى ، فكانت تقوم الليل الا قليلا ، عملا بقوله تعالى حينما خاطب النبى صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها المزمل قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا[(١)] » ، فقالت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها، نحن نشترك مع جدنا عليه الصلاة والسلام فى قوله تعالى : « وطائفة من الذين معك[(٢)] » ، فنحن بفضل الله من هذه الطائفة ، بل نحن فى مقدمة الطائفة التى ذكرها الله تعالى فى كتابه العزيز •

وكان يجتمع فى بيت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله تعـالى عنه ، مجلس للمرأة المسلمة ترأسه السيدة أم كلثوم زوجة أمير المؤمنين وأخت السيدة العقيلة زينب ، رضى الله تعالى عنهن جميعا ، وكان يشترك فيه سيدات من فضليات كرائم المؤمنات القانتات ، منهن أسماء بنت عميس وزوجة عبد الرحمن بن عوف ، وزوجة عثمان بن عفان نائلة بنت القراقصة ، وأسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه وعنهن جميعـــا •

---

(١) الآيات من ١ الى ٤ من سورة المزمل .
(٢) من الآية ٢٠ من سورة المزمل .

وحدث مرة ، أنه لما اكتمل المجلس ، قامت فيهن السيدة زينب وألقت خطبة بليغة ألهبت بها المشاعر والالباب ، وغرست فيهن التضحية فى سبيل الله والتعرف الى أحكام الدين • وكان مدار الحديث واجب المرأة نحو ربها وزوجها ؛ وأنها يجب أن تشاطر الرجل فى التعرف الى أحكام الدين ومبادىء الشريعة السمحة الغراء • •

ثم قامت السيدة أم كلثوم رضى الله تعـالى عنها ، فكان من فحوى ما قالت ، سيداتى المؤمنات الصادقات ، الحمد لله الذى أكرمنا بظهور الاسلام على يد جدنا العظيم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أرسله ربه رحمة للعالمين ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منـيرا ؛ وجاءنا على فترة من الرسل عليهم السلام •

وهنا قاطعتها أختها السيدة زينب الطاهرة ، توحى اليهن بأن السعادة التى ينشدها المؤمنون والمؤمنات والمسلمون والمسلمات ، انما هى العمل بكل ما جاء به القرآن الكريم ، ودعا اليه النبى الرءوف الرحيم ، جـدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام • وبأن الحياة الدنيا طريق الى الآخرة، والعبد صائر فيها الى واحدة من اثنتين اما الى الجنة واما الى النار • فالسعيد من سلك طريق الحق الواضح وسبيل الرشاد المبين • والمؤمن والمؤمنة الصادقة هى التى تجتاز هـذه العقبة فى أمن وسلام ، وتفوز بالنجاح بعقيدة التوحيد الصحيحة من الايمان بالله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والايمان بالقضاء والقدر واليوم الآخر ، فتجتهد فى طاعة ربها من اقامة الشعائر الاسلامية من صلاة وصـيام وزكاة وحج لمن استطاع اليه سبيلا •

ثم تكلمت بعض الحاضرات ، فأعربن عن سعادتهن بحضور هـــذا المجلس من مجالس النبوة الطاهرة ليستمعن الى حقائق الاسلام من بنات رسول الله وآل بيته الكرام عليه وعليهن الصلاة والسلام •

واستأنفت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها كلامها ، فكان من فحوى كلامها قولها : ان جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم شرع لنا حقوقا لأزواجنا ، كما جعل على الرجال حقوقا مفروضة • فالقرآن الكريم يقول : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة[1] » • ويقول

---

(١) من الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « اذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها،قيل لهاادخلي الجنة من أى أبواب الجنة شئت » (رواه أحمد والطبرانى) • ولقد حضرت مجلسا من مجالس المرأة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، حينما كانت والدتى فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها فى حضرته الشريفة ، وقال لها الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « أى شىء أحسن للمرأة؟» فقالت يا رسول الله :

ــ « أحسن شىء للمرأة أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل أجنبى » • وفى هذا الوقت رأيت جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم يضم والدتى الزهراء الى صدره ويقبلها من وجنتيها ويقول :

ــ « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم[1] » (البزار والدارقطنى فى الافراد من حديث على) •

وهذا والله الذى لا اله غيره ، الجواب المقنع المفيد •

ولقد لقبت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، بالعقيلة ، وعقيلة بنى هاشم ، وعقيلة الطالبيين ، وبالموثقة ، وبالعارفة ، والعالمة غير المعلمة ، والفاضلة ، والكاملة ، وعابدة آل على ، والسيدة ، وهو اللقب الذى اذا أطلق لا ينصرف الا عليها ، وغير ذلك من الصفات الحميدة والنعوت الحسنة •

ولما كانت رضى الله تعالى عنها أكبر بنات أمها البتول الزهراء ، وأبيها الامام على رضى الله تعالى عنهما ، كان الرواة فى أيام الاضطهاد[2] ، اذا أرادوا الرواية عن على بن أبى طالب يقولون ، هذه الرواية عن أبى زينب ، قاصدين الامام عليا ، لأنها كانت الأكبر من ولده بعد الحسن والحسين •

وحدث أن ألمت وعكة بالسيدة العقيلة الطاهرة بعد وصولها الى مصر ــ كما سيجىء ذكره فيما بعد ــ وأدركت بنور ربها أنها فى مرضها الأخير

---

(١) الآية ٣٤ من سورة آل عمران

(٢) أيام حكم الأمويين •

فأراد أكابر مسلميها الذين أكرموا وفادتها أن يحضروا لها طبيبا لمداواتها فقالت على الفور ، وهى مبتهجة بلقاء ربها :

— يا قوم ، لسنا من هؤلاء الذين ينظرون الى الدنيا والى البقـــاء فيها ، لأننا آل بيت النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، أحب اللقاء الينا لقاء ربنا ، فضلا عن أن الطبيب لايقدم الأجل ولا يؤخره ، وأما دواؤه فمسكن للعلة فقط ، والأجل الذى كتبه قدر الله تعالى لابد من قضائه .

الفصل الخامس

علمها رضى الله تعالى عنها ومناقبها وشرفها وفضلها وفصاحتها وزهدها

ان العلم من أفضل الصفات والمزايا البشرية ، وبه أكمل الله تعالى أنبياءه المرسلين ، ورفع درجات عباده المخلصين .

ولذلك قرن أهل العلم بنفسه سبحانه وبملائكته ، فقال عز من قائل : « شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط[1] » وقال تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون [2] » .

وانما صار العلم بهذه المنزلة العظيمة ، لأنه يوصل صاحبه الى معرفة الحقائق ، ويكون سببا لتوفيقه فى نيل رضا الخالق . ولذلك لما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد ، قال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم. ان الله وملائكته وأهل السموات والارض ، حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ، ليصلون على معلم الناس الخير » (رواه الترمذى عن أبى أمامة) .

كما قال عليه الصلاة والسلام : « العلماء ورثة الانبياء » (رواه أبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان من حديث أبى الدرداء) .

وقال الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه : « ثلمة الدين موت العلماء » .

وكذلك الشرف فى اللغة ، هو العلو فى الدين والدنيا ، والشرف فى النسب ، الاتصال بعظيم من العظماء . وأظهر أفراد هذا الشرف فى

---

(١) من الآية ١٨ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ٩ من سورة الزمر .

النسب ، الذرية الطاهرة من آل الرسول الكريم صلى الله عليـــه وآله وســـــلم •

أما المجد لغة ، فيطلق على الشرف الواسع ، كما يطلق على الكرم والعز والجاه • والمجد المؤثل ، هو الشرف المؤصل ، يقال تأثل الشىء أى تأصل وتعظم • والتمجيد أن ينسب الانسان الى المجد ، كما ينسب الى الشرف فى الآباء أو الى عمله الشريف •

وفى تأييد شرف سيدتنا العقيلة الطاهرة ومجدها هى واخوتها الأكرمين يقول الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه :

— « كل بنى آدم ينتمون الى عصبة الا ولد فاطمة فأنا وليهم وأنا عصبتهم » (رواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن فاطمة عليها السلام)• ويقول أيضا :

— « ان الله عز وجل جعل ذرية كل نبى فى صلبه ، وأن الله تعـــالى جعل ذريتى فى صلب على بن أبى طالب » • وذلك رغم أنه صلى الله عليه وسلم جعل الحسن والحسين بمثابة ولديه حين قال : « كل ولد أب فان عصبتهم لأبيهم ما خلا ولد فاطمة فانى أنا أبوهما » (رواه أحمد) •

وهذا الشرف الذى نالته السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، شرف لا مزيد عليه ، لأنها تنتسب الى أكرم رسول والى أشرف ذريـــة والى أسعد قرابة وصهر ، فاذا ضممنا الى ذلك علمها وفضلها وتقواها وكمالها وزهدها وورعها وكثرة عبادتها ومعرفتها بالله تعالى ، كان شرفها شرفا خاصا بها وبأمثالها من أهل بيتها ، ومجدها مجدا مؤثلا لا يليق الا بها وبهم رضى الله تعالى عنهم جميعا •

ويروى يحيى المـــازنى ، قال :

— كنت فى جوار أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهـــه فى المدينة مدة مديدة وبالقرب من البيت الذى تسكنه ابنته زينب ، فلا والله ما رأيت لها شخصا ولا سمعت لها صوتا ، وكانت اذا أرادت الخروج لزيارة قبر جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخرج ليلا والحسن عن يمينها والحسين عن شمالها والامام على أمامها • فاذا قربت من القبر الشريف ، سبقها أبوها فأخمد ضوء القناديل •

فسأله الحسن مرة عن ذلك ، فقال أخشى أن ينظر أحد الى شخص أختك زينب •

وجاء فى بعض الاخبار ، أن الحسين رضى الله تعالى عنه ، كان اذا زارته أخته السيدة زينب يقوم لها اجلالا ويجلسها فى مكانه ، ولعمرى هذه منزلة عظيمة لها لدى أخيها الامام الحسين ، كما أنه كان يأتمنها على أسرار الامامة •

ولقد كانت السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، عاقلة لبيبة جزلة ، وكانت فى البلاغة والزهد والشجاعة شبيهة أبيها الامام على وأمها الزهراء رضى الله تعالى عنهما ، حملت تدبير أمور أهل البيت ، بل الهاشميين جميعا ، بعد استشهاد الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه • فكانت أكثر أهل البيت جرأة وبلاغة وفصاحة ، وطارت شهرتها فى الآفاق بما أظهرته يوم كربلاء وبعده من حجة وقوة ، حتى ضرب بها المثل •

ولذلك فهى من أجل أهل البيت حسبا وأعلاهم نسبا وأكثرهم شرفا وصيتا • وهى خيرة السيدات الفضليات ، ومن طاهرات النساءوجليلات العقائل ، فاقت الفوارس فى الشجاعة والاقدام ، واتخذت طول حياتها تقوى الله بضاعة ، وكان لسانها الرطب بذكر الله دائما على الطاغين عضبا[1] ، ولأهل الحق معينا ، وهى كريمة الدارين ، جمعت بين جمال الطلعة وجمال الطوية ، وكانت عند أهل العزم أم العزائم ، وعند أهل الجود والكرم أم هاشم ، وكثيرا ما كان يرجع اليها أبوها واخوتها فى الرأى ، فسميت صاحبة الشورى ، كما كانت دارها مأوى لكل ضعيف ومحتاج ، فلقبت بأم العواجز ، ولما جاءت مصر بعد محنة كربلاء القاسية كان الوالى ورجاله يعقدون جلساتهم بدارها وتحت رئاستها ، فعرفت برئيسة الديوان •

تغذت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها بلبان أمها الصديقة الطاهرة، وتربت فى المدينة المنورة وهى يومئذ مدينة العلم النبوى ، واعتكفت بعده ببابها العلوى ، وطوت حينا من الدهر مع الامامين السبطين تنهل من علمهما نهلا ، وتعب منه عبا • ولذلك وصفها ابن أخيها على بن الحسين رضى الله تعالى عنهم جميعا بقوله :

---

(١) كالسيف القاطع •

ـ « أنت بحمد الله عالمة غير معلمة ، وفهمة غير مفهمة » ، يقصد بذلك أن علمها هو مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وأفيض عليها الهـاما .

ولاشـك أن حصولها على تلك القوة والالهامات الربانية كان بسبب تهذيبات جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وأبيها وأمها وأخويهـا رضى الله تعالى عنهم جميعا ، ولمحض انتمائها اليهم واتحادها معهم فى النشأة . كما أنه مما لا شك فيه أيضا ، أن اخلاصها لله تعالى طـول حياتها ، ساعد على ما وصلت اليهمنتفجر ينابيع العلم والحـكمة على لسانها ، مصداق ذلك ما ورد فى الحديث الشريف :

ـ « من أخلص لله تعالى أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » .

ومما يذكر أنها وهى فى طفولتها كانت جالسة فى حجر أبيها رضى الله عنه وهو يلاطفها ، فقال لها قولى واحد ، فقالت واحد . فقال لها قولى اثنين فسكتت . فقال لها تكلمى ياقرة عينى ، فقالت رضى الله تعـالى عنها ، يا أبتاه ، ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد . فضمها أبوها كرم الله وجهه وقبلها بين عينيها .

كما يذكر أنها سألت والدها الامام عليا فقالت :

ـ أتحبنا يا أبتاه ؟ فقال :

ـ وكيف لا أحبكم وأنتم ثمرة فؤادى . فقالت :

ـ يا أبتاه ، ان الحب لله تعالى والشفقة لنا .

والمتأمل فى هذا الكلام ، يرى فيه علما جما يبين مقدار منزلتها فى العلم والمعرفة ، كما يدل أيضا على أنها كانت محدثة ملهمة ، وأن علمهـا من العلوم اللدنية والالهامات الربانية .

وقد روت كثيرا عن أمها وأبيها وأخويهـا وعن أم سلمة وأم هانىء وغيرهما من النساء ، وروى عنها ابن عباس وعلى بن الحسين وعبد الله ابن جعفر وفاطمة بنت الحسين رضى الله تعالى عنهم جميعا .

ومما يروى للدلالة على كثرة علمها وتبحرها فيه ، أن أخويها الحسن والحسين كانا يتذاكران مرة ، ما سمعاه من جدهما المصطفى عليه أفضل

الصلوات وأتم التسليم ، من دعوة الى عبـادة الخالق الاله الاعظم ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، فدخلت عليهما شقيقتهما زينب رضوان الله عليهم أجمعين ، مستأذنه وملقية عليهما السلام وجلست معهما وقالت :

ــ سمعتكما تقولان أن جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وأن لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله ، واذا فسـدت فسد الجسـد كله ، ألا وهى القلب » (رواه البخارى) •

« اسمعا يا حسن ويا حسين ، ان جدكما رسول الله صلى الله عليـه وسلم مؤدب بأدب الاله ، أدبه فأحسن تأديبه ، يقول فى ذلك عليـه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، كما هيىء كذلك من رب العالمين لحمل رسالة الدين والدعوة الى عبادة الله العظيم ، الواحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، الذى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير•

« ومن كجدى النبى العربى الهاشـمى القرشى ، الذى اصطفاه الله تعالى واختاره ليبين للناس طريق الحياة من خير وشر ، فى أسلوبه العذب الجميل وبعبارته الطلية الممتعـة ، والتى تفيض رقة وحنانا ، عطفـا واشـفاقا •

« ثم استرسلت فى الكلام موضحة ما فهمت من معنى الحديث الشريف معتذرة عن التقصير اذا قصرت ، وقالت : الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات ، فهناك ثلاث درجات فى الدين ، حلال وحرام ومشتبه •

« أما الحلال فهو ما أحله الله تعالى بأن جاء القرآن الكريم بحله ، وبينه الرسول فى بيانه الواضح كحل الشراء والبيع ، وأقامة الصلاة فى أوقاتها ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليـه سبيلا ، وترك الكذب والنفاق والخيانة ، وكالأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر •

« وأما الحرام فهو ما حرمه القرآن الـكريم ، وهو على النقيض من

الحلال . وأما المشتبه فهو الشيء الذي ليس بالحلال ولا بالحرام .

« والمؤمن الذي يريد لنفسه السعادة فى الدنيا والنعيم فى الآخرة ، ماعليه الا أن يؤدى ما أوجبه عليه رب العالمين ، ويسير فى طريق القرآن الحكيم ويقتدى بالنبى الكريم ويتأسى به ، ويبتعد عن طريق الشبهات ماستطاع فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأصبح دينه نقيا صافيا ، يعبد ربه عبادة خالصة . « ألا لله الدين الخالص » .

« وأما من سار فى طريق الشبهات ، فلا يأمن أن تزل قدمه فيقع فيما حرمه الله ، وأن لكل ملك يملك متاعا حمى بجوار ملكه . أما حمى ملك الملوك ، خالق السموات والأرض وما فيهن فانها محارمه ، ولقد قال صلى الله عليه وسلم : « اتق المحارم تكن أعبد الناس » (رواه الترمذى) .

« ثم ان الله تعالى أودع الانسان مضغة وجوهرة لطيفة ، اذا صلحت فان الجسد كله يكون صالحا نقيا من الأدران والعلل وعصيان الخالق الأعظم رب العالمين ، ذلك هو القلب . فان كان القلب سليما ، فان صاحبه يكون يقظا لأمور دينه ومبادىء شريعته ، يرى السعادة كلها فى الاستقامة على هدى القرآن والسنة ، ومن سلك هذا السبيل القويم ، واتبع تلك التعاليم السماوية ، فانه يكون يوم القيامة من الفائزين .

« ان حياتنا مرحلة من المراحل التى توصل الانسان اما الى الجنة واما الى النار ، وليس بعد الموت عتاب ، ولا بعد الدنيا دار الا الجنة أو النار .

وما أن انتهت السيدة العقيلة من كلامها ، حتى قال لها الامام الحسين

ــ أنعم بك يا طاهرة ، حقا انك من شجرة النبوة المباركة ومن معدن الرسالة الكريمة .

أما فصاحتها وبلاغتها رضى الله تعالى عنها ، وقدرتها على الابانة والتعبير ، والوصول والانتهاء ، الى حسن الكلام بسلاسة وسهولة مع تخير اللفظ ، واصابة معناه ، واستواء فى التقسيم وتعادل فى الاطراف ، وتشابه اعجازه بهواديه[1] ، وموافقة أواخره ببداءته ، بحيث يصبح المنظوم مثل المنثور فى سهولة مطلعه وجودة مقطعه ، وكمال صوغه

---

(١) صدره .

وتركيبه ، فيصير عذبا جزلا سهلا ، به رونق وحلاوة ، يقبله الفهم الثاقب ولا يرده ، ويستوعبه السمع الصائب ولا يمجه ، فهذا كله مما ورثته السيدة الطاهرة العقيلة رضى الله تعالى عنها ، عن أبيها الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه •

فقد كان رضى الله تعالى عنه ، معروفا بسيد الفصحاء وامام البلغاء ، حتى لقد قيل عنه ، كلامه فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق •

هذه البلاغة العلوية والفصاحة الهاشمية ، ورثتها السيدة الكريمة بشهادة العرب أنفسهم ، وهم أهل البلاغة والفصاحة • لذلك ، كانت عندما تتكلم أو تخطب ، تستطرد فى انسجام وسبك جميلين ، لا يعلق بكلامها ركاكة أو يظهر عليه ظل للابتذال • وكانت اذا انتبرت المنابر ، تهز القلوب وتأسر الاسماع ، وتؤثر فى النفوس ، وتأخذ بالافئدة ، حتى لقد تصاغر أمامها عبيد الله بن زياد ويزيد بن معاوية ، وخاف منها — على امارته ونفسه — والى المدينة عمرو بن سعيد الأشدق ، فاستنجد بيزيد بن معاوية فى مقر حكمه بدمشق ، ليضع حدا لما يجده من ضيق وحرج أمام بلاغة السيدة العقيلة وفصاحتها التى أثارت الثائرة على حكم يزيد وولاته •

وقد وصف الشاعر مهدى بن داود الحلى ، فصاحة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وبلاغتها فى قصيدة جاء فيها :

قد أسروا من خصها بآية التطهـ — ـير رب العرش فى كتابه
ان ألبست فى الاسر ثوب ذلة — تجملت للعز فى أثوابه
ما خطبت الا رأوا لسانها — أمضى من الصمصام فى خطابه
وجلببت فى أسرها آسرها — عارا رأى الصغار فى جلبابه
والفصحاء شاهدوا كلامها — مقال خير الرسل فى صوابه

وسنورد — فى موضعه المناسب — بعضا من كلامها وخطبها فى مجلس عبيد الله بن زياد والى الكوفة ، ويزيد بن معاوية فى مقر حكمه بدمشق ، وكذلك أمام جموع الشعب فى المدينة المنورة حين وصلتها عائدة من دمشق بعد تلك المعركة المشئومة — معركة كربلاء أو الطف — للتدليل على مقدار بلاغتها ، وذلك حين أفحمت ابن زياد ويزيد وأبهتتهما ببلاغتها الفائقة — مع علمها بأنها فى قبضتهما — وحين أظهرت ما هما عليه من سوء

السريرة وخبث السيرة ، فتمثل الحق بين عينيها ، وشملتها أريحية هاشمية فرمزت الحق بالحق ، وللفضيلة بالفضيلة ، فأخرست الالسن ، وكممت الأفواه ، وصمت الآذان ، حتى لقد بلغ من يزيد أن صبر على رميها ايـــاه بالكفر هو وأتباعه ، ولم يتمكن من أن ينبس ببنت شفة ليقطع كلامها • أو يمنعها من الاستمرار فيه •

وكذلك كانت السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، زاهدة فى الدنيـــا ونعيمها ، قانعة بما قسمه الله تعالى لها ، متمسكة بالحكمة القائلة :

« الزاهد من يحب ما يحبه خالقه ، ويبغض ما يبغضه خالقه ، ويتحرج من حلال الدنيا ، ولا يلتفت الى حرامها » •

وكل ذلك رغم مركزها الكبير وغنى زوجها عبد الله بن جعفر ويساره •

والمعروف أن الزهد عامة ، يحصل بثلاثة أشياء :

ترك الزينة ، وترك الهوى ، وترك الدنيا •

فالزاى علامة الأول أى الزينة •

والهاء علامة الثانى أى الهوى •

والدال علامة الثالث أى الدنيا •

والزهد دائما يلازمه القناعة وهى الرضا بالقسمة ، وهو من أعـــلى مقامات السالكين ، ومن أظهر صـــفات الانبياء ، والمرسلين وعباد الله الصالحين ، وبه ينال الانسان الدرجات الرفيعة ، وبه يصل الى المراتب العالية • وقد ورد فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليـــه وسلم « من أراد أن يؤتيه الله علما بغير علم ، وهديا بغير هداية ، فليزهـــد فى الدنيا » • وعنه صلى الله عليه وسلم أيضا أنه قال : « من زهد فى الدنيا أدخل الله الحكمة فى قلبه فأنطق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجه منها سالما الى دار السلام » (وبعض هذا الحديث رواه ابن أبى الدنيا من حديث صفوان بن سليم) • وقال عليه الصلاة والســـلام كذلك : « ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما بأيدى الناس يحبـــك الناس » • كما قال كذلك : « اذا أراد الله بعبد خيرا زهده فى الدنيـــا ، ورغبه فى الآخرة ، وفقهه فى الدين ، وبصره عيوب نفسه ، ومن أوتيهن فقد أوتى خير الدنيا والآخرة » (أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس)

ولذلك فليس بدعا من السيدة زينب ولا غريبا عليها ، أن تـكون مثالا طيبا يحتذى فى الزهد والقناعة ، فقد تربت فى معقل الزهـد ، فهذا جدها العظيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، سيد الزاهدين وامامهم ، يأتيه جبريل الامين عليه السلام بمفاتيح كنوز الدنيا ويقول له خذها ولا ينقص من حظك عند رب العزة شىء ، فيردها اليه ويرفـع رأسه الى السماء قائلا : « لايارب ، ولكن أجوع يوما وأشبع يوما ، فأما اليوم الذى أجوع فيه فأتضرع اليك وأدعوك ، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك واثنى عليك » (الترمذى من حديث ابى أمامة وقال حسن).

وهذا هو أبوها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، كان وهو خليفة على المسلمين ، يرقع مدرعته عند الخياط حتى أحصى فيهـا سبعين رقعة ، فقال والله لقد رقعت مدرعتى هـذه حتى استحييت من راقعها ، كما أنه لم يكن لديه عندما بويع بالخلافة ، غير حصير صغير يجلس عليه ، مفضلا نعيم الآخرة على متاع الدنيا .

وهذه أمها الزهراء البتول رضى الله تعالى عنها ، كان فراشها حصيرا من سعف النخيل وجلد شاه ، وكانت تلبس الكساء من صوف الابـل ، وتطحن بيدها الشعير ، وتعجن وتخبز ، وتقوم بعمل البيت كله بيديها الطاهرتين حتى تأثرتا من ذلك .

ولهذا كله ، كانت السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، وهى من هى ، ووريثة كافة الصفات الكريمة التى تجمعت فى نسبها الشريف — المثل الأعلى فى القناعة والزهد والبعد عن متاع الدنيا ونعيمها ، فأعرضت عن زهرة الحياة من المال الوفـير لدى زوجها عبد الله بن جعفر ، كمـا أعرضت عن الـولد والحشم والخدم ، فخرجت مع أخيهـا الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه ، باذلة النفس والنفيس فى سبيل الحق ونصرة الدين ، ورغم علمهـا بما قد يجرى عليهم من المصـائب والاحداث ، مؤثرة الآخرة على الدنيا ، « والآخرة خير وأبقى » .

الفصل السادس

صبرها رضى الله عنها وشجاعتها وتحملها المشاق وتسليمها لأمر الله

الصبر من أفضل الخصال الانسانية وأشرفها ، ويتحقق بقوة الايمان والثبات على الحق •

والصبر الممدوح ، هو حبس النفس على تحمل المشاق تسليما لأمر الله تعالى ، وحبسها عن الشهوات نزولا على حكم الشريعة ، وحبسها على مشقة الطاعة تقربا وزلفى الى المبادىء العليا القويمة •

وقد مدح الله تعالى الصابرين ، فى كتابه الكريم ، فقال عز من قائل: « وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (١) » • كما قال جل شأنه : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار (٢) » • وقوله تعالت حكمته وكلماته :

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون (٣) » •

وجاء فى الحديث الشريف عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الايمان شطران ، شطر صبر وشطر شكر » وقال عليه الصلاة والسلام كذلك :

« جاءنى جبريل عليه السلام ، فقال يا رسول الله ، ان الله أرسلنى اليك بهدية لم يعطها أحدا من قبلك ، فقلت ما هى ؟ قال ، الصبر ، قلت فما تفسير الصبر ؟ قال ، يصبر فى الضراء كما يصبر فى السراء ، وفى

(١) من الآية ٣٤ ، والآية ٣٥ من سورة الحج •
(٢) الآية ٢٢ من سورة الرعد •
(٣) الآية ١٧٧ من سورة البقرة •

الفاقه كما يصبر فى الغنى ، وفى البلاء كما يصبر فى العافية ، فلا يشكو حاله عند المخلوق بما يصيبه » • وقال كذلك : « ما من مسلم يصاب بمصيبة وان قدم عهدها ، فأحدث لها استرجاعا [1] ، الا أحدث الله له مثل أجره يوم أصيب بها » •

ولما كان الصبر بهذه المثابة والمنزلة عند الله تعالى ، كان الأقربون الى الله تعالى أكثر صبرا من غيرهم ، كالأنبياء ، وأوصيائهم ، ثم الأمثل فالأمثل • وهذه السيدة العقيلة الطاهرة زينب رضى الله تعالى عنها ، قد حاق بها من المصائب والنوائب والأحداث ، ما لو نزل بالجبال الراسيات الشامخات لاندكت جوانبها ، وتصدعت أركانها من شدته وقسوته ، لكنها — فى كل ذلك — كانت تصبر الصبر الجميل ، لعلمها علم اليقين ، أن الصبر هو صميم الايمان •

وان ما تعرضت له السيدة زينب من أحداث الدهر لم يكن بالأمر الهين ، فقد فقدت جدها العظيم صلوات الله وسلامه عليه وهى بنت خمس ، وفقدت أمها الزهراء رضى الله تعالى عنها بعده بشهور قليلة لا تجاوز الستة ، بعد مرض شديد وضيق من العيش والاعتكاف فى حزن ، فألقى على عاتقها وهى صبية صغيرة عبء ادارة بيت أبيها ورعاية شئون اخوتها • وما ان تقدم بها الزمان نوعا ، حتى صدمت بمصرع أبيها الامام على بن أبى طالب ، وهو خليفة للمسلمين سنة أربعين من الهجرة ، اثر طعنة قاتلة من مارق خارج على الدين ، هو (اللعين) عبد الرحمن بن ملجم • ثم توالت عليها الأحداث بوفاة أخيها المجتبى الامام الحسن رضى الله تعالى عنه •

ثم رأت بعد ذلك شقيقها الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، حين نزل أرض كربلاء ، وهناك منيت باستشهاده فى العاشر من المحرم سنة احدى وستين من الهجرة الموافق العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠ ميلادية ، وقد استشهد معه بقية اخوتها وأولادهم وأولاد عمومتها وخاصة الأمة من أنصار الامام الحسين رضى الله تعالى عنهم جميعا •

رأت كل ذلك بعينيها ، رأتهم يستشهدون وهم عطشى محرومون من الماء ومن أن يردوا منابعه وهى على قرب منهم ، ثم ما تبع ذلك من المحن التى حاقت بها من هجوم الأعداء على رحلها ومتاعها ، وما

---

(١) أى يقول : انا لله وانا اليه راجعون .

فعلوه من سلب ونهب وسبى واهانة واعتداء على كرائم بيت النبوة وودائع الرسالة ، وسوق من بقى من أهل البيت وأتباعهم أسرى وسبايا من بلد الى بلد ، بغير وازع من ضمير أو اعتبار لنسبهم الشريف •

تحملت السيدة العقيلة الطاهرة رضى الله تعالى عنها ، كل ذلك صابرة محتسبة ومفوضة أمرها الى الله تعالى ، راضية بقضائه وتدبيره، قائمة بما ألقى على كاهلها من عبء مراعاة العيال ومراقبة الصغار واليتامى من أولاد اخوتها وأهل بيتها ، رابطة الجأش بايمانها الثابت وعقيدتها الراسخة ، حتى أنها قالت عندما وقفت على جسد أخيها الشهيد الامام الحسين رضى الله عنه وهو مقطع الأوصال : « اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان » •

حقا لقد حزنت السيدة العقيلة ، وبكت الحسين وأهله وأنصاره ، وما عليها فى ذلك من مأخذ ، فهى النفس البشرية ، والروح الانسانية التى تتأثر بما يحيط بها من أحداث جسام ، فكيف بها وقد رأت رضى الله تعالى عنها ، جل أهل بيتها صرعى يمثل بهم أعداء بيتها ، فهى ان بكتهم ، فذلك لطلب الثواب والرحمة التى أودعها الله للبكائين على الامام الحسين • وفى هذا يقول سيدى محمد الباقر رضى الله تعالى عنه : أيما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين دمعة حتى تسيل على خده ، بوأه الله بها فى الجنة غرفا يسكنها أحقابا •

وقد بكى الامام على زين العابدين أباه كثيرا حتى لامه على ذلك أحد مواليه ، فقال له : ان بكاء المقربين بعضهم بعضا ليس لأجل المحبة البشرية فحسب ، بل هو لأغراض أخر • فهو رضى الله عنه قد علم من أحوال أبيه الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، ما خفى على غيره ، وعلم أنه أحب الخلق الى الرسول الكريم ، وأن فقده سيكون سببا لضلالة الناس وضياع الوحدة الاسلامية ، وتفرق الأمة المحمدية شيعا وأحزابا ، فضلا عما يتبع ذلك من ظهور البدع وضعف العقيدة والدين •

ومما يذكر فى هذا الشأن ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بكى ابنه ابراهيم عليه السلام ، فقيل له أنت أحق من عظم الله أجره ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب ، لولا أنه وعد صادق ، وموعود جامع ، وأن الآخر تابع للأول ، لوجدنا[1] عليك يا ابراهيم ما وجدنا ، وانا بك لمحزونون » .

وقد تكرر ذلك منه صلوات الله وسلامه عليه ، عندما أتى له بابن احدى بناته يجود بنفسه ، وروحه تقلقل فى صدره ، فبكى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبادة بن الصامت :

— ما هذا يا رسول الله !! فقال عليه الصلاة والسلام :

— « هذه رحمة جعلها الله فى قلوب من شاء من عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء » .

ولهذا كانت السيدة العقيلة رضى الله تعالى عنها فى موقفها الذى رأته فى مسرح الأحداث ، بطلة بحق ، ولهذا لقبت ببطلة كربلاء . لقد كانت بطلة فاقت كثيرا من أبطال الرجال ، بما أظهرته من شجاعة نادرة اعترف بها طرفا القتال من الأنصار والأعداء على السواء . فلقد كانت السيدة الرائدة التى ظهرت فى اللحظات الحرجة من المعركة تأسو المكلوم ، وتواسى المحتضر ، وكانت تسهر على حراسة العتاد وتمرض المرضى وتسعف الجرحى وتضمد جراحهم ، وتسقى العطشى بالقليل من الماء الذى بقى معهم مؤثرة اياهم على نفسها وأهل بيتها ، وتستثير همم المجاهدين وتشجعهم ، غير مبالية بما يلحقها من آلام الجوع والعطش وتوقع السوء والايذاء من الأعداء .

وهاهى ذى رضى الله تعالى عنها ترى أمامها سيدى عليا زين العابدين ابن الحسين ، وقد وقعت أبصاره على أهله وأنصارهم قتلى شهداء وبينهم والده الحبيب ، فى صورة تنفطر لها القلوب وتقشعر منها الأبدان ، فيعظم ذلك عليه ويشتد اضطرابه وينفذ صبره ويزيد جزعه وقلقه ، فتضمه عمته العقيلة الى صدرها الحنون وتأخذ فى التخفيف عنه ، وتصبره قائلة له :

— مالى أراك تجود بنفسك يا بقية جدى وأبى واخوتى . فيقول لها :

— وكيف لا أجزع وأهلع وقد أرى سيدى واخوتى وعمومتى وولد

(١) اشتد حزننا .

عمى مصرعين بدمائهم مرملين [1] بالعراء لا يكفنون ولا يوارون ولا يعرج عليهم أحـــد ولا يقربنهم بشر ، كأنهم أهـــل بيت من الديلم . فقلت :

ـ لا يجزعنك ما ترى ، فوالله ان ذلك لعهد من رسول الله صـــلى الله عليه وسلم الى جدك وأبيك وعمك ، ولقد أخذ الله ميثـــاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض وهم معروفون فى أهـــل السموات ، انهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة والجسوم المضرجـــة فيوارونها ، وينصبون بهذا الطف [2] علما لقبر أبيك سيد الشـــهداء ، لا يمحى رسمه ، ولا يدرس أثره ، ولا يزداد الا علوا على مر الأيام وكر الليالى ،وليجهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة فى محوه وتطميسه، فلا يزداد أثره الا ظهورا وأمره الا علوا . فقال لهـــا :

ـ وما هذا العهد وما هذا الخبر ؟ فقالت رضى الله تعالى عنها ، (كما جاء فى كتاب زينب الكبرى بنت الامام على بن أبى طالب عليه السلام تأليف جعفر النقدى) :

ـ حدثتنى أم أيمن [3] ، أن رسول الله صـــلى الله عليه وسلم زار منزل فاطمة الزهراء (رضى الله تعالى عنها) فى يوم من الايام ، فعملت له حريرة ، وأتاه على (كرم الله وجهه) بطبق فيه تمر ، ثم قـــالت أم أيمن فأتيتهم بعس [4] فيه لبن وزبد ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسن والحسين (رضى الله تعالى عنهم جميعا) من تلك الحريرة وشرب وشربوا من ذلك اللبن ، ثم أكل عليه الصلاة والسلام كما أكلوا من ذلك التمر والزبد ، ثم غسل رســـول الله صلى الله عليه وسلم يديه وعلى (كرم الله وجهه) يصب عليهما الماء . فلما فرغ من غسل يديه مسح وجهه ثم نظر الى على وفاطمة والحسن والحسين (رضى الله تعالى عنهم جميعا) نظرا عرفنـــا به السرور فى وجهه ، ثم رمق بطرفه نحو السماء مليا ، ثم انه وجـــه

---

(١) تغطيهم الرمال .
(٢) اسم المكان الذى وقعت فيه معركة كربلاء ، والتى عرفت كذلك بموقعة الطف .
(٣) أم أيمن كانت مولاة النبى صلى الله عليه وسلم وحاضنته . وقد شهد لها أنها من أهل الجنة .
(٤) العس بضم العين ، القدح الكبير .

وجهه نحو القبلة وبسط يديه ودعا ثم خر ساجدا وهو ينشج[1] فأطال النشيج وعلا نحيبه وجرت دموعه ، ثم رفع رأسه وأطرق الى الأرض ودموعه تقطر كأنهــا صيب المطر . فحزنت فاطمة وعلى والحسن والحسين (رضى الله تعالى عنهم جميعا) وحزنت معهم لما رأينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهبناه أن نسأله ، حتى اذا طـال ذلك قال له على (كرم الله وجهه) وقالت له فاطمة (رضى الله تعالى عنها) ما يبكيك يا رسول الله ، لا أبكى الله عينيك ، فقد أقرح قلوبنا ما نرى من حالك . فقال عليه الصلاة والسلام ، يا أخى سررت بكم سرورا ما سررت مثله قط ، وانى لأنظر اليكم وأحمد الله علىّ نعمتــه على فيكم ، اذ هبط على جبريل عليه السلام ، فقال يا محمد ، ان الله تبارك وتعالى اطلع على ما فى نفسك وعرف سرورك بأخيك وابنتــك وسبطيك فأكمل لك النعمة ، وهنأك العطية بأنجعلهم وذرياتهم ومحبيهم معك فى الجنة لا يفرق بينك وبينهم ، يحبون كما تحب ويعطون كمــا تعطى حتى ترضى وفوق الرضى ، على بلوى كثيرة تنالهم فى الدنيــا ومكاره تصيبهم بأيدى أناس ينتحلون ملتك ، ويزعمون أنهم من أمتك، براء من الله ومنك ، خبطا خبطا[2] وقتلا قتلا ، شتى مصارعهم ، نائية قبورهم ، خيرة من الله لهم ولك فيهم ، فأحمد الله عز وجــل على خيرته ، وارض بقضائه بما اختاره لهم . ثم قال لى جبريل ، يا محمد، ان أخاك مضطهد بعدك مغلوب على أمتك ، متعوب من أعــدائك ، ثم مقتول بعدك ، يقتله أشر الخلق والخليقة وأشقى البرية ، يكون نظير عاقر الناقة ببلد تكون اليه هجرته وهو مغــرس[3] شيعته وشــيعة ولده ، وفيه على كل حال يكثر بلواهم ويعظم مصابهم ، وان سبطك هذا ــ وأومأ الى الحسين رضى الله عنه ــ مقتول فى عصابة من ذريتك وأهل بيتك وأخيار من أمتك بضفة الفرات ، بأرض يقال لها كربلا ، من أجلها يكثر الكرب والبلاء على أعدائك وأعداء ذريتك فى اليوم الذى لا ينقضى كربه ، ولا تفنى حسرته ، وهى أطيب بقاع الأرض وأعظمها حرمة ، يقتل فيها سبطك وأهله ، وانها من بطحاء الجنة . فاذا كان اليوم الذى يقتل فيه سبطك وأهله ، وأحاطت به كتائب أهل الــكفر واللعنة ، تزعزعت الأرض من أقطارها ، ومادت الجبال وكثر اضطرابها

(١) النشيج : الصوت مع توجع وبكاء . والنحيب البكاء بصوت طويل .
(٢) خبطا خبطا : يقال خبطه خبطا اى ضربه ضربا شديدا .
(٣) مغرس شيعته : اى منبتهم .

واصطفقت البحار بأمواجها ، وماجت السموات بأهلها ، غضبا لك يا محمد ولذريتك ، واستعظاما لما ينتهك من حرمتك ، ولشر ما تكافأ به فى ذريتك وعترتك ، ولا يبقى شيء من ذلك الا استأذن الله عز وجل فى نصرة أهلك المستضعفين المظلومين الذين هم حجة الله على خلقه بعدك ، فيوحي الله الى السموات والأرض والجبال والبحار ومن فيهن ، انى أنا الله الملك القادر الذى لا يفوته هارب ، ولا يعجزه ممتنع ، وأنا أقدر فيه على الانتصار والانتقام ، وعزتى وجلالى لأعذبن من وتر[1] رسولى وصفيي ، وانتهك حرمته ، وقتل عترته ، ونبذ عهده ، وظلم أهل بيته ،عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين . فعند ذلك يضج كل شيء فى السموات والأرضين يلعن من ظلم عترتك ، واستحل حرمتك . فاذا برزت تلك العصابة الى مضاجعها ، تولى الله عز وجل قبض أرواحها بيده ، وهبط الى الأرض ملائكة من السماء السابعة معهم آنية من الياقوت والزمرد ، مملوءة من ماء الحياة ، وحلل من حلل الجنة ، وطيب من طيب الجنة ، فغسلوا جثثهم بذلك الماء ، وألبسوها الحلل ، وحنطوها بذلك الطيب ، وصلت الملائكة صفا صفا عليهم ، ثم يبعث الله قوما من أمتك لا يعرفهم الكفار ، لم يشتركوا فى تلك الدماء بقول ولا فعل ولا نية ، فيوارون أجسامهم ، ويقيمون رسما لقبر سيد الشهداء بتلك البطحاء ، يكون علما لأهل الحق ، وسببا للمؤمنين الى الفوز ، وتحفه ملائكة من كل سماء ، مائة ألف ملك فى كل يوم وليلة ، ويصلون عليه ، ويطوفون حوله ، ويسبحون الله عنده ، ويستغفرون الله لمن زاره ، ويكتبون أسماء من يأتيه زائرا من أمتك، متقربا الى الله تعالى واليك بذلك ، وأسماء آبائهم وعشائرهم وبلدانهم ، ويوسمون فى وجوههم بميسم[2] نور عرش الله ، هذا زائر قبر خير الشهداء وابن خير الأنبياء ، فاذا كان يوم القيامة ، سطع فى وجوههم من أثر ذلك الميسم نور تغشى منه الأبصار ، يدل عليهم ويعرفون به . وكأنى بك يا محمد بينى وبينك ميكائيل وعلى أمامنا ومعنا من ملائكة الله ما لا يحصى عددهم ، ونحن نلتقط من ذلك الميسم فى وجهه من بين الخلائق حتى ينجيهم الله من هول ذلك اليوم وشدائده، وذلك حكم الله وعطاؤه لمن زار قبرك يا محمد أو قبر أخيك أو قبر

---

(۱) وتره اى جعل له وترا عنده فهو موتور ، والموتور هو الذى قتل له قتيل فلم يدرك دمه .

(۲) الميسم بالكسر ، التى يكون بها الوسم اى العلامة .

سبطك ، لا يريد به غير الله عز وجل • وسيجتهد أنـــاس ممن حقت عليهم اللعنة من الله والسخط ، أن يعفوا رسم ذلك القبر ويمحوا أثره، فلا يجعل الله تبارك وتعالى لهم الى ذلك سبيلا •

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا أبكانى وأحزننى ••

ـ قالت السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، فلما ضرب ابن ملجم ـ عليه لعنة الله ـ أبى عليه السلام ، ورأيت عليه أثر الموت منه ، قلت له :

ـ يا أبت ، حدثتنى أم أيمن بكذا وكذا ، وقد أحببت أن أسمعه منك • فقال :

يا بنية ، الحديث كما حدثتك أم أيمن[1] ، وكأنى بك وبنساء أهلك سبايا بهذا البلد ، أذلاء خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس فصبرا صبرا ، فوالذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما لله على ظهـــر الأرض يومئذ ولى غيركم وغير محبيكم وشيعتكم ، ولقد قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخبرنـــا هذا الخبر ، أن ابليس ـ عليه اللعنة ـ فى ذلك اليوم يطير فرحا ، فيجول الأرض كلهـــا بشياطينه وعفاريته ، فيقول يا معشر الشياطين قد أدركنا من ذرية آدم الطلبة ، وبلغنا فى هلاكهم الغاية ، وأورثناهم النار الا من اعتصم بهذه العصابة، فاجعلوا شغلكم بتشكيك الناس فيهـــم ، وحملهم على عـــداوتهم ، واغرائهم بهم وأوليائهم ، حتى تستحكموا ضلالة الخلق وكفـــرهم ، ولا ينجو منهم ناج ، ولقد صدق عليهم ابليس ـ وهو كذوب ـ أنه لا ينفع مع عداوتكم عمل صالح ولا يضر مع محبتـــكم وموالاتـــكم ذنب غير الكبائر •

كان هذا ما روته السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها لابن أخيها زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، عندمـــا رأت جزعه وقلقه لما حدث أمام ناظريه ، وهذا يدل دلالة واضـــحة على شجاعتها النادرة وصبرها وقوة تحملها ، وهى تشاهد فى ميدان المعركة ما سبق لها أن علمته من قبل ، فترى بعينيها مصرع أهلهـــا وأنصارهم الواحد تلو الآخر ، والتمثيل بهم ، ومن بينهم ولداهـــا ، الى أن استشهد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، بعد أن بقى

---

(1) اى صدقت ام ايمن فيما حدثتك به ، ثم شرح لها ما يجرى عليها .

وحيــدا فريدا ، قد أحاطه الأعداء من كل جانب ، ثم تراهم يحزون رأسه الشريف ، ويرفعونها على رأس الرمح يطوفون بها يمينا ويسارا، جيئة وذهابا ، يسرحون ويمرحون ، والسياط بأيديهم يضربون بهـا الأطفال والنساء ، مظهرين غاية الشماتة بالعقيلة الطاهرة زينب وبأهل البيت الكرام ، فضلا عما تبع ذلك من نهب وسلب واحراق للخيـام والمتاع • وسيرد ذكر ذلك مفصلا فيما بعد •

ولقد عبر سيدى الامام الشافعي رضى الله تعالى عنه ، عن شعوره لما حدث لأهل البيت الكرام ، فقال أبياتا من الشعر جاء فيها :

تزلــزلت الدنيـــا لآل محمـــد ... وكادت لهم صـــم الجبال تذوب
فمن مبلغ عني الحسين رسالة ... وان كرهتهـــا أنفس وقلـــوب
قتيل بـــلا جرم كأن قميصـــه ... صبيغ بماء الأرجـــوان خضيب
نصلى على المختار من آل هاشم ... ونغـــزو بنيـــــه ان ذا لعجيب
لئن كان ذنبى حب آل محمـــد ... فذلك ذنبى لست عنـــه أتـــوب

كما يصف سيدى الشريف الرضى رضى الله تعالى عنه ، ذلك المصاب الجلل فيقول :

كربـــلا لا زلت كربا وبــــلا ... ما لقى عندك أهـــل المصـــطفى
كم على تـــربك لمـــا صرعـــوا ... من دم ســـال ومن دمع جـــرى
يا رســـول الله لـــو أبصرتهم ... وهـــم بـــين قتيـــل وســـبا
من رميض يمنـــع الظـــل ومن ... عاطش يســـقى أنابيب القنـــا
جزروا جـــزر الأضاحى نسله ... ثم ســـاقوا أهله ســـوق الاما
هاتفـــات برســـــول الله فى ... شـــدة الخوف وعثرات الخطى
قتلـــوه بعـــد عـــلم منهمـــو ... أنه خامس أصحـــاب الكســـا
ليس هـــذا لرســـول الله يـــا ... أمـــة الطغيـــان والبغى جـــزا
يا جبال المجد عـــزا وعـــلا ... وبدور الأرض نـــورا وســـنا
جعـــل الله الـــذى نالـــكمو ... سبب الوجـــد طـــويلا والبـــكا
لا أرى حـــزنكمو يســـلى ولا ... رزؤكم ينسى وان طال المـــدى

أما سـيدى الامام البوصيرى رضى الله تعـالى عنه ، فيقول فى همزيته المشهورة وصفا لما أصاب أهل البيت النبوى الكريم :

وقست منهمو قلـوب على من ... بكت الأرض فقدهم والسـماء
فابكهم ما استطعت ان قليـلا ... فى عظيم من المصـاب البـكاء
كل يـوم وكل أرض لـكربى ... منهمـو كـربلا وعاشـوراء
آل بيت النبـى ان فـؤادى ... ليس يسليه عنـكم التأسـاء
غير أنى فوضت أمرى الى الله ... وتفـويضى الأمـور بـراء
سدتم الناس بالتقى وسـواكم ... سودته البيضـاء والصـفراء

ووصف الشيخ هادى كاشف الغطاء ، ما مر أمام ناظـرى العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، فقال :

لله صـبر زينب العقيـلة ... كم صـابرت مصائبـا مهـولة
رأت من الخطـوب والرزايـا ... أمـرا تهـون دونه المنايـا
رأت كرام قومهـا الأماجـد ... مجزرين فى صـعيد واحـد
تسـفى على جسومها الريـاح ... وهى لذؤبـان الفـلا تبـاح
رأت عزيز قومهـا صريعـا ... قد وزعـوه بالصـبا توزيعـا
رأت رءوسـا بالقنا تشـال ... وجثثـا أكفانهـا الرمـال
رأت رضـيعا بالسـهام يفطم ... وصبية بعـد أبيهـم أيتمـوا
رأت شماتة العـدو فيهـا ... وصنعه ما شـاء فى أخيهـا
رأت عنا ، أسرا ، هوانا ، ذلا ... ظلما ، جفا ، جورا،سبابا،ثكلا
وأن من ادهى الخطوب السود ... وقوفهـا بـين يـدى يزيـد

الفصل السابع

موقعة كربلاء وأسبابها وبطلتها

لاقى الامام على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه ، بعد انتقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى ، ما اعتبره — من وجهة نظره — اجحافا بحقه فى الخلافة على المسلمين ، فقد كان رضى الله تعالى عنه ، يرى أنه أحق من يليها بعد الرسول صلى الله عليه وسلم .

كان لانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الدار الآخرة وقع الصاعقة على الصحابة الكرام رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فقد فاجأهم النبأ الأليم ، فطار لبهم من هول الفجيعة ، ووقعوا فى حيرة وذهول شديد ، ما بين مكذب للنبأ ومصدق له ، اذ أنهم لم يسبق لهم التفكير فيه أو الاعداد له ولتقبل وقوعه ، حتى لقد وقف عمر بن الخطاب رافعا سيفه ، مهددا بالقتل كل من يقول بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

نقول ان الصحابة الكرام — وقد كانت هذه حالهم — كادوا يفتنون فى أمرهم ، لولا سيدنا الصديق رضى الله تعالى عنه ، الذى وقف فيهم قائلا :

— من كان يعبد محمدا ، فان محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، الله حى لا يموت ..... ثم قال (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا) (1) .

وهنا ثاب كل واحد الى رشده ، وانتبه من ذهوله ، وتقبل الصدمة العنيفة بصبر وثبات ، وعزموا على الاسراع فى تعيين خليفة رسول

(1) من الآية ١٤٤ من سورة آل عمران .

الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة وقد بادر الأنصار الى سقيفة بنى ساعدة مجتمعين فيها ليبايعوا بالخلافة رجلا منهم هو سعد بن عبادة الأنصارى وسيد الخزرج • فاذا بالمهاجرين يقبلون الى السقيفة ، ليعلنوا رفضهم أن يكون الخليفة واحدا من غيرهم ، ولأنهم يرون أن الخلافة من حقهم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قريش ولاة هذا الأمر » •

ولذلك قام أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه خطيبا فيهم وقال:

— ان أمر العرب لن يصلح الا اذا وليته قريش ، وأدلى بالحجة على ذلك ، وحذر الأنصار من الفرقة •ولذلك قال له سعد بن عبادة:

— صدقت ، نحن الوزراء وأنتم الأمراء • (وفى رواية أخرى : قالت الأنصار منا أمير ومنكم أمير) •

ولما اطمأن الناس الى سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه والى كلامه ، أشار عليهم بمبايعة عمر بن الخطاب أو أبى عبيدة الجراح • وهنا خشى عمر رضى الله تعالى عنه ، أن ينفض المجلس دون أن يتفق الناس على خليفة لهم فيعودوا الى ما كانوا عليه من خلاف ، وقال :

— يا معشر الأنصار ، ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس ، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالت الأنصار :

— نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر •

فتقدم عمر من أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنهما ، وقال له:

— ألم يأمر النبى بأن تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب رسول الله منا • ثم بايعه بالخلافة وبايعه الحاضرون •

ويعقب سيدنا عمر بن الخطاب على ما حدث فيقول :

— أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرا هو أوفق من مبايعة أبى بكر • خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فاما أن نتابعهم على ما لا نرضى ، واما أن نخالفهم فيكون الفساد •

وجلس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فى الغد على المنبر ، فبايعه الناس البيعة الكبرى .

وفى رواية للبيهقى ، أنه لما صعد الخليفة الأول المنبر ، نظر فى وجوه القوم فلم يجد الزبير ، قال فدعا بالزبير فجاء فقال ، قلت :

— ابن عمة رسول الله وحواريه ، أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ فقال :

— لا تثريب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام فبايعه .

ثم نظر الخليفة فى وجوه القوم فلم ير عليا ، فدعا بعلى بن أبى طالب فجاء ، فقال ، قلت :

— ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته ، أردت أن تشق عصا المسلمين ؟ قال :

— لا تثريب يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقام فبايعه .

ويقول الامام ابن كثير :

« وفى هذا الحديث فائدة جليلة وهى مبايعة على بن أبى طالب ، اما فى أول يوم أو فى اليوم الثانى من الوفاة . وهذا حق ، فان عليا ابن أبى طالب لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات ، ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه ، وخرج معه شاهرا سيفه يريد قتال أهل الردة » .

وسواء حدث هذا أو لم يحدث ، فان هناك من يقول ان ما تم من بيعة الامام أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، حدث بينما كان الامام على بن أبى طالب والزبير وأكثر بنى هاشم فى حجرة السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها وعنهم جميعا ، يودعون رسول الله صلى الله عليه وسلم الوداع الأخير ، وينصرفون الى تجهيز الجثمان الطاهر استعدادا لموارانه القبر الشريف .

فلما علم على كرم الله وجهه بالنبأ ، عظم عليه أن يتجاهل أبو بكر ومن بايعه ، مكانته وحقه وما له من السابقة فى الاسلام ، وأنه كان

أقرب الناس الى الرسول الكريم ، فهو ابن عمه وصهره ، وهو رفيقه وربيبه وكاتبه وخليفته على المدينة يوم ذهب لغزوة تبوك ، بل أن النبى صلى الله عليه وسلم ــ على ما رواه الكثيرون ــ لما جمع أعمامه وأسرته لينذرهم ، قال لهم :

ــ « أيكم يؤازرنى على هــذا الأمر على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيــكم » •

فأحجم الجميع الا عليا وكان أصغرهم ، اذ هب قائلا :

ــ أنا يا نبى الله أكون وزيرك عليه •

فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم برقبته ، ثم قال :

ــ « هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا » •

لم يكن الامام على كرم الله وجهه ، فى اقتناعه بأولوية بيت النبــوة فى الخلافة ، يرغب لأهل البيت منفعة خاصة أو مركزا مرموقا ، بل كان يرى ذلك واجبا عليهم نحو الدين الحنيف الذى أكرم الله تعالى بيتهم بنزوله على سيدهم وكبيرهم خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنــا محمد صلى الله عليه وسلم •

ومع ذلك فقد اشترط فيمن يولى الخلافة على المؤمنين من أهــل البيت أن يوجد فيهم من يصلح لذلك ويقدر على تحمل تبعات ذلك الأمر العظيم ، مع توافر التقوى والورع والعلم بأحكام الدين •

ويؤيد ذلك الحديث الذى دار بينه وبين أبى بكر الصديق وعمــر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنهم جميعا ، اذ يقول مدافعا عن حــق أهل البيت فى الخلافة :

ــ انكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم فى الناس ، وتنكرون عليهم حقهم ، أمــا والله لنحن أحق بالأمر مادام فينا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمــر الرعية ، القاسم بينهم بالسوية •

لذلك كان بدهيا أن يمتنــع الامام على ــ ان كان هذا قد حــدث فعلا ــ عن مبايعة أبى بكر الصديق ، وشاركه فى ذلك عدد من السابقين فى الاسلام كالعباس وطلحة والزبير ، وأيدهم فى ذلك السيدة البتول

الزهراء رضى الله تعالى عنهم وعنها . وظل الامـام على ـ رغـم محاولات الصحابة العديدة ـ ممتنعا عن مبايعة الصـديق ، الى أن انتقلت زوجته البتول السيدة فاطمة الزهـراء الى الرفيق الأعلى ، لاحقة بأبيها النبى العظيم صلى الله عليه وسـلم ، فبايع حرصا على وحدة الأمة المحمدية ، وقال عندئذ لأبى بكر قولته المعروفة :

يا أبا بكر ، انه لم يمنعنا من أن نبايعك انكاز لفضلك ، ولا نفاسـة عليك لخير ساقه الله اليك ، انما كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقـا أخذتموه .

وسواء حدث الأمر الأول ـ وهو الأرجح ـ أو حـدث الأمـر الثانى ، فان البيعة تمت للامـام أبى بكر الصديق الخليفـة الأول للمسلمين رضى الله تعالى عنه ، واجتمعت بذلك كلمة المسلمين .

ولذلك يستطرد ابن كثير فيقول :

« ولكن لما حصل من فاطمة رضى الله عنهـا عتب على الصـديق ، بسبب ما كانت متوهمة أنها تستحق ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم تعلم بما أخبرها به أبو بكر الصديق رضى الله عنـه أنه قال : « لا نورث ، ماتركناه فهو صدقة » ، فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح .... ثم قال : واحتاج على أن يراعى خاطرها بعض الشىء ، فلمـا ماتت بعد ستة أشـهر من وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم ، رأى على أن يجدد البيعـة لأبى بكر رضى الله عنه ، مع ما تقدم من البيعة قبل دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولعل الاختلاف الظـاهر بين الروايتين كان ـ كما يقول الـكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ـ من أثر موقف الدهاء الذى وقفه أبو سفيان فى أمر البيعة ، حين أراد أن يبث فتنة بين الامام على وعمه العباس ، وبين بنى هاشـم وسـائر بطون قـريش حين كان يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ، ويخرج فيها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية » .

ويقول الأستاذ العقاد فى ذلك :

« وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهــاد وعلمه المشهور به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين ، وأدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى ، فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبــايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو السعى فى تأليب الناس على نقض البيعــــة .

« وبعد مساجلات بينهم ، وبين أبى بكر وعمر ، سفرت الفتنــة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التى بيتها أبو سفيان بعــرض مبايعتــه على على ، ويتحفز للوقيعة ، فصده على ، وعرض له بذكر الغششــة والمخادعين » ثم قال له :

— انك تريد أمرا لســنا من أصحابه .

« فلما يئس من هذا الباب ، طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه » وذهب الى العباس يقول :

— انك والله لأحق بميراث ابن أخيك .

فرده العباس كما رده على .

ثم يستطرد العقاد فيقول :

« ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان يكن هناك جدال ، فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنــة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جــدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بــكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم ، وما قصروا بعد البيعة فى نصرة دينهم .

« وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ، ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم مما فتحوه » .

وأورد ابن كثير بسنده : « وقال على والزبير ما غضبنا الا لأنا أخرنا عن المشورة ، وانا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها ، انه لصاحب الغار ، وانا لنعرف شرفه وخيره ، ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلى بالناس وهو حى » .

***

ولما شعر أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه بدنو أجله ، أشفق أن يتعرض المسلمون بعد وفاته لمثل ما تعرضوا بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى،فتتفرق كلمتهم وتتمزق وحدتهم ويضطرب شأنهم،خاصة أن البلاد الاسلامية اتسعت رقعتها بالفتوحات العظيمة فى عهده .

ولذلك كان عليه أن يختار أحد رجلين ليلى الأمر من بعده ، هما عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، لعلمه أنهما خير من يصلح لذلك بين الصحابة ، الا أن الأول كان اذا أراد أمرا ويرى فى طريقه عقبة ، دار اليه ، والثانى كان يرى الاستقامة ولا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو بهذا أميل الى الشدة منه الى اللين ، فعهد بالخلافة من بعده الى عمر بن الخطاب لحيلته وسياسته ولينه ، وارتضى الناس استخلافه ، وكان عمر أول من لقب بأمير المؤمنين .

ولما طعن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وهو بالمسجد وأحس بدنو أجله ، رأى أن يجعل الخلافة شورى بين المسلمين .

ولما طلب منه أصحابه استخلاف أحد يرضاه للخلافة عليهم قال :

ـ عليكم بهؤلاء الرهط الذين مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، وقال فيهم انهم من أهل الجنة : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الله بن عمر [1] ، على أن لا يكون لعبد الله من الأمر شىء ، وأوصى فى حالة تساوى الأصوات بين رجلين منهم ، أن تكون الخلافة للفريق الذى يكون فيه عبد الله بن عمر .

ولما انتقل عمر بن الخطاب الى الدار الآخرة ، خلع عبد الرحمن ابن عوف نفسه من الخلافة ليتولاها الأفضل ، فانقسمت قريش الى

(١) عبد الله بن عمر : هو ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

فريقين ، فكان بنو هاشم يشيرون بعلى بن أبى طالب ، وبنو أمية يشيرون بعثمان بن عفان •

واجتمع القوم مرة أخرى ، فقال عبد الرحمن بن عوف للامام على :

ـ عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده •

فقال الامام على ، الذى لم يكن يخرجه شىء عن اجتهاده :

ـ أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى •

فدعا عبد الرحمن بن عوف ، عثمان بن عفان وأعاد عليه ما قاله للامام على فقال :

ـ نعـم •

فبايعه ، وأصبح بذلك عثمان بن عفان خليفة للمسلمين وأميرا للمؤمنين •

ويقول بعض الرواة ان عليا رضى الله عنه قال :

ـ لقد حبوته حبو[1] دهر ، وليس هذا أول ما تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان علي ما تصنعون ، والله ما وليت عثمان الا ليرد الأمر اليك ، والله كل يوم هو فى شأن •

وهكذا بدأ الصراع الخفى يتجلى شيئا فشيئا بين بنى هاشم وبنى أمية ، وهو صراع من قديم الأزل ، وجد قبل أن يخلق الله تعالى عليا أو عثمان أو معاوية •

واذا عدنا الى موقعة بدر ، نجد أن مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من بنى هاشم على رأس جيش المؤمنين ، بينما نجد على رأس جيش المشركين أبا سفيان سيد بنى أمية ، ووالد معاوية خصم على بن أبى طالب وولديه الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهم ، كما سيجىء ذكره •

كما لم ينس بنو أمية من قتلهم الامام على بن أبى طالب من أعلامهم فى حروب المسلمين والمشركين وخاصة يوم بدر ، أمثال عتبة بن ربيعة جد معاوية ، والوليد بن عتبة خاله ، وحنظلة أخاه ، عدا من قتلهم

(١) الحبو : الاعطاء بغير عوض .

فى الوقائع والغزوات الأخرى . فحفظ أقاربهم له هذا التراث بعــد دخولهم فى الاسلام ، وزادهم حقدا عليه أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار . وكانت حال الامام على ابن أبى طالب بعــد تلك المدة ، كما قال ابن أبى الحديد :

« كأنها حاله لو أفضت الخلافة اليه بعد وفاة ابن عمه ، من اظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب ، حتى الأخــلاف من قــريش والأحداث والفتيان الذين لم يشــهدوا وقائعه وفتكاته فى أســلافهم وآبائهم ، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله » .

وقد علم الامام على هــذا من قريش عندما يئس من مودتهــا ، وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها ، فقال :

— « مالى ولقريش !! أما والله لقد قتلتهم كافرين ولأقتلنهم مفتونين ، والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته ، فقل لقريش فلتضج ضجيجها » .

***

وما أن ولى عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه الخــلافة ، حتى بدأ مؤيدوه من الأمويين يستغلون الفرصة بكل ما فى طاقتهم وبأسرع مافى امكانهم ليسيطروا على البلاد طولا وعرضا لمصالحهم .

ولذلك قل بل ندر أن يعين وال على اقليم من أجزاء الدولة العربية من بين الهاشميين ، فى الوقت الذى احتكر فيه الأمويون السلطة فى البلاد ، واستغلوا ذلك فى تملك الضياع وبناء الشاهق من القصــور وتنمية الثروات . فاستنزفوا بذلك خيرات العراق ومصر والشــام ، واستأثروا بالفىء والغنائم ، وحرموا المعوزين والفقراء حقهم فيهــا ، ولم يكن ذلك معروفا من قبل ، بل كان جديدا بالنسبة لهم ، مما أثار ثائرة الصحابة الأجلاء والمفكرين من أهل الرأى فى الدولة ، ومن بين هؤلاء الصحابى الجليل أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه .

ولذلك جاءت الوفود تترى من الأقاليم والولايات تطالب الخليفــة الراشد عثمان بن عفان أن يضع حدا لذلك بتنحية هؤلاء الــولاة غير الصالحين ، خشية ثورة الاقاليم على حكم الخليفة .

ولقد ساعد اتزان الخليفة الراشد ورويته وعدم اتخاذه قرارا سريعا حاسما فىثورة النفوس عليه ، وزاد فى تأججها ولهيبها ، خبث عبد الله

ابن سبأ اليهودى الذى كان يتآمر هو وأصحابه لايغال النفوس وحشد القلوب بالكراهية والوقيعة بين الهاشميين والأمويين ، الأمر الذى أدى بعد ذلك الى قتله فى داره بعد حصار دام أربعين يوما .

ومن المعروف أن الثائرين على الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه والمعارضين لموقفه ، لم يتمكنوا من اغتياله غدرا وخيانة فى داره وهو يتلو كتاب الله تعالى ، الا بعد أن تسوروا جدران تلك الدار من الخلف وعن طريق بيوت بعض هؤلاء ، اذ كان يقف على باب الدار ، الامامان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما تنفيذا لأمر أبيهما الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ليدافعا عن أمير المؤمنين عثمان ابن عفان وليمنعا تمكين المتآمرين عليه منه .

ولقد كان من رأى الامام على بن أبى طالب ، أن يقاتل دفاعا عن الخليفة ، وأعد العدة لذلك وجاء ومعه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والانصار ، وحملوا على المتآمرين وفرقوهم ، ثم استأذن أمير المؤمنين فى حربهم وتخليص البلاد منهم ، لكن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه خشى أن تقوم بسببه حرب أهلية بين المسلمين ، وآثر أن يضحى بنفسه فداء لهم .

وكان فيما قاله الخليفة الراشد للامام على :

ـــ أنشد الله رجلا رأى لله حقا ، وأقر أن لى عليه حقا ، أن يهريق فى سبيلى ملء محجمة من دم ، ويهريق دمه فى .

فأعاد الامام على القول ، فأعاد الخليفة عليه ذلك الجواب ، ولذلك أمر الامام على ، أن يقوم ولداه الحسن والحسين بسيفيهما مع زمرة من أبناء الصحابة على باب عثمان ليذودوا عنه ويمنعوا الثوار من اقتحام الدار .

وكان مما فعله الامام على كذلك أن امتنع عن أن يصلى بالناس عندما حضرت الصلاة ، وقال للناس لا أصلى بكم والامام محصور ولكنى أصلى وحدى . فلما استشهد أمير المؤمنين عثمان ، حزن الامام على لقتله ، ولطم ابنه الحسن على وجهه ظنا منه أن الثوار دخلوا من باب الدار وهو واقف فى حراسته .

وهكذا اغتيل الخليفة عثمان بن عفان دون أن يرحم هؤلاء القوم

شيخوخته ، ودون أن يذكروا أياديه على الاسلام والمسلمين من جهاد بالنفس والمال ، وغزو فى البر والبحر ، وصيانة هيبة الدولة بعد مقتل أمير المؤمنين عمر ، وجمع الأمة الاسلامية على مصحف واحد بترتيبه الحالى وعلى القراءة الغالبة فى زمانه ، ويكفيه هذا العمل المجيد وحده ليكون شاهدا على اخلاصه وتفانيه فى خدمة الدين الحنيف والامة الاسلامية . اذ لولاه لاختلف المسلمون فيما بينهم ، فيقول هذا قرآننا ويقول أولئك قرآننـــا .

ولقد ذهب البعض فى الرأى ، الى أن الأمويين أنفسهم ، كان لهم يد فى المؤامرة ، وأنهم مهدوا لها وساعدوا على تنفيذها ، وعلى الأقل بعدم اسراعهم فى نجدة عثمان عندما حاق به الخطر ، وتقاعس معاوية عن ارسال طائفة من جنود الشام الى المدينة لحمايته رغم طلبه ذلك منه .

ولقد بقيت المدينة المنورة خمسة أيام بعد استشهاد الخليفة يحكمها الغافقى بن حرب زعيم الثوار ، وهم يلتمسون من يجيبهم الى القيام بالخلافة . وكان هوى أهل مصر مع الامام على ، وهوى أهل البصرة مع طلحة بن عبيد الله ، وهوى أهل الكوفة مع الزبير بن العوام .

ثم انتهى رأى الثائرين الناقمين الى مبايعة الامام على ، وأرادوا أن يبايعوه فى داره ، فأبى وطلب أن تكون البيعة علانية فى المسجد ،واشترط أن يبايعه المهاجرون والانصار وأهل بدر ، وقال :

ـــ لو تخلف عنى بدرى واحد لا أقبل الخلافة .

فبايعه الاحياء منهم . ولما كان يوم الجمعة وصعد المنبر ، بايعـــه من لم يكن قد بايع بالامس ، وكان أول من بايع طلحة ثم الزبير . الا أن بعض الأمويين امتنعوا عن البيعة ، واعتصم بعضهم بالشام والبعض بمكة ، وكان بعض هؤلاء من المعينين عمالا على الاقاليم .

وبعد أن تمت البيعة للامام على كرم الله وجهه على هذا الوجـــه . بدأ بعلاج سبب الشكوى ، وذلك بعزل الولاة المستغلين لمناصبهم لنفعهم الخاص ، وبمطالبتهم أن يردوا الى بيت المال ما سبق أن تملكوه أثنـــاء عملهم استغلالا لتلك المناصب .

وكان المعروف عن الامام على ، أنه لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وأنه يأتى الامور بأقصر طرقها ، غير مبال بما يترتب على ذلك من نتائج

ومع علمه أن الامر لم يكن قد استتب له تماما بعد أن تمت له البيعــه بالمدينة . ولذلك نصحه المغيرة بقوله :

— ان النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك بأن لا ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب اليهم بتثبيتهم على أعمالهم ، فاذا بايعوا لك واطمأن أمرك ، عزلت من أحببت ، وأقررت من احببت .

فما كان من الامام على كرم الله وجهه الا أن رد قائلا :

— والله لا أداهن فى دينى ، ولا أعطى الرياء فى أمرى .

فقال له المغيرة :

— ان كنت قد أبيت ، فانزع من شئت واترك معاوية فان له جراءة، وهو فى أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة فى اثباته ، فقد كان عمــر ولاه الشام كلها ، فرد عليه على قائلا :

— لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا .

ويروى أنه صاح فى المشــيرين عليه باستبقاء معاوية بعض الوقت واليا على الشام حتى تقر الامور وتهدأ الفتنة ، فقال :

— أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور ؟ لا والله ، لن يرانى الله متخذ المضلين عضــدا .

زاد موقف الامام على هذا ، من أجيج ثورة الامويين على الهاشميين وقد ذهب البعض الى أن المغيرة كان من أشياع الامويين الذين أرسلوه ليستطلع رأى الامام على فيهم وخاصة فى معاوية .

ولذلك بدأ معاوية يمهد نفسه لمركز أكبر وهو مركز الخلافة ، فأوقد نار فتنة يصلى المسلمون حر نارها منذ ذلك الوقت الى زماننا هــذا ، وسيظلون يصــلون نارها الى ما شــاء الله تعالى ، فقد تفرقت كلمــة المسلمين بعد أن كانت متحدة ، وأصبحوا فرقا وأشياعا .

فقد كتب معاوية وهو بالشام الى طلحة بن عبيــد الله الذى كان هوى أهل البصرة معه ليكون خليفة ، ولقبه بأمير المؤمنين ، وهذا نوع من الوقيعة والدس ، اذ لم يكن ذلك جائزا لأن بيعة المهاجرين والأنصار

وأهل بدر بالمدينة كانت ملزمة لسائر الأمصار • فكأن معاوية بذلك لم يلتزم بالبيعة لعلى ، وأراد أن لا يلتزم بها غيره • ثم تعلل بعد ذلك بقتل عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه ، ورمى الامام عليا بدمه زورا وبهتانا ، وهو من ذلك براء ، براءة الذئب من دم ابن يعقوب عليه السلام ، وبذلك حرض طلحة على مناوأة الامام على كرم الله وجهه ، مما زاد فى فرقة المسلمين •

ولذلك لما استأذن طلحة والزبير أمير المؤمنين عليا فى الخروج الى مكة بنية العمرة ، قال لهما فى فطنة وثقة :

ـ انكما لا تريدان العمرة ولكن تريدان الغدرة •

وكانا قد طلبا منه أن يوليهما ، الأول على البصرة والثانى على الكوفة •

ولما كان أمير المؤمنين على يتوقع وثبة من معاوية ، فقد نقل مركز الخلافة من المدينة المنورة الى الكوفة بالعراق وهو موطن المال والرجال، فضلا عن بعد العراق عن مقدسات مكة والمدينة ، حرصا منه على عدم انتهاك حرماتها فى عهد خلافته •

وخرج طلحة والزبير بجيش من أنصارهما الى البصرة ، واستطاعا أن يقنعا السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ليتم الصلح بين المؤمنين على يديها • وقد حاولت السيدة أم سلمة أن تثنيها عن عزمها الخروج فى ذلك الجيش فلم تفلح •

وفى الطريق الى البصرة ، تحققت معجزة نبوية ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد قال مرة لأزواجه عليهن السلام :

ـ أيتكن صاحبة الجمل الأحدب تنبحها كلاب الحوأب (١) • ثم نظر الى السيدة عائشة وقال لها ، أخشى أن تكونيها يا حميراء •

وفعلا نبحتها كلا بالحوأب ، كما تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم ، فهمت السيدة عائشة رضى الله عنها بالعودة ، لولا أن جماعة من البدو أتى بهم لها فشهدوا أمامها زورا وكذبا أن تلك الجهة ليست الحوأب•

سارت رضى الله تعالى عنها بعد ذلك وهى مكذوبة مخدوعة ، وشاء

---

(١) مكان بالطريق الى البصرة .

قدر الله تعالى أن يلتقى هذا الجيش مع جيش أمير المــؤمنين على فى معركة عرفت باسم معركة الجمل نسبة الى الجمل الذى كانت تركبه أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها •

لم ينفع نصح أمير المؤمنين على ــ كعادته دائمــا ــ فى اقنــاع خصومه قبل محاربتهم حقنا لدماء المسلمين ، ولذلك لما التقى الجيشان نادى أمير المؤمنين على ، ابن عمته الزبير ، فخرج من بين الصــفوف ليستمع كلامه ، فقال له :

ــ أتذكر يا زبير أنك يوما صافحتنى فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعانقتنى ، فقال لك أتحبه ؟ قلت كيف لا أحبه وهو أخى وابن خالى ، فقال لك : أما أنك ستقاتله وأنت ظالم له ؟ فقال الزبير :

ــ أستغفر الله ؛ لقد أذكرتنى ما أنسانيه الدهر ، لو ذكــرت ذلك ما خرجت ، والله لا أقاتلك أبدا •

وانسحب الزبير من المعركة ، فقال له ابنه عبد الله :

ــ يا أبت ، تعيرنا نساء قريش • فقال :

ــ يا بنى لقد أذكرنى ما أنسانيه الدهر ، العار ولا النار • ثم قــال :

اخترت عارا على نار مؤججــة ... ما ان يقوم لها خلق من الطين
نادى على بأمر لســت أجهله ... عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت حسبك من عدل أبا حسن ... فبعض هذا الذى قدقلتيكفينى

ثم مضى الزبير منسحبا من المعركة ، فقتله غدرا ابن جرمــوز وهو يصــلى :

وقد نادى أمير المؤمنين ، طلحة وقال له :

ــ يا أبا محمد ما الذى أخرجك ؟ قال :

ــ الطلب بدم عثمان • قال على :

ــ قتل الله أولانا بدم عثمان ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى حقى : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، وأنت أول من بايعنى ثم نكث ، وقد قال عز وجل :

« فمن نكث فانما ينكث على نفسه » [1] • فقال طلحة :

ــ أستغفر الله • ثم رجع •

فتضايق من ذلك مروان بن الحكم ،ولم يستنكف أن يقتل حليفه ، فرمى طلحة بسهم قاتل ، فلما مر عليه أمير المؤمنين ووجده قتيلا ، نفض التراب عن وجهه وقال :

ــ أعزز على بأن أراك مجدلا[2] أبا محمد . انا لله وانا اليه راجعون ، والله كنت كارها لذلك •

وشاء القدر أن يلتحم الجيشان ــ رغم ذلك ــ فى قتال مرير راح ضحيته نحو عشرين ألفا • فأمر أمير المؤمنين أصحابه فعقروا الجمل (جمل أم المؤمنين عائشة رضى الله تعالى عنها) ليضمن ايقاف القتال ، وردها الى المدينة معززة مكرمة • وقد قالت رضى الله تعالى عنهـا ، لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

ــ يا ابن أبى طالب ، ملكت فاسجح [3] ، فقال لها :

ــ غفر الله لك • فقالت :

ــ وغفر لك •

وكان هناك من أنصار الامام على (وهم من عرفوا فيما بعدبالخوارج) من يرى أسر السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها ؛ فجادلهم ابن عباس فى هذا الأمر وفى غيّره ، وقال لهم :

ــ انها أم المؤمنين بنص كتاب الله تعالى ؛ فمن ذا يأسر أمه ؛ فان أنكرتم أمومتها كفرتم •

ثم رد على ما أثاروه من أمور أخرى بقوة علمه وبيانه ؛ فلزم الطاعة من هؤلاء عشرون ألفا عادوا الى الصف ، وشق عصا الطاعة أربعـة آلاف ، قاتلهم الامام على على النهروان ؛ وقتلهم الا مئات منهم جرحوا وردوا الى عشائرهم وذويهم • وقد ندمت السيدة عائشة أشد النـدم لخروجها الى البصرة ، وقالت :

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح .
(٢) لقى على الأرض .
(٣) أى اصفح .

ـ لو لم أسر سيرى ذلك لكان أحب الى من أن يكون لى ستة عشر ذكرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام (فقيه المدينة المعروف) ، وقالت :

ـ ياليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين عاما .

وكانت رضى الله عنها ، كثيرا ما تبكى وتقول : (وقرن فى بيوتكن)[1]

انحصر النزاع بعد تلك الموقعة بين الأمويين وعلى رأسهم معاوية ابن أبى سفيان ، والهاشميين وعلى رأسهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب . فوقعت موقعة صفين التى كاد الامام على بجيوش العراق المؤيدة له ، أن ينتصر فيها على معاوية بجيوش الشام التى تؤيده : لولا أن رفع هؤلاء ، المصاحف على رماحهم وهم فى ميدان القتال . رمزا الى أنهم يريدون النزول عند حكم الله لا حكم السيف . وعندئذ، قال أهل العراق ، نجيب الى كتاب الله ، وامتنعوا عن مواصلة القتال، وهددوا الامام عليا بقتله ، كما قتل عثمان من قبل ، اذا لم يقبل التحكيم .

وكان ممن خرج مع الامام على ، الصحابى الجليل عمار بن ياسر الذى كان قد جاوز سن التسعين ، والذى قال فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « اهتدوا بهدى عمار » ، وقال عنه أيضا : « تقتل عمارا الفئة الباغية » .

ان عمارا لم يجد عملا يختتم به حياته المجيدة ، أفضل من أن يخرج مع الامام على يصول ويجول ويقاتل ويدافع عن قدسية القضية التى رفع لواءها الامام على فى هذه الكلمات المضيئة المشرقة الثائرة فيقول:

« أيها الناس ، سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان ، ووالله ما قصدهم الأخذ بثأره ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها ، وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرغون فيه من شهواتهم ودنياهم . وما كان لهؤلاء سابقة فى الاسلام يستحقون بها طاعة الاسلام أو الولاية عليهم .

« ألا انهم ليخادعون الناس بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان ، وما يريدون الا أن يكونوا جبابرة وملوكا . والذى نفسى بيده ، لقد

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .

قاتلت بهذه الراية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاأنذا أقاتل بها اليوم • فوالذى نفسى بيده ، لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر ، ما وهن يقينى بأننا على الحق وأنهم على الباطل » •

قبل الامام على كرم الله وجهه ، التحكيم على مضض ، فأناب أهل العراق عنهم أبا موسى الأشعرى ، على خوف من الامـام على منه لسـابق خذلانه اياه ، كما ناب عن معاوية ، عمرو بن العاص • ثم دار بين الحكمين نقاش طويل استطاع عمرو بن العاص خلاله أن ينتزع اقرارا بأن عثمان قتل مظلوما ، وبأن من حق معاوية المطالبة بدمـه• وقال أبو موسى الأشعرى :

ـــ قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية ، وأن أهـل الشـام لا يحبون عليا ، فهلم نخلعهما ونستخلف عبد الله بن عمر •

فلما اتفقا على ذلك ، خلع أبو موسى ، عليا من الخلافة ، وخـدعه عمرو بن العاص فلم يفعل شيئا ، اذ كيف يخلع من لم يعين خليفـة من قبـــل •

وقد أدت تلك الخدعة ، الى زيادة الفرقة والانشقاق بين المسـلمين الذين صاروا فرقا وأشياعا ثلاثة ، هم حزب على ومؤيدوه وقد عرفوا بالشيعة ، وحزب معاوية أو حزب الأمويين ، وحزب الخـوارج الذى انشق على مؤيدى على وصار يعارض كلا الطرفين ، وجعل شـعاره (لا حكم الا لله) ، وهو شعار رد عليه الامام على بقوله : « كلمـة حق يراد بها باطل » •

وقد اضطر الامام على الى محاربة هؤلاء الخـوارج ليتخلص منهم وليتفرغ لقتال معاوية ، حتى لا يكون هؤلاء الخوارج شوكة فى ظهره تطعنه من الخلف • فلما انتصر عليهم وأباد معظمهم فى موقعة النهروان، واراد أن يعود الى معاوية ، استمهله جنوده للراحة ، ولكنهم أخـذوا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى خلا منهم المعسكر •

وفى ذلك الوقت ، كان معاوية يوسع ملكه فيحتل مصر ويذهب الى القدس فيدعو لنفسه بالخـلافة ، الأمر الذى دعا الى عودة الشـيعة للالتفاف من جديد حول الامام على ، استعدادا لقتال معاوية • ولـكن

القدر لم يمهل الخليفة الراشد ليتم له ذلك ، اذ باغته خارجى لعين هو عبد الرحمن بن ملجم المرادى بضربة سيف مسموم فى ليلة التاسع عشر من رمضان سنة أربعين هجرية .

وكان هذا اللعين قد ترصد للامام على كرم الله وجهه منذ أول الليل ، فلما مر عليه الخليفة فى المسجد وهو مستخف بأمره متناوم بين النائمين به ، انتظره حتى دخل فى صلاته فى المحراب ، فقام اليه وضربه بالسيف المسموم على أم رأسه ضربة أدت الى موته فى ليلة الحادى والعشرين من رمضان ، بعد أن أوصى وصيته التى جاء ذكرها من قبل عند الكلام عنه رضوان الله تعالى عنه فى الباب الثانى .

وعلى اثر انتقاله كرم الله وجهه ، بايع أهل العراق الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، وهو أكبر أبناء على والزهراء ، الا أن خلافته لم تدم أكثر من ستة شهور ، وفى بعض الاقوال سبعة .

وقد رأى رضى الله تعالى عنه — بعد أن تجهز لقتال معاوية — أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية حقنا لدماء المسلمين ، خاصة وقد تكشف له خذلان أهل العراق الذين خذلوا أباه قبله كما سبقت الاشارة الى ذلك .

وحين تنازل الامام الحسن رضى الله تعالى عنه ، عن الخلافة لمعاوية ، أراد معاوية أن يجعله وليا للعهد ، ولكن الامام الحسن رفض ذلك وطلب أن يبقى الأمر شورى بين المسلمين بعد وفاة معاوية ، يولون عليهم من يرونه أصلح لادارة شئون الخلافة .

ولم تمض مدة طويلة حتى مات الامام الحسن — وقد سبق ايراد ذلك فى موضعه عند الكلام عنه رضى الله تعالى عنه — فخلا الجو لمعاوية لتوطيد أركان حكمه وتوسيع ملكه ، فأحاط نفسه بكل ما فى استطاعته من وسائل الترف والأبهة والعظمة ، وأعد العدة ليؤسس ملكا خالدا على الزمن لبنى سفيان ، فعمل ما فى وسعه من حيلة وقوة ومال ودهاء ينفقه فى سبيل غرضه ، خارجا على حكم الشورى ، هادفا الى ملك الأكاسرة والقياصرة ، جاعلا الحكم والملك احتكارا لبنى أمية .

ولتحقيق مأربه أخذ البيعة من أنصاره الاموبين لابنه يزيد ، وأكره الكثيرين على مبايعته قسرا ، فأثار ذلك التدبير رجال الرأى فى الدولة

الاسلامية ، لما فيه من خروج على مبدأ الشورى الذى هو من أعظم مبادىء الاسلام ، ولغيرتهم على حق الأمة فى الشورى ، ولعلمهم بفسق يزيد بن معاوية ومجونه واستهتاره وعدم أهليته لولاية أمور المسلمين ، وكان على رأس الثائرين على ذلك ، الامام أبو عبد الله الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ، الذى كان يتمتع بشخصية فذة محبوبة ورجاحة فى العقل وسمو فى الخلق وغيرة على الحق .

كان تحويل الخلافة الاسلامية من نظام الشورى والانتخاب الصالح، الى نظام قيصرى وراثى — حتى لمن لا يصلح لذلك — أمرا جديدا فى الاسلام . ولذلك اشتدت المعارضة ونشطت ، خاصة من جانب بنى هاشم ، غيرة منهم على الدين الحنيف وعلى النهج السليم الذى اتبع فى اختيار خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين .

وقد توقع معاوية أن يلقى ابنه يزيد معارضة قوية اذا تولى الحكم بعد وفاته ، ولم يكن يخفى على معاوية أن مبايعة ابنه بالخلافة بسلطان الدولة وسطوتها ، لابد من معارضته . ولذلك وجه وصيته لابنه يزيد ، كان مما جاء فيها :

— انى لست أخاف من قريش الا ثلاثة ، حسين بن على ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه[1] الدين ، فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين فانه رجل خفيف وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وان له لرحما ماسة وحقا عظيما وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه ، فان قدرت عليه فاصفح عنه ، فانى لو أنى صاحبه عفوت عنه ، وأما ابن الزبير فخب ضب[2] ، فاذا شخص لك فالبد له ، الا أن يلتمس منك صلحا ، فان فعل فاقبل وأحقن دماء قومك ما استطعت » .

ويدل هذا على ما كان يبيته معاوية من تدبير فى سبيل تحقيق هدفه ، وهو البيعة لابنه يزيد من بعده ، هذا اليزيد الذى لم يكن أدل على فسقه ومجونه مما جاء عنه فى « الفخرى لابن طباطبا » ، أنه كان موفر

---

(١) وقذه الدين : اى جعله شغله الشاغل .
(٢) خب ضب : اى خداع حقود .

الرغبة فى اللهو والقنص والخمر والنساء وكلاب الصيد ، وأنه كان يلبسها الاساور من الذهب ، والحلل المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبدا يخدمه .

ورغم كل ذلك ، فان معاوية لم يأل جهدا ، وبكل الوسائل غير المشروعة فى أن يحصل على البيعة من بعده لابنه يزيد . ومن تلك الوسائل غير المشروعة ، أن معاوية حين وفد عليه وفد الامصار ، وكان من بينهم الأحنف بن قيس من أهل العراق ، وكان ذلك فى سنة تسع وخمسين هجرية ، قال معاوية للضحاك بن قيس :

ـــ انى جالس من غد للناس فأتكلم بما شاء الله ، فاذا فرغت من كلامى فقل فى يزيد الذى يحق عليك وادع الى بيعته ، فانى قد أمرت عبد الرحمن بن عثمان الثقفى وعبد الله بن عمارة الاشعرى وثور بن معن المسلمى ، أن يصدقوك فى كلامك ، وأن يجيبوك الى الذى دعوتهم اليه .

فلما كان من الغد ، واجتمعت الوفود فى مجلسه ، أخذ يحدث الناس بما رأى من هدى يزيد ابنه وحسن سياسته ، وأن ذلك دعاه الى أن يوليه عهده . فقام الضحاك فأيد ذلك وحض الحاضرين على البيعة ليزيد ، ثم قام الثقفى والاشعرى والمسلمى فصدقوا قوله .

وعندئذ ساد القوم وجوم وسكتوا على مضض ، وتعلقت أنظارهم بالأحنف بن قيس المعروف بينهم بحكمته ورجاحة رأيه ، ولذلك أراد معاوية أن يحرجه قبل أن يقول رأيه ، فسأله الرأى . فتكلم الاحنف منددا بمن سبقوه بالكلام ثم قال :

ـــ أن يزيد حبيب قريب ، فان توله عهدك فعن غير كبر مفن ، أو مرض مضن ، وقد حلبت الدهور وجربت الامور ، فاعرف من تسند اليه عهدك ومن توله الامر من بعدك ، واعص أمر من يأمرك ولا يقدر لك ، ويشير عليك ولا ينظر لك .

وفى رواية لابن الاثير أنه قال :

ـــ نخافكم ان صدقنا ، ونخاف الله ان كذبنا ، وأنت يا أمير المؤمنين أعلم بيزيد فى ليله ونهاره ، وسره وعلانيته ، ومدخله ومخرجه ، فان

كنت تعلمه لله تعالى وللامة رضاء فلا تشاور فيه ، وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وأنت صائر الى الآخرة .

عندئذ غضب أنصار معاوية ، فتكلم الضحاك وعبد الرحمن بن عثمان فسفها أهل العراق وعرضا بهم ، وقام رجل من الأزد وقال لمعاوية :

ــ أنت أمير المؤمنين ، فاذا مت فأمير المؤمنين يزيد ، فمن أبى فهذا .. ، وآخذ بقائم سيفه فسله من غمده .

فقال معاوية مبديا اعجابه وسروره :

ــ اقعد فأنت من أخطب الناس .

اشتدت المعارضة فى المدينة والأمصار ، وكبر على الناس أن يحرم من الخلافة أجدر الناس بها كفاية ، وأقربهم الى رسول الله نسبا ، الا أن معاوية لم يأبه بتلك المعارضة ، وأصر على المضى فى تدبيره ورأيه .

فلما مات وتمت البيعة من أهل الشام لابنه يزيد ، كتب الى الوليد ابن عتبة واليه على المدينة ، كتابين يخبره فى أولهما بموت أبيه ويطلب منه أن يأخذ له البيعة من أهل المدينة عامة ومن أبناء الصحابة خاصة ، وكان هذا الكتاب يسيل رقة وعذوبة ــ كتجربة لسياسة اللين ــ ومما جاء فيه :

ــ « فبايع لنا قومنا من قبلك من رجالنا بيعة منشرحة بها صدوركم طيبة عليها أنفسكم ، وليكن أول من بايعك من قومنا وأهلنا ، الحسين ابن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ويحلفون على ذلك بجميع الايمان اللازمة » .

أما الكتاب الثانى ، فكتب فيه يزيد ما أراد أن يسره لواليه مما لا يحب الجهر به للناس ، وجاء فيه :

ــ « أما بعد ، فخذ حسينا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا » .

وخشى الوليد أن يتحمل وحده عبء ما عهد اليه به وثقله عليه ، فدعا اليه شيخ الامويين مروان بن الحكم ، وأطلعه على الكتابين طالبا مشورته فى ذلك . فأشار عليه مروان بأن يدعو فورا من ذكرهم يزيد فى

كتابه ويطالبهم بالبيعة ، فان أبوا ضرب أعناقهم قبل أن يعرفوا بموت معـــاوية .

أما عبد الله بن العباس وعبد الله بن عمر فقد بايعا ، وأما عبد الله ابن الزبير ففر بنفسه الى مكة لاجئا ومستعيذا ببيت الله الحـرام . ولمـا طولب الحسين رضى الله تعالى عنه بالبيعة ليزيد ، فطن الى الامر وعلم بأن معاوية لابد أن يكون قد مات ، ولذلك أجاب :

— انى لا أراك تقنع ببيعتى ليزيد سرا حتى يبايع جهرا فيعـلم النـاس .

فقال الوليـد :

— أجل . فقال الحسين :

— نصبح ونرى رأينا فى ذلك . فقال الوليد :

— انصرف على اسم الله تعالى حتى تأتينا مع جماعة من الناس .

ولقد لامه مروان بن الحكم على اذنه للحسين بالانصراف وعاتبه على ذلك ، وقال له :

— والله لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع ، لا قدرت منـه على مثلها أبدا ، ولكن احبس الرجل لا يخرج حتى يبايع أو تضرب عنقه . فقال الحسين لمروان :

— ويلى عليك يا ابن الزرقاء ، أأنت تأمر بضرب عنقى أم هو ؟

كذبت والله ولؤمت . ثم التفت الى الوليد وقال بجرأة عظيمة وحكمة بالغـة :

— يا أمير ، انا أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، بنا فتح الله وبنا ختم ، ويزيد فاسق فاجر ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق والفجور ، ومثلى لا يبايع مثله ، ولكن نصبح وتصبحون ، وننظر وتنظرون أينا أحق بالبيعة والخلافة .

ثم خرج الحسين ، فقال مروان للوليد :

— عصيتنى ، لا والله لا يمكنك لمثلها من نفسه أبدا . فقال الوليد :

ـ ويحك .. أنت أشرت على بذهاب دينى بدنياى ، والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها وأنى قتلت حسينا ـ سبحان الله أأقتل حسينا لما أن قال لا أبايع ؟ والله ما أظن أحدا يلقى الله بدم الحسين الا وهو خفيف الميزان ، لا ينظر الله اليه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم.

وما أن غادر الامام الحسين رضى الله تعالى عنه دار الوليد بن عتبة حتى بادر الى مبارحة المدينة الى مكة ، فأقبل أهلها عليه مرحبين ومتبركين . وكان قد لقيه عبد الله بن مطيع وهو خارج فقال له :

ـ جعلت فداءك أين تريد ؟ قال :

ـ أما الآن فمكة ، وأما بعد فانى أستخير الله . قال :

ـ خار الله لك وجعلنا فداءك ، فاذا أتيت مكة ، فاياك أن تقرب الكوفة ، فانها بلدة مشئومة ، بها قتل أبوك ، وخذل أخوك ، واعتنل بطعنة كادت تأتى على نفسه ، الزم الحرم فانك سيد العرب ، لا يعدل بك أهل الحجاز أحدا ، ويتداعى اليك الناس من كل جانب ، لا تفارق الحرم ، فداك عمى وخالى ، فوالله لئن هلكت لنسترقن بعدك .

وما كان امتناع الامام الحسين رضى الله تعالى عنه عن مبايعة يزيد ابن معاوية طمعا فى خلافة أو امارة ، انما كان حرصا منه على الحفاظ على كلمة التوحيد واعلاء شأن الدين الحنيف ، شأنه فى ذلك شأن أبيه الامام على كرم الله وجهه . فقد كان الامام الحسين ، يرى أن يزيد بن معاوية لا يمتلك ذرة من الصلاحية التى تؤهله لان يلى خلافة الامة المسلمة ، تلك الخلافة التى وليها ـ من قبل ـ الخلفاء الراشدون

وقد أذكى امتناع الحسين عن البيعة ليزيد وخروجه من المدينة الى مكة ، ثم تبوأ يزيد بن معاوية عرش الخلافة ، أذكى ذلك الحركة الشيعية فى العراق ، وقوت منها بعد ضعف أصابها من شدة معاوية وولاته على العراق ، ولذلك اجتمع رؤساء الشيعة فى منزل سليمان بن صرد الخزاعى فخطبهم قائلا :

« يا معشر الشيعة ، انكم قد علمتم أن معاوية قد هلك وسار الى ربه ، وقدم على عمله ، وقد قعد فى موضعه يزيد ، وهذا الحسين بن على قد خالفه وسار الى مكة هاربا من طواغيت آل أبى سفيان ، وأنتم شيعته

وشيعة أبيه من قبل ، وقد احتاج الى نصركم اليوم ، فان كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهدو عدوه فاكتبوا اليه ، وان خفتم الوهن والفشل ، فلا تغروا الرجل من نفسه » .

وكان ممن حضر هذا الاجتماع المسيب بن نجبة ، ورفاعة بن شداد ، وحبيب بن مظهر وغيرهم . وبعد تشاور فيما بينهم ، كتبوا اليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . فاننا نحمد اليك الله الذى لا اله الا هو ، أما بعد ، فالحمد لله الذى قصم عدوك الجبار العنيد ، الذى انتزى على هذه الامة فابتزها أمرها ، وغصبها فيأها ، وتأمر عليها بغير رضـــا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبقى شرارها ، وانه ليس علينـــا امام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ، والنعمان بن بشير فى قصر الامارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا عيد ، ولو بلغنا اقبالك الينا أخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وقد سيروا هذا الكتاب مع عبد الله بن سبع الهمدانى ، وعبد الله ابن وال ، ثم أتبعوه بكتاب آخر بعد ليلتين ، فكتب الناس معه نحـــوا من مائة وخمسين صحيفة ، ثم أرسلوا اليه رسولا ثالثا يحثونه على المسير اليهم . ثم كتب اليه آخرون كثيرون بذلك .

جاءته كل هذه الكتب وهـــو لا يجيبهم . ثم قدم اليه بعـــد ذلك هانى بن هانى السبيعى وسعيد بن عبد الله الحنفى بكتاب هو آخـــر الكتب ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للحسين أمير المؤمنين من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين ، أما بعد : فان الناس ينتظرونك لا رأى لهم غيرك ، فالعجل العجل : فقد اخضرت الجنات ، وأينعت الثمار ، وأعشبت الارض ، وأورقت الاشجار ، فأقدم اذا شئت فانما تقدم على جند مجند لك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فلما اجتمعت تلك الكتب لدى الامام الحسين رضى الله تعالى عنـــه ، كتب اليهم يقول :

« أما بعد ، فقد فهمت كل الذى اقتصصتم ، وقد بعثت اليكم بأخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى ، مسلم بن عقيل ، وأمرته أن يكتب الي

بحالكم وأمركم ورأيكم ، فان كتب الى أنه قد اجتمع رأى ملئكم وذوى الحجـا [1] منكم على مثل ما قدمت به رسلكم ، آقدم اليكم وشـيكا ان شاء الله ، فلعمرى ما الامام الا العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق ، والسلام » •

ثم دعا الحسين بن على ، مسلم بن عقيل رضى الله تعالى عنهم جميعا. فسيره نحو الكوفة ، وأمره بتقوى الله وكتمان أمره واللطف ، فان رأى الناس مجتمعين له ، عجل اليه بذلك •

فأقبل مسلم الى المدينة ، فصلى فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وودع أهله وأستأجر دليلين ، ولكنهما ضلا الطريق وعطشوا جميعا ، فمات الدليلان من العطش • وقد تطير مسلم من مهمته وطلب الى الحسين أن يعفيه منها ، وأن يبعث بغيره ليتمها ، الا أن الحسين آمره أن يمضي لوجهه •

فسار مسلم حتى أتى الكوفة ونزل أول الأمر فى دار المختار بن أبى عبيد ، وأخذ يدعو لبيعة الحسين سرا ، فبايعه آلاف عديدة من أهـل الكوفة وجوارها ، ووعدوه من أنفسهم القتال والنصرة حتى يلقوا الله •

وعلم النعمان بن بشير أمير الكوفة من قبل يزيد بن معاوية ، بمكانه وبلغه ما فعل ، وكان النعمان حليما ناسكا يحب العافيـه ، فصـعد المنبر وقال :

« أما بعد ، فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة ، فان فيهما تهلك الرجال، وتسفك الدماء ، وتغصب الأموال • ثم قال انى لا أقاتل من لم يقاتلنى ولا أثب على من لا يثب على ، ولا أنبه نائمكم ، ولا أتحرش بكم . ولا آخذ بالقرف [2] ولا الظنة ولا التهمة ، ولكنكم ان أبديتم صفحتكم ، ونكثتم بيعتكم ، وخالفتم امامكم ، فوالله الذى لا اله الا هو ، لأضربنكم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ، ولم يكن لى منكم ناصر ولا معين • أما انى أرجو أن يكون من يعرف الحق منكم أكثر ممن يرديه الباطل » •

فقام اليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمى ، حليف بنى أميـة فقـــال :

---

(١) العقل •

(٢) قرفه : اتهمه ، والقرف المصدر ، وقرفه بالشىء رماه به .

ـ انه لا يصلح ما ترى الا الغشم ، ان هذا الذى أنت عليه رأى المستضعفين . فرد عليه النعمان قائلا :

ـ لأن أكون من المستضعفين فى طاعة الله ، أحب الى من أن أكون من الأعزين فى معصيته ، ونزل .

وقد بادر عبد الله بن مسلم هذا ، فكتب الى يزيد بن معاوية فى دمشق يخبره بقدوم مسلم بن عقيل للكوفة ومبايعة الناس له ، ويقول له ان كان لك فى الكوفة حاجة ، فابعث اليها رجلا قويا ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوك ، فان النعمان رجل ضعيف أو هو يتضعف . وكتب اليه آخرون بمثل ذلك .

ولما اجتمعت تلك الكتب عند يزيد ، دعا سرجون مولى معاوية ، وأقرأه الكتب واستشاره فيمن يوليه الكوفة . فقال له سرجون :

ـ أرأيت لو نشر [1] لك معاوية كنت تأخذ رأيه ؟ قال يزيد :

ـ نعم .

فأشار عليه أن يبعث الى الكوفة ، عبيد الله بن زياد ، رغم علمه بأنه يعتب عليه . فكتب يزيد بذلك لعبيد الله بن زياد ، وعهد اليه بامارة الكوفة ، وجمع اليه كذلك البصرة ، وبعث اليه مع مسلم بن عمرو الباهلى بكتاب أمره فيه بطلب مسلم بن عقيل وقتله أو نفيه ، وهذا هو نص الكتاب :

« أما بعد ، فانه كتب الى شيعتى من أهل الكوفة يخبروننى أن ابن عقيل بالكوفة يجمع الجموع لشق عصا المسلمين ، فسر حين تقرأ كتابى هذا حتى تأتى أهل الكوفة فتطلب إبن عقيل كطلب الخرزة حتى تثقفه ، فتوثقه أو تقتله أو تنفيه والسلام » .

وفى هذه الفترة ، كان الامام الحسين رضى الله عنه ، قد كتب الى أهل البصرة نسخة واحدة الى الاشراف ، فكتب الى مالك بن مسمع البكرى ، والأحنف بن قيس ، والمنذر بن الجارود ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، وعمر بن عبيد الله بن معمر ، يدعوهم الى كتاب الله

---

(١) بعث حيا .

وسنة رسوله ، وأن السنة قد ماتت ، والبدعة قد أحييت ، وهذا هو نص كتاب الامام الحسين كما جاء فى الطبرى :

« أما بعد ، فان الله اصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على خلقه، وأكرمه بنبوته ، واختاره لرسالته ، ثم قبضه الله اليه ، وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به صلى الله عليه وسلم ، وكنا أهله وأولياءه وأوصياءه وورثته ، وأحق الناس بمقامه فى الناس ، فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة ، وأحببنا العافية ، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحروا الحق ، فرحمهم الله وغفر لنا ولهم ، وقد بعثت برسولى اليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فان السنة قد أميتت ، وان البدعة قد أحييت ، وان تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى ، أهدكم سبيل الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » •

وقد كتم جميع من تسلموا كتاب الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، أمر ذلك الكتاب ، الا المنذر بن الجارود الذى خاف أن يكون ذلك الكتاب دسيسا من ابن زياد • ولذلك أتاه بالكتاب وبالرسول الذى جاءه به ، فضرب عنقه • ثم وقف بالناس خطيبا وكان ما زال بالبصرة فقال :

ـ أما بعد ، فوالله ما بى تقرن الصعبة ، وما يقعقع لى بالشنآن ، وانى لنكل لمن عادانى ، وسلم لمن سالمنى •

يا أهل البصرة ، ان أمير المؤمنين قد ولانى الكوفة ، وأنا غاد اليها بالغداة ، وقد استخلفت عليكم أخى عثمان بن زياد ، فاياكم والخلاف والارجاف ، فوالله لئن بلغنى عن رجل منكم خلاف لاقتلنه وعريفه (١) ووليه ، لآخذن الادنى بالاقصى حتى تستقيموا ولا يكون فيكم مخالف ولا مشاق ، وانى ابن زياد أشبهته من بين وطىء الحصى ، فلم ينتزعنى شبه خال ولا ابن عم •

***

شخص عبيد الله بن زياد الى الكوفة متلثما ، ويضع على رأسه عمامة سوداء ، وكان الناس ينتظرون بين آونة وأخرى ، قدوم الحسين

---

(١) شيخ حيه .

عليهم ، فكان اللعين ابن زياد ، كلما مر بمجلس من مجالس أهل الكوفة، حسبه الناس الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، ووقفوا لتحيته قائلين :

— السلام عليك يا ابن بنت رسول الله ، قدمت خير مقدم .

وقد ساء ابن زياد ما رأى من استبشار الناس بالحسين وترحيبهم به والتفافهم حوله ، فبادر الى قصر الامارة بالكوفة ، ثم نودى الصلاة الجامعة . ولما اجتمع الناس ، خرج اليهم وخطبهم قائلا :

— أما بعد ، فان أمير المؤمنين ولانى مصركم وثغركم وفيأكم ،

وأمرنى بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم ، وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم ، وأنا متبع فيكم أمره ، ومنفذ فيكم عهده ، فأنا لمحسنكم كالوالد البر ، ولمطيعكم كالاخ الشفيق، وسيفى وسوطى على من ترك أمرى وخالف عهدى ، فليبق كل امرىء على نفسه . ثم نزل .

ثم جمع اليه العرفاء (١) والناس وأخذهم أخذا شديدا ، وقال لهم :

— اكتبوا لى الغرباء ومن فى أحيائكم من طلبة أمير المؤمنين ، ومن فيكم من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق . فمن كتبهم الى فبرىء ، ومن لم يكتب لنا أحدا ، فليضمن لنا ما فى عرافته أن لا يخالفنا فيهم مخالف ، ولا يبغى علينا باغ ، فمن لم يفعل فبرئت منه الذمة ، وحلال لنا دمه وماله ، وأيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه الينا ، صلب على باب داره ، وألغيت تلك العرافة من العطاء ، وسير الى موضع بعمان الزارة (٢) .

وقد استعمل ابن زياد — عليه لعنة الله — الحيلة والمال والدسيسة، ليقف على مكان مسلم بن عقيل ، وليعلم أخبار مريدى الحسين ومؤيديه، فدس عليهم جاسوسا وقف على مكان اقامته من دار هانىء بن عروة المرادى — التى كان قد انتقل اليها مختفيا — فاستدعاه اليه وسأله عن مسلم ، فأنكر هانىء وجوده لديه ومعرفته اياه . الا أن الجاسوس

---

(١) مشايخ الأحياء بالمدينة .

(٢) مكان يبعد اليه غير المرغوب فيهم ، وقد يموتون به من طول مدة نفيهم

طلع عليه فأسقط فى يده . فطلب ابن زياد الى هانىء أن يسلم اليه مسلم ابن عقيل ، فقال :

ــ اسمع منى وصدقنى ، فوالله لا أكذبك ، فوالله ما دعوته ولا علمت بشىء من أمره حتى رأيته جالسا على بابى يسألنى النزول على ، فاستحييت من رده ، ولزمنى من ذلك ذمام ، فأدخلته دارى وضفته ، وقد كان من أمره الذى بلغك ، فان شئت أعطيتك الآن موثقا تطمئن به ، ورهينة تكون فى يدك حتى أنطلق وأخرجه من دارى وأعود اليك . فقال ابن زياد :

ــ لا والله لا تفارقنى أبدا حتى تأتينى به . فأجاب هانىء :

ــ أو يجمل بى أن أسلم ضيفى وجارى للقتل ، لا والله لا أفعل ذلك ابدا ، ولو كان تحت قدمى ما رفعتهما عنه .

استشاط اللعين عبيد الله بن زياد غضبا ، فأخذ يضرب هانئا بقضيب كان فى يده ، ولم يزل يضرب أنفه وجبينه وخده حتى كسر أنفه وسالت الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، ثم أمر باعتقاله حتى يرى فيه الرأى .

ثم شاع فى الكوفة أن هانئا قد قتل ، فضج أهلها فأقبلوا فى جموع غفيرة أحاطت بالقصر ، وخشى ابن زياد على نفسه لقلة حرسه المحيطين به ، ولكثرة الثائرين عليه ، فاستعمل الحيلة والدهاء ، وجمع وجوه القوم وعشائرهم ، وطلب الى شريح بن القاضى أن يدخل على هانىء ليعلم خبره ثم يخرج الى القوم لينبئهم أنه حى لم يقتل ، ثم أشرف هؤلاء الوجوه على الجموع المحتشدة من عشائرهم ، وجعلوا يردونهم عن غرضهم ، ويخذلونهم عن نصرة مسلم بن عقيل ، ويحذرونهم عقوبة السلطان ، قائلين :

ــ الحقوا بأهاليكم ولا تعرضوا بأنفسكم للقتل ، فان جنود أمير المؤمنين قد أقبلت ، وقد أعطى الامير عهدا لئن لم تنصرفوا من عشيتكم أن يحرم ذريتكم العطاء ، وأن يأخذ البرىء بالمجرم ، والغائب

بالشاهد [1] ، حتى لا يبقى فيكم من أهل المعصية الا ذاق وبال ما جرت يداه .

فلما سمع الناس مقالة أشرافهم ، أخذوا يتفرقون ، حتى المرأة تأتى ابنها وأخاها وتقول ، انصرف ، الناس يكفونك ، ويفعل الرجل مثل ذلك ، فما زالوا يتفرقون حتى لم يبق مع مسلم الا نفر قليل لا يزيد على الخمسين ، وهؤلاء صلى بهم العشاء فى المسجد ، فلما انتهى من صلاته نظر حوله فلم يجد منهم أحدا .

خرج ابن عقيل من المسجد ولا يدرى ما يفعل أو أين يتجه ، حتى دخل حى كندة ، فوجد امرأة على باب دارها ، هى طوعة أم ولد ، كانت للأشعث وأعتقها ، فتزوجها أسيد الحضرمى ، فولدت له بلالا .

كانت طوعة تقف بباب دارها تنتظر عودة ابنها ، فقال لها ابن عقيل :

يا أمة الله اسقنى ماء .

فسقته ودخلت دارها ، ثم عادت بعد مدة فوجدته ما يزال ببابها ، فقالت :

ــ يا عبد الله ، ان مجلسك مجلس ريبة ، فقم فانه لا يصلح لك الجلوس على بابى ولا أحله لك .

ولما استوضحته أمره ، أخبرها أنه مسلم بن عقيل ، وأن القوم كذبوه وخذلوه وغروه ، فأدخلته البيت خلسة وأخفته فى احدى غرف الدار .

أما ابن زياد ، فانه لما هدأت الأصوات الثائرة ، وصار لا يسمع شيئا ، قال لاصحابه انظروا هل ترون أحدا ، ولما لم يجدوا أحدا يحاصر القصر ، نزل فى حرسه وأصحابه الذين أجلسهم حول المنبر ، وأمر فنودى برئت الذمة من رجل من الشرط والعرفاء والمناكب [2] والمقاتلة صلى العتمة الا فى المسجد ، فامتلأ المسجد فصلى بالناس ثم قام فحمد الله ثم قال :

ــ أما بعد ــ فان ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما رأيتم من

---

(1) الحاضر .
(2) عون العريف أو مساعده .

الخلاف والشقاق ، فبرئت الذمة من رجل وجدناه فى داره ، ومن أتانا به فله ديته ، ثم أمرهم بالطاعة ولزومها •

وأمر الحصين بن تميم أن يمسك أبواب السكك ثم يفتش الدور • فلما أصبح جلس ابن زياد للناس ، وجاء بلال ابن تلك العجوز التى آوت مسلم بن عقيل ، وأخبر عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بمكان ابن عقيل ، وهذا أخبر بدوره أباه وكان عند ابن زياد • فلما علم بذلك طلب أن يؤتى به فورا • فقامت حملة من سبعين رجـلا من قيس ، وهاجموا الدار ليخرجوه منها ، ولكنه دافع عن نفسه بسيفه فأخرجهم مرارا ، فلما رأوا ذلك أشرفوا على سطح البيت وجعلوا يرمونه بالحجارة ويلهبون النار فى القصب ويلقونها عليه ، فخرج عليهم ثانية فقاتلهم فى السكة وهو يقول :

أقسمت لا أقتل الا حـرا وان رأيت الموت شيئا نكرا
أو يخلط البارد سخنا مرا رد شعاع الشمس فاستقرا
كل امرىء يوما يلاقى شرا أخاف أن أكذب أو أغرا

وفى رواية كما جاء فى الطبرى ، أن هناك تغييرا فى بعض الأبيات ، فالبيت الثالث جاء هكذا :

كل امرىء يوما ملاق شرا ويخلط البارد سخنا مرا

وكان مسلم بن عقيل رضى الله تعالى عنه ، قد أثخن بالجراح من جراء رميه بالحجارة وعجز عن القتال ،فأسند ظهره الى حائط تلك الدار ، فحملوا عليه وانتزعوا سيفه وحملوه على بغلة ، فأيس من نفسه ودمعت عيناه وقال :

ـ هذا أول الغدر • فقال له عمرو بن عبيد الله بن عباس السلمى :

ـ من يطلب مثل الذى تطلب ، اذا نزل به الذى نزل لم يبك • فقال :

ـ ما أبكى لنفسى ، ولا لها من القتل أرثى ، وان كنت لم أحب لها طرفة عين تلفا ، ولكنى أبكى لأهلى المنقلبين اليكم ، أبكى للحسين وآل الحسين •

حدث كل هذا والامام الحسين فى مكة يستعد للخروج منها الى الكوفة ،

بعد أن كان قد تسلم كتاب ابن عمه مسلم بن عقيل ، الذى كان قد بعث به من قبل ، والذى جاء فيه :

ـ أما بعد ، فان الرائد لا يكذب أهله ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفا ، فعجل الاقبال حين يأتيك كتابى ، فان الناس كلهم معك وليس لهم فى آل معاوية رأى ولا هوى والسلام .

أراد مسلم ، بعد أن رأى ما رأى من خذلان أهل الكوفة له ، وعدم نصرتهم اياه وانصرافهم عنه ، أن ينبه الامام الحسين ليرجع بأهل بيته ، فلا يغره أهل الكوفة ، الذين كان أبوه الامام على كرم الله وجهه يتمنى من قبل ، فراقهم بالموت أو القتل ، وأراد أن يقول له . ان أهل الكوفة كذبوك وكذبونى ، وليس لمكذوب رأى .

عذب مسلم بن عقيل رضى الله عنه ، ومنع عنه الماء وهو عطشان .
ثم أدخل على ابن زياد فلم يسلم عليه ، ولما علم أنه لابد مقتول .
أراد أن يوصى الى بعض قومه ، فأسرع الى عمر بن سعد قائلا :

ـ ان بينى وبينك قرابة ولى اليك حاجة ، ان على بالكوفة دينا استدنته منذ قدمتها سبعمائة درهم ، فبع ثيابى فاقضها عنى ، وانظر جثتى فاستوهبها من ابن زياد فوارها ، وابعث الى الحسين من يرده ويعلمه حالى وما صرت اليه من غدر هؤلاء الذين يزعمون أنهم شيعة .
وأخبره بما كان من نكثهم بعد أن بايعنى منهم ثمانية عشر ألف رجل ، فانى قد كتبت اليه أعلمه أن الناس معه ، ولا أراه الا مقبلا .

فأخبر عمر بن سعد أميره بذلك السر ، فقال ابن زياد :

ـ لا يخونك الامير ، ولكن قد يؤتمن الخائن ، أما مالك فهو لك تصنع به ما شئت وأما الحسين فان لم يردنا لم نرده ، وان أرادنا لم نكف عنه ، وأما جثته فانا لن نشفعك فيها .

وقيل انه قال :

ـ أما جثته فانا اذا قتلناه لا نبالى ما صنع بها .
ثم قال لابن عقيل :

ـ يا ابن عقيل ، أتيت الناس وأمرهم جميع وكلمتهم واحدة لتشتت بينهم وتفرق كلمتهم • فقال :

ـ كلا ، ولكن أهل هذا المصر زعموا أن أباك قتل خيارهم وسفك دماءهم وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر ، فأتيناهم لنأمر بالعدل وندعو الى حكم الكتاب والسنة • فرد عليه اللعين ابن زياد :

ـ وما أنت وذاك يا فاسق ، ألم يكن يعمل بذلك فيهم اذ أنت تشرب الخمر بالمدينة ؟ فقال مسلم :

ـ أنا أشرب الخمر !! والله ان الله يعلم أنك تعلم أنك غير صادق ، وانى لست كما ذكرت ، وان أحق الناس بشرب الخمر منى ، يلغ فى دماء المسلمين فيقتل النفس التى حرم الله قتلها ، على الغضب والعداوة وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئا • فقال ابن زياد :

ـ قتلنى الله ان لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد فى الاسلام • قال :

ـ أما أنك أحق من أحدث فى الاسلام ما ليس فيه ، أما أنك لا تدع سوء القتلة ، وقبح المثلة ، وخبث السيرة ، ولؤم الغلبة ، ولا أحد من الناس أحق بها منك •

فشتمه اللعين ابن زياد ، كما شتم الحسين وعليا وعقيلا رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فلم يرد عليه مسلم • ثم أمر به فأصعد فوق القصر لتضرب عنقه لتقع من عل على الأرض ، ويتبعوا رأسه جسده • فكان وهو يصعد السلم الى سطح القصر ، يستغفر ويسبح ، ثم ضرب بكير ابن خمران عنقه وأتبع رأسه جسده•وقد بعث ابن زياد ـ عليه اللعنة ـ برأس مسلم الى يزيد ، الذى كتب اليه يشكره ويقول له فى كتابه :

ـ وقد بلغنى أن الحسين قد توجه نحو العراق ، فضع المراصد والمسالح واحترس واحبس على التهمة وخذ على الظنة ، غير أن لا تقتل الا من قاتلك •

أخذ عبيد الله بن زياد يبحث عن قادة الشيعة ويضرب أعناقهم ، وأخذ ما بين واقصة على طريق الشام الى البصرة ، فلم يدع أحدا يدخل ولا أحدا يخرج ، فعم البلاد جو قاتل رهيب من الفزع والذعر

• • • • •

الإمام الحسين رضى الله عنه يخرج إلى الكوفة

تمت الأحداث السابقة وانتهت بسرعة ، والامام الحسين يجهز نفسه ويعد العدة للخروج من مكة الى الكوفة ، بعد أن كان قد تسلم كتاب رسوله اليها — مسلم بن عقيل رضى الله عنه — والذى مر ذكره •

ولم تكن أنباء تلك الأحداث قد وصلت بعد ، الى علم الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، وان كان قد علم بها القادمون من أسفارهم ووقفوا على نتائجها • ذلك لأن مقتل مسلم بن عقيل ، كان فى التاسع من ذى الحجة سنة ستين من الهجرة ، وكان خروج الامام الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد ، فلم يسمع بمقتل مسلم الا وهو فى الطريق ، فترحم عليه وقال :

— « صار الى روح الله تعالى ورضوانه ، أما أنه قد قضى ما عليه وبقى ما علينا • وأنشد يقول :

لئن كانت الدنيا تعد نفيسة ... فدار ثواب الله أعلا وأنبل
وان تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرىء فى الله بالسيف أجمل
وان تكن الأرزاق قسما مقدرا ... فقلة حرص المرء فى السعى أجمل
وان تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

وكان عبد الرحمن بن الحرث بن هشام المخزومى ، قد جاء الى الامام الحسين قبل خروجه من مكة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال له :

— انى أتيتك يا ابن عم لحاجة أريد ذكرها لك نصيحة ، فان كنت ترى أنك مستنصحى قلتها وأديت ما على من الحق ، وان ظننت أنك لا مستنصحى كففت عما أريد أن أقول • قال الحسين :

— قل فوالله ما أظنك بسىء الرأى • قال له :

— قد بلغنى أنك تريد المسير الى العراق ، وانى مشفق عليك من مسيرك ، انك تأتى بلدا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت المال ، وانما الناس عبيد لهذا الدرهم والدينار ، ولا آمن عليك أن يقاتلك من وعدك النصر ، ومن أنت أحب اليه ممن يقاتلك معه •

فقال الحسين :

— جزاك الله خيرا يا ابن عم ، فقد والله علمت أنك مشيت بنصح ، وتكلمت بعقل ، ومهما يقض من أمر يكن — أخذت برأيك أو تركته — فأنت عندى أحمد مشير وأنصح ناصح •

وأتاه كذلك قبل الخروج من مكة ، عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما ، لما علم أن الحسين رضى الله عنه قد أجمع الرأى على المسير الى الكوفة ، فقال له :

— يا ابن عم ، انه قد أرجف الناس أنك سائر الى العراق ، فبين لى ما أنت صانع • قال :

— انى قد أجمعت المسير فى أحد يومى هذين ان شاء الله تعالى • فقال ابن عباس :

— فانى أعيذك بالله من ذلك • أخبرنى رحمك الله ، أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ، وان كانوا انما دعوك اليهم وأميرهم عليهم ، قاهر لهم ، وعماله تجبى بلادهم ، فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ، ولا آمن عليك أن يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وان يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك •

فقال له الامام الحسين :

— وانى أستخير الله وأنظر ما يكون •

فلما كان العشى أو من الغد ، أتى الحسين ، عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهم جميعا ، للمرة الثانية ليعلم ما استقر عليه رأيه ، فقال للامام الحسين :

— يا ابن عم ، انى أتصبر ولا أصبر ، انى أتخوف عليك فى هذا

الوجه الهلاك والاستئصال ، ان أهل العراق قوم غدر فلا تقربنهم أقم بهذا البلد فانك سيد أهل الحجاز ، فان كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب اليهم فلينفوا عدوهم ، فان أبيت الا أن تخرج ، فسر الى اليمن ، فان بها حصونا وشعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب الى الناس وترسل رسلك ، وتبث دعاتك ، فانى أرجو أن يأتيك عند ذلك ، الذى تحب فى عافية .... الى أن قال : فان كنت سائرا ، فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فو الله انى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون اليه . لقد أقررت عين ابن الزبير [1] بتخليتك اياه والحجاز والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر اليه أحد معك ، والله الذى لااله الا هو ، لو أعلم أنى اذا أخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع على وعليك الناس أطعتنى فأقمت لفعلت ذلك .

وكان آخر ما تكلم به الامام الحسين مع ابن عباس رضى الله تعالى عنهم جميعا قوله :

— « ما تقول فى قوم أخرجوا ابن بنت نبيهم من وطنه وداره وقراره وحرم جده ، وتركوه خائفا مرعوبا لا يستقر فى قرار ولا يأوى الى جوار ، يريدون قتله وسفك دمائه ، لم يشرك بالله شيئاً ، ولم يرتكب منكرا ولا اثما » .

ثم خرج ابن عباس من عنده ، فمر بابن الزبير ، فقال :

— قرت عينك يا ابن الزبير ، ثم أنشد يقول :

يا لـــك من قنبـــرة بمعمـــر خـــلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقـــرى ما شـــئت أن تنقـــرى

هـــذا الحســـين يخـــرج الى العـــراق ويخليـــك والحجـــاز

وشاء القدر الالهى ألا يعمل الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، بنصيحة الناصحين ، وقرر الذهاب الى الكوفة ، اعتمادا على كتب أهل

---

(١) كان ابن الزبير ينافس الامام الحسين فى الخلافة ، ويرى أحقيتـــه فيها . ولكنه كان قد نصحه بالخروج الى العراق لما له بها من شيعة . ثم اتبع تلك النصيحة — خشية أن يتهم — بقوله : أما أنك لو اقمت بالحجاز ثم أردت هذا الأمر ههنا ، لما خالفنا عليك وساعدناك وبايعناك ونصحنا لك .

العراق ودعوتهم التى أيدها كتاب ابن عمه مسلم بن عقيل ، الذى كان الامام الحسين قد أوفده ليستوثق من حال أهل العراق بنفسه ، كما سبق الاشارة الى ذلك . وفى الطريق عند الصفاح ، لقيه الفــرزدق الشاعر العربى المعروف ، فقال له :

— أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب . فقال له الحسين :

— بين لى خبر الناس خلفك . قال :

— من الخبير سألت ، قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء . قال :

— صدقت ، لله الأمر ، والله يفعل ما يشاء ، وكل يوم ربنا هو فى شأن، ان نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر ، وان حال القضاء دون الرجاء ، فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته .

ولما خرج الامام الحسين رضى الله تعالى عنه من مكة ، كتب اليــه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب — وهو زوج السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنهم جميعا — كتابا بعث به مع ابنيه عون ومحمد يقول فيه :

— « أما بعد ، فانى أسألك بالله لما انصرفت حين تنظر فى كتابى ، فانى مشفق عليك من هذا الوجه أن يكون فيه هلاكك واستئصــال أهل بيتك ، ان هلكت اليوم طفىء نور الأرض ، فانك عــلم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجل بالمسير ، فانى فى أثر كتابى والســلام » .

واستعان عبد الله بن جعفر بعمرو بن سعيد بن العاص — والى مكة من قبل يزيد — وقال له :

— اكتب الى الحسين كتابا تجعل له فيه الأمان ، وتمنيــه فيه البر والصلة ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن الى ذلك ويرجع . فقال له عمــرو :

— اكتب ما تشاء وائتنى به حتى أختمه .
فكتب له :

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم • من عمرو بن سعيد والى مكة ، الى الحسين بن على ، أما بعد ، فانى أسأل الله أن يصرفك عما يوبقك ، وأن يهديك لما يرشدك ، بلغنى أنك قد توجهت الى العراق ، وانى أعيذك بالله من الشقاق ، فانى أخاف عليك الهلاك ، وقد بعثت اليك عبد الله بن جعفر ويحيى بن سعيد ، فأقبل الى معهما ، فان لك عندى الأمان والصلة والبر وحسن الجوار لك • الله على بذلك شهيد وكفيل وهراع ووكيل ، والسلام عليك » •

وأرسل عمرو بن سعيد بن العاص هذا الكتاب مع أخيه يحيى بن سعيد وعبد الله بن جعفر • فرد عليه الامام الحسين رضى الله تعالى عنه، بكتاب يقول :

ـ « أمابعد ، فانه لم يشاقق الله ورسوله من دعا الى الله عز وجل وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين ، وقد دعوت الى الأمان والبر والصلة ، فخير الأمان أمان الله ، ولن يؤمن الله يوم القيامة من لم يخفه فى الدنيا ، فنسأل الله مخافة فى الدنيا توجب لنا أمانه يوم القيامة ، فان كنت نويت بالكتاب صلتى وبرى ، فجزيت خيرا فى الدنيا والآخرة والسلام » •

وفى أثناء سير الامام الحسين رضى الله تعالى عنه الى الكوفة ، رآه عبد الله بن مطيع العدوى ، فقال له :

ـ بأبى أنت وأمى يا ابن رسول الله ، ما أقدمك ؟ فقال له الحسين :

ـ كان من موت معاوية ما بلغك ، فكتب الى أهل العراق يدعوننى الى أنفسهم • فقال له عبد الله بن مطيع :

ـ أذكرك الله يا ابن رسول الله فى حرمة العرب ، فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنىأمية ليقتلنك ، ولئنقتلوك لايهابون أحدا أبدا ، والله انها لحرمة الاسلام تنتهك ، وحرمة قريش وحرمة العرب ، فلا تفعل ولا تأت الكوفة ، ولا تعرض لبنى أمية •

أبى الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، الا أن يمضى فى طريقه ، فقد كان شجاعا مقداما ، لا يخشى الموت فى سبيل الله • وان مضيه هذا ، لدليل واضح على أنه صدق أهل الكوفة واغتر بدعوتهم وكتبهم ورسلهم • ويؤيد ذلك ، قوله ـ الذى قاله فيما بعد ـ وهو يمسح

الدم عن ابنه الذى رمى بسهم وهو فى حجره أثناء القتال : « اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا » .

ولما وصل الى علم الامام الحسين وهو بالثعلبية ، نبأ مقتل مسلم ابن عقيل رسوله الى الكوفة ، قال له بعض أصحابه :

— ننشدك الله الا رجعت من مكانك ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر

— ولا شية ، بل يتخوف عليك أن يكونوا عليك .

فوثب بنو عقيل وقالوا :

— والله لا نبرح حتى يدرك ثأرنا أو نذوق كما ذاق مسلم . فقال الحسين :

— لا خير فى العيش بعد هؤلاء . فقال له بعض أصحابه :

— انك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس أسرع اليك .

وكان الامام الحسين قد سرح أخاه من الرضاعة ، عبد الله بن بقطر[1]، ليذهب الى مسلم بن عقيل قبل أن يعلم بقتله ، فأخذته خيل الحصين الذى سيره من القادسية الى حيث ابن زياد ، فقتله بعد أن رفض أن يلعن الحسين ويسبه وأهله . فقال الامام الحسين لأصحابه :

— قد خذلتنا شيعتنا ، فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا ذمام .

فتفرقوا يمينا وشمالا ، ولم يبق معه الا أصحابه الذين جاءوا معه من مكة .

وقد فعل رضى الله عنه ذلك ، لأنه علم أن الأعراب ظنوا أنه يأتى بلدا قد استقامت لطاعة أهله ، فأراد أن يعلموا ما يقدمون عليه ، ثم سار رضى الله عنه حتى نزل بطن العقبة ، فلقيه رجل من العرب فقال له :

— أنشدك الله لما انصرفت ، فوالله ما تقدم الا على الأسنة وحد السيوف ، ان هؤلاء الذين بعثوا اليك لو كانوا كفوك مئونة القتال ،

---

(١) وقيل ان رسوله كان قيس بن مسهر .

ووطئوا لك الأشياء فقدمت عليهم ، لكان ذلك رأيا ، فأما على هذه الحال التى تذكرها فلا أرى لك أن تفعل • فقال :

ــ انه لا يخفى على ما ذكرت ، ولكن الله عز وجل لا يغلب على أمره•

ولما نزل الامام الحسين الخزيمية ، أقام بها يوما وليلة ، فلما أصبح أقبلت عليه أخته العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنهما ، فقالت :

ــ انى سمعت الليلة هاتفا يقول :

ألا يا عــين فاحتــفظى بجهـــد ومن يبــكى على الشهداء بعدى
على قــوم تســــوقهم المنـــايا بمقـــدار الى انجـــاز وعـــد

فقال لها الحسين : يا أختاه كل الذى قضى فهو كائن •

سار الامام الحسين وأهله وأصحابه ومؤيدوه رضى الله تعالى عنهم جميعا ، الى وجهته لا يلوى على شىء ، فلما انتصف النهار تقريبا ، كبر رجل من أصحابه ، فقال له :

ــ مم كبرت ؟ قال :

ــ رأيت النخل • فقال رجلان من بنى أسد :

ــ ما بهذه الأرض نخلة قط • قال الحسين :

ــ فما هو ؟ فقالا :

ــ لا نراه الا هوادى الخيل • فقال :

ــ وأنا أيضا أراه كذلك • ثم سألهما :

ــ أما لنا ملجأ نلجأ اليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ؟ فقــالا :

ــ بلى هذا ذو حسم الى جنبك تميل اليه عن يسارك ، فان سبقت القوم اليه فهو كما تريد •

فمال اليه ، فما كان بأسرع من أن طلعت الخيل وعدلوا اليهــم ، فسبقهم الحسين الى الجبل فنزل •

وجاء القوم ، وهم ألف فارس مع الحر بن يزيد التميمى ، ثم وقفوا

مقابل الحسين وأصحابه فى حر الظهيرة . فقال الامام الحسين لأصحابه وفتيـــانه :

ــ اسقوا القوم ورشفوا [1] الخيل ترشيفا . ففعلوا .

وكان مجىء الحر من القادسية ، أرسله الحصين بن نمير التميمى فى هذه الألف يستقبل الحسين . فلم يزل مواقفا الحسين حتى حضرت صلاة الظهر ، فأمر الحسين رضى الله تعالى عنه مؤذنه بالأذان ، وخرج اليهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ « أيها الناس ، انها معذرة الى الله واليكم ، انى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم الينا ، فليس لنا امام لعل الله أن يجعلنا بك على الهدى ، فقد جئتكم فان تعطونى ما أطمئن اليه من عهودكم ، أقدم مصركم ، وان لم تفعلوا وكنتم بمقدمى كارهين ، انصرفت عنكم الى المكان الذى أقبلت منه » .

فسكتوا وقالوا للمؤذن ، أقم الصلاة فأقام . ثم قال الامام الحسين رضى الله تعالى عنه للحر :

ــ أتريد أن تصلى أنت بأصحابك ؟ فقال :

ــ بل صل أنت ، ونصلى بصلاتك .

فصلى بهم الامام الحسين ، ثم دخل واجتمع بأصحابه ، وانصرف الحر الى مكانه . ثم صلى بهم الحسين العصر ، واستقبلهم بوجهــه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ « أما بعد أيها الناس ، فانكم ان تتقوا الله وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله ، ونحن أهل البيت أولى بولاية هــذا الأمر من هؤلاء المدعين ما ليس لهم ، والسائرين فيكم بالجور والعدوان . فان أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا ، وكان رأيكم غير ما أتتنى به كتبكم ورسلكم انصرف عنكم » . فقال الحر :

ــ انا والله ما ندرى ما هذه الكتب والرسل التى تذكر .

---

(١) الرشف اخذ الماء بالشفتين وهو فوق المص .

فأخرج الحسين خرجين مملوءين صحفا ، فنشرها بين أيديهم . فقال الحر :

— فانا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك ، وقد أمرنا انا اذا لقيناك أن لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد .

فقـــال الحســـين :

— الموت أدنى اليك من ذلك .

ثم أمر أصحابه فركبوا لينصرفوا ، فمنعهم الحر من ذلك . فقـــال لـــه الحســـين :

— ثكلتك أمك ، ما تريد ؟ قال له :

— أما والله لو غيرك من العرب يقولها لى ، ما تركت ذكر أمه بالثكل كائنا من كان ، ولكنى والله مالى الى ذكر أمك من سبيل الا باحسن ما يقدر عليه . فقال له الحسين :

— ما تريد ؟ قال الحر :

— أريد أن أنطلق بك الى ابن زياد . فقال الحسين :

— اذن والله لا أتبعك . قال الحر :

— اذن والله لا أدعك .

فترادا الكلام ثلاث مرات ، فقال له الحر :

— انى لم أومر بقتالك ، وانما أن أفرقك حتى أقدمك الكوفة ، فاذا أبيت فخذ طريقا لا تدخلك الكوفة ، ولا تردك الى المدينة ، حتى أكتب الى ابن زياد ، وتكتب أنت الى يزيد أو الى ابن زياد ، فلعل الله أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية ، من أن أبتلى بشىء من أمـــرك .

فتياسر عن طريق العذيب والقادســـية ، والحر يسايره . ثم ان الحسين رضى الله تعالى عنه خطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— « أيها الناس ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير ما عليــه بفعل ولا قول ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله » ، ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وانا أحق من غيرى ، وقد أتتنى كتبكم ورســلكم ببيعتكم ، وأنكم لا تسـلمونى ، ولا تخذلونى ، فان أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم ، وأنا الحسين ابن على بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى من نفسكم ، وأهلى من أهلكم ، فلكم فى أسوة ، فان لم تفعلوا ونقضتم عهدى ، وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكير ، لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم بن عقيل ، والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، وسيغنى الله عنكم والسلام » .

فقـــال الحـــر :

ـ انى أذكرك الله فى نفسك ، فانى أشهد لئن قاتلت لتقتلن [1] .

فقال له الحسين :

ـ أبالموت تخوفنى ؟ وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلونى ، وما أدرى ما أقول لك ، ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمــه وهو يريد نصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أين تذهب فانك مقتول ، فقال :

سأمضى وما بالموت عار على الفتى اذا ما نوى خيرا وجاهد مســلما
وواسى رجالا صالحين بنفســه وخالف مثبورا وفارق مجرما [2]
فان عشت لم أندم وان مت لم ألم كفى بك ذلا أن تعيش وترغمــا

فلما سمع الحر ذلك تنحى عنه ، فكان يسير ناحية منه ليبلغه الكوفة ، والحسين يحاول أن يتجه بأصحابه نحو البادية ، فيمنعه الحر من ذلك حتى انتهى الى عذيب الهجانات ، كان بها هجائن النعمان ترعى هناك ،

(١) وفى رواية : فلئن قوتلت لتهلكن فيما ارى .
(٢) وفى رواية : وآسى الرجال الصالحين بنفسه
وفارق مثبـورا يغش ويرغمـــا

فنسب اليها • فاذا هو بأربعة نفر أقبلوا من الكوفة على رواحلهم يجنبون فرسا لنافع بن هلال ، يقال له الكامل ومعهم دليلهم الطرماح ابن عدى ، فانتهوا الى الحسين ، فأقبل اليهم الحر وقال :

ـ ان هؤلاء النفر من أهل الكوفة ، فأنا حابسهم أو رادهم • فقال الحسين :

ـ لأمنعنهم مما أمنع منه نفسى ، انما هؤلاء أنصارى وهم بمنزلة من جاء معى ، فان تمت على ما كان بينى وبينك ، والا ناجزتك • فكف الحر عنهم ، وقال الحسين :

ـ أخبرونى خبر الناس خلفكم •

فقال له مجمع بن عبيد الله العامرى وهو أحدهم :

ـ أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، فهم الب واحد عليك ، وأما سائر الناس بعدهم ، فان قلوبهم تهوى اليك وسيوفهم غدا مشهورة عليك •

ثم سألهم عن رسوله الى الكوفة الذى سبق له أن سرحه اليها ليستطلع نبأ مسلم بن عقيل ـ قبل أن يعرف نبأ مقتله ـ فأخبروه بقتله كذلك ، فترقرقت عيناه بالدموع ، ثم قرأ :

ـ « فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا [1] » ، وقال اللهم اجعل لنا ولهم الجنة واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك وغائب مدخور ثوابك •

وقال له الطرماح بن عدى :

ـ والله ما أرى معك كثير أحد ، ولو لم يقاتلك الا هؤلاء الذين أراهم ملازميك لكان كفى بهم ، ولقد رأيت قبل خروجى من الكوفة بيوم ، ظهر الكوفة وفيه من الناس مالم تر عيناى جمعا فى صعيد واحد ، أكثر منه قط ليسيروا اليك • فأنشدك الله ان قدرت على أن لا تقدم عليهم شبرا فافعل ، فان أردت أن تنزل بلدا يمنعك الله به حتى ترى رأيك ويستبين لك ما أنت صانع ، فسر حتى أنزلك جبلنا « أجأ » فهو والله جبلنا ، امتنعنا به من

---

(١) من الآية ٢٣ من سورة الأحزاب •

ملوك غسان وحمير والنعمان بن المنذر ، ومن الأحمر والأبيض • والله ما أن دخل علينا ذل قط ، فأسير معك حتى أنزلك القرية ، ثم تبعث الى الرجال ممن « بأجأ » « وسلمى من طيء » ، فوالله لا يأتى عليك عشرة أيام حتى يأتيك طيء رجالا وركبانا ، ثم أقم فينا ما بدا لك ، فان هاجج هيج [1] ، فأنا زعيم لك بعشرين ألف طائى يضربون بين يديك بأسيافهم ، فوالله لا يوصل اليك أبدا وفيهم عين تطرف • فقال له الامام الحسين :

ــ جزاك الله وقومك خيرا ، انه كان بيننا وبين هؤلاء القوم قول لسنا نقدر معه على الانصراف ، ولا ندرى على ما تتصرف بنــا وبهم الأمور •

ثم سار الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، حتى بلغ قصر بنى مقاتل فنزل به ، فرأى فسطاطا مضروبا ، فقال :

ــ لمن هذا الفسطاط ؟ فقيل له :

ــ لعبيد الله بن الحر الجعفى • فقال :

ــ ادعوه لى •

فلما أتاه الرسول يدعوه ، قال :

ــ انا لله وانا اليه راجعون ، والله ما خرجت من الكوفة الا كراهية أن يدخلها الحسين وأنا بها ، والله ما أريد أن أراه ولا يرانى •

فلما عاد الرسول وأخبر الامام الحسين بما كان وبما سمع ، لبس نعليه وجاءه فسلم عليه ودعاه الى نصره ، فأعاد عليه ابن الحر تلك المقالة ، فقال :

ــ فالا تنصرنى فاتق الله أن تكون ممن يقاتلنا ، فوالله لا يسمع داعيتنا أحد ثم لا ينصرنا الا هلك • فقال له :

ــ أما هذا فلا يكون أبدا ان شاء الله تعالى •

عاد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه الى رحله وأهله ، ثم ساروا ليلا ساعة فخفق برأسه خفقة ثم انتبه وهو يقول :

---

(١) يقال هاجت الحرب هيجا فهى هيج تسمية بالمصدر .

ـ انا لله وانا اليه راجعون والحمد لله رب العالمين . (وقيل فعل ذلك مرتين أو ثلاثا) .

فأقبل اليه ابنه على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما . فقال :

ـ يا أبت جعلت فداك ، مم حمدت واسترجعت ؟ قال :

ـ يا بنى خفقت برأسى خفقة ، فعن لى فارس على فرس فقال ، القوم يسيرون والمنايا تسير اليهم ، فعلمتَ أن أنفسنا نعيت الينا . فقال :

ـ يا أبت ، لا أراك الله سوءا ، ألسنا على الحق ؟ قال :

ـ بلى والذى يرجع اليه العباد . قال :

ـ اذن لا نبالى أن نموت محقين . فقال له :

ـ جزاك الله من ولد ، خير ما جزى ولدا عن والده .

فلما أصبح الصباح ، نزل فصلى ثم عجل الركوب ، فأخذ يتياسر بأصحابه يريد أن يفرقهم ، فأتى الحر فرده وأصحابه ، فجعل اذا ردهم نحو الكوفة ردا شديدا امتنعوا عليه وارتفعوا . فلم يزالوا يتياسرون حتى انتهوا الى « نينوى » ، فلما نزلوا ، اذا راكب مقبل من الكوفة فوقفوا ينتظرونه ، فسلم على الحر ولم يسلم على الحسين وأصحابه ، ودفع الى الحر بكتاب من ابن زياد ـ عليه اللعنة ـ يقول فيه :

ـ أما بعد ، فجعجع[1] بالحسين حين يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى ، فلا تنزله الا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء ، وقد أمرت رسولى أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتينى بانفاذ أمرى والسلام .

فلما قرأ الكتاب ، قال لهم الحر :

ـ هذا كتاب الأمير يأمرنى أن أجعجع بكم فى المكان الذى يأتينى فيه كتابه ، وقد أمر رسوله أن لا يفارقنى حتى أنفذ رأيه وأمره .

وأخذهم الحر بالنزول على غير ماء ولا فى قرية ، فقالوا :

---

(١) أى ضيق عليه المكان .

ـ دعنا ننزل فى نينوى أو الغاضرية أو شفية • فقال :

ـ لا أستطيع ، هذا الرجل قد بعث عينا على •

فقال زهير بن القين للحسين :

ـ انه لا يكون والله بعد ما ترون الا ما هو أشد منه يا ابن رسول الله ، وان قتال هؤلاء الساعة أهون علينا من قتال من يأتينا من بعدهم ، فلعمرى ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به • فقال الحسين :

ـ ما كنت لأبدأهم بالقتال • فقال له زهير :

ـ سر بنا الى هذه القرية حتى ننزلهافانها حصينة ، وهى على شاطىء الفرات ، فان منعونا قاتلناهم ، فقتالهم أهون علينا من قتال من يجىء بعدهم • فقال الحسين •

ـ ما هى ؟ قال :

ـ العقر • قال :

ـ اللهم انى أعوذ بك من العقر •

ثم نزل ، وكان ذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة احدى وستين من الهجرة ، فلما كان الغد ، قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف مقاتل ، بعد أن كان ابن أخته حمزة ابن المغيرة قد نصحه قائلا :

ـ أنشدك الله يا خالى أن لا تسير الى الحسين فتأثم وتقطع رحمك ، فو الله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك، خير من أن تلقى الله بدم الحسين • فقال :

ـ أفعل •

وبات ليلته مفكرا فى أمره ، وفى وعد ابن زياد له بامارة الرى ، فسمع وهو يقول :

فو الله ما أدرى وانى لحائر أفكر فى أمرى على خطرين
أأترك ملك الرى والرى رغبتى أم ارجع مذموما بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها
حجاب وملك الرى قرة عينى

ثم استقر رأيه ، فباع آخرته بدنياه حين غلبت عليه شهوته ونفسه أن يولى ملك الرى ، فسار بجيشه حتى نزل حيث يقف الامام الحسين وصحبه ، وبعث اليه رسولا يسأله عن سبب وقوفه بهذا المكان ومجيئه اليــه ، فقــال الامام الحسين رضى الله تعالى عنه :

ــ كتب الى أهل مصركم هذا ، أن أقدم عليهم ، فأما اذا كرهونى ، فانى أنصرف عنهم .

فكتب عمر بن سعد بذلك الى اللعين ابن زياد ليقف على رأيه ، فلما قرأ الكتاب ، قال :

آلآن اذ عــلقت مخالبنــــا بــه   يرجو النجــاة ولات حــين مناص

ثم كتب الى عمر بن سعد يأمره أن يعرض على الحسين بيعة يزيد ، والا يمنعه ومن معه الماء . ولذلك أرسل عمــر ، ابن الحجــاج على خمسمائة فارس نزلوا على المشرعة[1] ، وحالوا بين الحســين وصحبه وبين الماء ، وكان ذلك قبل استشهاد الامام أبى عبد الله الحســين رضى الله تعالى عنه بثلاثة أيام .

وقد نادى عبد الله بن أبى الحصين الأزدى ، قائلا :

ــ يا حسين أما تنظر الى الماء كأنه كبد السماء ، فوالله لا تذوق منه قطرة حتى تموت عطشا . فقال الحسين :

ــ اللهم اقتله عطشا ، ولا تغفر له أبدا .

وقد استجاب الله تعالى لدعوة الامام الحسين رضى الله تعالى عنه فى الدنيا ، فمرض الرجل فيما بعد ، فكان يشرب الماء من القلة فيقىء ، ثم يعود فيشرب حتى يتغرغر ثم يقىء ، ثم يشرب فما يروى ، فمــا زال كذلك حتى مات .

اشتد العطش على الامام الحسين وأصحابه ، فأمر أخاه العباس بن على ، فسار فى عشرين رجلا يحملون القرب وثلاثين فارسا ، فدنوا من الماء وقاتلوا عليه وملئوا القرب وعادوا بها الى معسكرهم .

وقد حاول الامام الحسين أن يقنع عمر بن سعد بأن يترك كل منهما معسكره ، ويخرجا الى يزيد بن معاوية فى دمشق ، فقال عمر :

---

(١) الطريق المؤدى الى الماء .

ـ أخشى أن تهدم دارى • قال الحسين :

ـ أبنيها لك خيرا منها • قال عمر :

ـ تؤخذ ضياعى • قال :

ـ أعطيك خيرا منها من مالى بالحجاز •

كره عمر بن سعد ذلك ، ولذلك عرض عليه الامام الحسين أن يختار واحدة من ثلاث ، اما أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه ، واما أن يأخذوه الى يزيد ليرى رأيه ، وأما أن يسيروا الى أى ثغر من ثغـور المسلمين فيكون رجلا من أهل هذا الثغر له ما لهم من العطاء وعليه ما عليهم من الجهاد •

فكتب عمر بن سعد الى ابن زياد يقول :

ـ أما بعد ، فان الله أطفى الثائرة ، وجمع الكلمة ، وقد أعطانى الحسين أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه ، أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا ، أو أن يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده ، وفى هذا لكم رضا وللامة صلاح •

والواضح أن عمر بن سعد ، قد تجوز فى نقل كلام الامام الحسين عامدا لغرض يأمله ، هو أن يلقى عن عاتقه عبء قتال الحسين وصحبه ، وما يتبع ذلك من وخز الضمير وسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وذلك اذا سمحوا له بأن يسير الامام الحسين الى يزيد بن معاوية •

وربما يكون أعوان الأمويين تعمدوا نشر هذه الاشاعة التى هى من تدبير عمر بن سعد ، والتى تجوز فيها فقال ان الامام الحسين قبل أن يضع يده فى يد يزيد،ليلزموا أصحاب الحسين ببيعة يزيد بعد التخلص من الحسين وبذلك تدحض حجتهم فى مناوأة حكم الأمويين •

ويدل على ذلك أن عقبة بن سمعان وهو من الذين رافقوا الامام الحسين فى خروجه الى العراق يقول ، « صحبت الحسين من المدينة الى مكة ، ومن مكة الى العراق ، ولم أفارقه حتى قتل ، وسمعت جميع مخاطباته للناس الى يوم مقتله ، فوالله ما أعطاهم ما يتذاكر به الناس من أنه يضع يده فى يد يزيد ، ولا أن يسيروه الى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنه قال دعونى أرجع الى المكان الذى أقبلت منه ، أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر الى ما يصير اليه أمر الناس ، فلم يفعـلوا » •

ولقد كان اللعين ابن زياد على استعداد لقبول ما جاء فى كتاب عمر بن سعد ، اذ قال :

ـ هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه ، نعم قد قبلت .

لولا ذلك الرجل اللعين شمر بن ذى الجوشن ، الذى كان فى حضرته وقتئذ والذى قال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ؟ والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ، ليكونن أولى بالقوة والعزة ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك ، والله لقد بلغنى أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين العسكرين . فقال ابن زياد :

ـ نعم ما رأيت ، اخرج بهذا الكتاب الى عمر ، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمى ، فان فعلوا ، فليبعث بهم الى سلما ، وان أبوا فليقاتلهم ، وان فعل فاسمع له وأطع ، وان أبى فأنت الأمير عليه وعلى الناس ، واضرب عنقه وابعث الى برأسه .

وخرج شمر بكتاب ابن زياد الى عمر بن سعد ، وفيه يقول :

ـ أما بعد ، فانى لم أبعثك الى الحسين لتكف عنه ، ولا لتمنيه . ولا لتطوله ، ولا لتقعد له عندى شافعا ، انظر فان نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا ، فابعث بهم الى سلما ، وان أبوا فارجف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فانهم لذلك مستحقون ، فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره ، فانه عاق مشاق قاطع ظلوم ، فان أنت مضيت لأمرنا ، جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر وبين العسكر ، والسلام .

أخذ شمر بن ذى الجوشن ـ عليه اللعنة ـ كتاب ابن زياد الى عمر ابن سعد ، فلما قرأه قال :

ـ مالك ويلك ، قبح الله ما جئت به ، والله انى لأظنك ثنيته أن يقبل ما كنت كتبت اليه به ، فأفسدت علينا أمرا كنا رجونا أن يصلح ، والله لا يستسلم الحسين أبدا ، والله ان نفس أبيه لبين جنبيه .

فقال له شمر :

ـ ما أنت صانع ؟ قال :

ـ أتولى ذلك .

وقد جاء شمر ، فدعا العباس بن علي واخوته فخرجوا اليه ، فقال :

ـ أنتم يا بنى أختى آمنون . فقالوا له :

ـ لعنك الله ولعن أمانك ، لئن كنت خالنا أتؤمننا وابن رسول الله لا أمان له ؟

وركب عمر بن سعد قائد جيش النفاق والناس معه بعد العصر ، والامام الحسين جالس أمام مخيمه محتبيا سيفه ، فلما سمعت السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ضجة الركب ، أقبلت لترى الأمر بعينيها ، فوجدت أخاها الامام الحسين رضى الله تعالى عنه قد خفق برأسه على ركبته ، فدنت منه وأيقظته ، فرفع رأسه فقال :

ـ انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال : « انك تروح الينا » . فصاحت :

ـ يا ويلتاه . قال :

ـ ليس لك الويل يا أخية ، أسكتى رحمك الله .

ولما دنا ركب عمر بن سعد ، بعث اليهم الامام الحسين أخاه العباس ابن على رضى الله تعالى عنهم جميعا ليسألهم ما لهم وما بدا لهم وعما جاء بهم ؟ فقالوا :

ـ جاءنا أمر الأمير بكذا وكذا . قال لهم العباس :

ـ فلا تعجلوا حتى أرجع الى أبى عبد الله ، فأعرض عليه ما ذكرتم. فوقفوا ، ولما عرض العباس الأمر على الامام الحسين قال له :

ـ ارجع اليهم ، فان استطعت أن تؤخرهم الى غدوة ، لعلنا نصلى لربنا هذه الليلة وندعوه ونستغفره ، فهو يعلم أنى كنت أحب الصلاة له وتلاوة كتابه وكثرة الدعاء والاستغفار .

فرجع اليهم العباس وقال لهم :

— انصرفوا عنا العشية حتى ننظر فى هذا الأمر ، فاذا أصبحنا التقينا ان شاء الله ، فاما رضيناه واما رددناه . فقال عمر بن سعد :

— ما ترى يا شمر ؟ فرد عله هذا الخبيث اللعين قائلا :

— أنت الأمير فأقبل على الناس . قال عمر متسائلا :

— ما ترون ؟ فقال له عمرو بن الحجاج الزبيدى :

— سبحان الله ، والله لو كان من الديلم ثم سألكم هذه الأسئلة ، لكان ينبغى أن تجيبوهم .

وقال قيس بن الاشعب بن قيس :

— أجبهم ،لعمرى ليصبحنك بالقتال غدوة . فقال :

— لو أعلم أنهم يفعلون ، ما أخرتهم العشية .

عاد العباس الى معسكره ، فجمع الامام الحسين رضى الله تعالى عنه، أصحابه فقال :

« أثنى على الله الثناء ، وأحمده على السراء والضراء ، اللهم انى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة ، وعلمتنا القرآن ، وفقهتنا فى الدين ، ولم تجعلنا من المشركين ، فاجعلنا لك من الشاكرين . أما بعد ، فانى لا أعلم أصحابا أوفى ولا أخير من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا عنى خيرا ، ألا وانى لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، وانى قد أذنت لكم جميعا ، فانطلقوا فى حل ليس عليكم منى ذمام ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملا ، وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا خيرا ، ثم تفرقوا فى البلاد فى سوادكم[1] ومدائنكم حتى يفرج الله ، فان القوم يطلبوننى ، ولو أصابونى ، لهوا[2] عن طلب غيرى » .

فقال له اخوته وأبناؤه وأبناء اخوته وأبناء عبد الله بن جعفر :

— لم نفعل هذا ؟ ألنبقى بعدك ، لا أرانا الله ذلك أبدا . فقال الحسين

— يا بنى عقيل ، حسبكم من القتل مسلم ، اذهبوا فقد أذنت لكم . قالوا :

---

(١) الأخضر من الأرض ، اى أرضكم الزراعية .

(٢) غفلوا .

ــ وما نقول للناس ؟ نقول تركنا شيخنا وسيدنا وبنى عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بسيف ولا ندرى ما صنعوا ، لا والله لا نفعل ، ولكنا نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ، ونقاتل معك حتى نرد موردك ، فقبح الله العيش بعدك .

وقام اليه مسلم بن عوسجة الأسدى فقال :

ــ أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله فى أداء حقنا ، أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه بيدى ، والله لو لم يكن معى سلاحى ، لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت .

وتكلم أصحابه بنحو هذا ، وسمعت العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، أخاها الامام الحسين فى تلك العشية وهو فى خباء له يعالج سيفه ويقول :

يا دهر أف لك من خليل كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب أو طالب قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الامر الى الجليل وكل حى سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثا ، فلما سمعته أخته العقيلة ، وهى سيدة ، ومن شأن النساء الرقة والجزع ، لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حاسرة الرأس ، حتى انتهت اليه وقالت :

ــ يا أخى هذا كلام من أيقن بالقتل . فقال :
ــ نعم يا أختاه . فقالت :

ــ « واثكلاه ، واحزناه ، ليت الموت أعدمنى الحياة ، يا حسيناه ، يا سيداه ، يا بقية أهل بيتاه ، استقتلت ويئست من الحياة ، اليوم مات جدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اليوم ماتت أمى فاطمة وأبى على وأخى الحسن ، يا خليفة الماضى وثمال[1] الباقى » .

فنظر اليها الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، وقال لها :

ــ « يا أخية ، لا يذهبن بحلمك الشيطان ، يا أخية تعزى بعزاء الله ، واعلمى أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وكل شىء

---

(١) ثمال القوم ، غياثهم الذى يقوم بأمرهم .

هالك الا وجه الله الذى خلق الخلق بقدرته ، ويبعث الخلق ويعيـــدهم ، وهو فرد وحده ، جدى خير منى ، وأبى خير منى ، وأمى خير منى ، وأخى خير منى ، ولى ولكم ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، ثم قال : لو ترك القطا [1] ليلا لنام » • فقالت العقيلة السيدة زينب :

ـــ « يا ويلتاه ، أفتغتصب نفسك اغتصابا ، فـــذاك أقرح لقلبى ، وأشد على نفسى » •

وفى رواية أنها قالت : « أخى الحسين ، يا قرة العين ، ويا رمزالبطولة والجهاد ، ويا خيرة من انتقى ، يا أيها الأمل المدخر ، يا أيها الحبيب الذى لم يبق غيره ، ابق لى ، لا تموتن ، لا تقطعن كبدى ، لا تنزعن فؤادى ، لا تحرقن حشاشتى باللظى » •

وبكت وبكت معها سائر النساء ، وخرت مغشيا عليها ، فصب المـــاء على وجهها الى أن فاقت من غشيتها ، فقال لها :

ـــ « يا أخية ، انى أقسمت عليك فأبرى قسمى ، لا تشقى على جيبا ، و لاتخمشى على وجها ، ولا تدعى على بالويل والثبور ، اذا أنا هلكت »•

فردت عليه قائلة :

ـــ لأهلكن دونك يا عترة النبى ، ويا زهرة البيت الكريم

ثم خرج الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، الى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بيوتهم من بعض ، وأن يدخلوا الأطناب [2] بعضها فى بعض ، وأن يكونوا بين البيوت فيستقبلوا القوم من وجه واحد ، والبيوت من ورائهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم قد حفت بهم الا الوجه الذى يأتيهم منـــه عـــــدوهم •

ثم رجع رضى الله تعالى عنه الى مكانه يصلى ويستغفر ويتضرع ، وقام أصحابه كذلك يصلون ويدعون ويستغفرون • ومن كلام مولانا الامام الحسين فى الحال التى كان عليها قوله :

---

(١) نوع من الحمام •
(٢) الحبال تشد بها الخيام •

ـ « قد نزل من الامر ما ترون ، وان الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمرت حتى لم يبق منهــا الا كصبابة الاناء ، والاخسيس عسيس كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به ، والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغب المؤمن فى لقاء الله عز وجل ، وانى لا أرى الموت الا سعادة ، ولا أرى الحياة مع الظالمين الا برما[1] » .

---

(1) ضجرا .

معركة كربلاء أو معركة الطف

كانت ليلة ليلاء ، أمضاها المؤمنون من أهل البيت وأصحاب الحسين رضى الله تعالى عنهم جميعا مسهدين ، يحدقون فى شبح الموت الذى كان جاثما لهم بالمرصاد ، يتربص بهم مطلع النهار ، والعقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، ترسل عينيها فى جمود شارد الى الظلام المخيم على الصحراء ، فاذا ارتد اليها وعيها ، قامت فطافت بمضاجع بنيها واخوتها تتزود لفراق طويل •

وفى الجانب الآخر ، حيث يوجد جيش النفاق ويقف متربصا بالمؤمنين الصادقين ، قام قائدهم عمر بن سعد فصلى الغداة يوم عاشوراء ، وخرج فيمن معه من الناس •

أما الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، فقد عبأ أصحابه وصلى بهم كذلك صلاة الغداة ، وكان معه اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، فجعل زهير بن القين فى ميمنة أصحابه ، وحبيب بن مظاهر فى ميسرتهم ، وأعطى رايته أخاه العباس ، ونفذوا الخطة التى رسمها لهم — من قبل — الامام الحسين ، فجعلوا البيوت فى ظهورهم ، وأوقدوا فى مكان منخفض وراءهم الحطب والقصب ليؤمنوا ظهورهم •

وأما عمر بن سعد ، فقد جعل على ربع[1] أهل الكوفة ، عبد الله بن زهير الأزدى ، وعلى ربع ربيعة وكندة ، قيس بن الاشعث بن قيس ، وعلى ربع مذحج وأسد ، عبد الرحمن بن أبى سبره الجعفى ، وعلى ربع تميم وهمدان ، الحر بن يزيد • وقد شهد هؤلاء كلهم استشهاد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، الا الحر بن يزيد الذى ثاب الى رشده ورجع عن غيه ، فانه انحاز الى جانب الامام الحسين قلبا وقالبا ، فارا بدينه من دنياه ، وقتل فيمن قتل معه ، (وسيأتى ذكر ذلك تفصيلا فيما بعد) • وجعل عمر بن سعد على ميمنته عمرو بن الحجاج الزبيدى ،

(١) الربع محلة القوم ومنزلهم ، وقد أطلق على القوم مجازا •

وعلى ميسرته ، شمر بن ذى الجوشن ، وجعل على الخيل ، عروة بن قيس الأحمسى ، وعلى الرجالة ، شيث بن ربعى التميمى وأعطى الراية دريدا مولاه .

ثم بدأت المعركة وتزاحم الناس ، فركب الحسين دابته ، ودعا بمصحف فوضعه أمامه ، واقتتل أصحابه بين يديه ، فرفع يديه وقال :

— « اللهم أنت ثقتى فى كل كرب ، ورجائى فى كل شدة ، وأنت لى فى كل أمر نزل بى ثقة وعدة ، كم من هم يضعف فيه الفؤاد ، وتقل فيه الحيلة ، ويخذل فيه الصديق ، ويشمت به العدو ، أنزلته بى وشكوته اليك رغبة اليك عمن سواك ، ففرجته وكشفته وكفيتنيه ، فأنت ولى كل نعمة ، وصاحب كل حسنة ، ومنتهى كل رغبة » .

ثم أمر الامام الحسين أصحابه باشعال النار فى القصب والحطب ، فلما رأى الفاجر شمر بن ذى الجوشن النار ، نادى على الامام الحسين رضى الله تعالى عنه قائلا :

— تعجلت النار فى الدنيا قبل القيامة .

وقد عرف الامام الحسين صوته ، فرد عليه قائلا :

— أنت أولى بها صليا .

ثم نادى من فوق دابته بصوت يسمعه كل الناس ، فقال :

— « تبا لكم أيها الجماعة وترحا ، أحين استصرختمونا ولهين فاصرخناكم موجفين ، سللتم علينا سيفا لنا فى ايمانكم ، وحششتم علينا نارا أججناها على عدوكم ، فأصبحتم البا[1] لأوليائكم ويدا عليهم لأعدائكم لغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصبح لكم فيهم ، فهلا — لكم الويلات — تركتمونا والسيف مشيم[2] والجأش طامن[3] والرأى لما يستحصف ، ولكن أسرعتم اليها كطيرة الدبا[4] وتداعيتم اليها كتهافت الفراش ، فبعدا وسحقا لطواغيت[5] الأمة ونبذة الكتاب وشذاذ الأحزاب ، الذين

---

(١) جمعا .

(٢) أى فى غمده وغلافه .

(٣) مطمئن .

(٤) الجراد يتحرك قبل أن تنبت اجنحته .

(٥) شياطين .

جعلوا القرآن عضين ، ولبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ، وهيهات منا الذلة ، يأبى الله ذاك لنا ورسوله والمؤمنون ، وحجور(1) طابت وظهور طهرت ونفوس أبية وأنوف حمية ، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام .

أيها الناس ، اسمعوا قولى ولا تعجلونى حتى أعظكم بما يجب لكم على ، وحتى أعتذر اليكم من مقدمى عليكم ، فان قبلتم عذرى ، وصدقتم قولى ، وأنصفتمونى ، كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم على سبيل ، وان لم تقبلوا منى العذر ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون .

ثم قال : ألا وانى زاحف بهذه الاسرة مع قلة العدد وكثرة العـدو وخذلة الناصر ، ثم لا تلبثون الا كريث ما يركب الفـرس حتى تدور بكم دور الرحى ، وتقلقون قلق المحور ، عهد عهده الى أبى عن جدى ، ان وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

فلما سمع أخواته وبناته قوله ، بكين وصحن وارتفعت أصواتهن ، فأرسل اليهن أخاه العباس وابنه عليا ليسكتاهن ، وقال :

ـ « لعمرى ليكثرن بكاؤهن » .

فلما سكتن ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على جده محمد صلى الله عليه وسلم والملائكة والنبيين ، ثم قال :

ـ « أما بعد ، فانسبونى فانظـروا من أنا ، ثم راجعـوا أنفسكم فعاتبوها وانظروا هل يصلح ويحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى ؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه ، وابن أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم والمصدق لرسوله ؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبى ؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار فى الجنة عمى ؟ أو لم يبلغكم قول مستفيض ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لى ولأخى : « أنتما سيدا شـباب أهل الجنة وقرة عين أهل السنة » ؟ فان صدقتمونى بما أقول فهو الحق ، والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ، وان كذبتمونى فان فيكم من ان سـألتموه عن ذلك أخبركم ، سلوا جابر بن عبـد الله الأنصارى ، أو أبا سعيد ، أو سهل بن سعد الساعدى ، أو زيد بن أرقم ،

---

(٥) الحجر : الكنف والحماية .

او انس بن مالك ، يخبروكم أنهم سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما فى هذا حاجز يحجزكم عن سفك دمى وانتهاك حرمتى ؟

فقال شمر بن ذى الجوشن وهو ممن يعبد الله على حرف وعليه اللعنة:

ـــ ان كان يدرى ما يقول ٠

فقال له حبيب بن مظاهر :

ـــ والله انى أراك تعبد الله على سبعين حرفا ، وان الله قد طبع على قلبك فلا تدرى ما تقول ٠

ثم استأنف الامام الحسين رضى الله تعالى عنه كلامه قائلا :

ـــ « فان كنتم فى شك مما أقول ، أو تشكون فى أنى ابن بنت نبيكم، فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبى غيرى منكم ولا من غيركم ، أخبرونى ، أتطلبونى بقتيل منكم قتلته ، أو بمال لكم استهلكته ، أو قصاص من جراحة ؟

ثم نادى رضى الله تعالى عنه فى أعيان هؤلاء القوم ـــ وعدد أسماءهم ـــ قائلا :

ـــ « ألم تكتبوا الى فى القدوم عليكم ؟ » قالوا :

ـــ لم نفعل ٠ قال :

ـــ بلى ، والله لقد فعلتم ٠ ثم قال :

ـــ « أيها الناس ، اذ كرهتمونى فدعونى أنصرف الى مأمنى من الأرض » ٠

فقال له قيس بن الأشعث :

ـــ أو لا تنزل على حكم ابن عمك ـــ يعنى ابن زياد ـــ فانك لن ترى الا ما تحب ٠ فقال الامام الحسين رضى الله تعالى عنه :

ـــ « أنت أخو أخيك ، أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم ابن عقيل ؟ لا والله ، لا أعطيهم بيدى اعطاء الذليل ، ولا أقر اقرار العبد[1] ، عباد الله ، انى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » ٠

---

(١) وفى رواية : « ولا افر فرار العبيد » ٠

ثم أناخ الامام الحسين راحلته بعد هذا الكلام ونزل عنها ، وخرج زهير بن القين على فرس له فى السلاح ، فقال :

ـ يا أهل الكوفة ، نذار لكم من عذاب الله نذار ، ان حقا على المسلم نصيحة المسلم ، ونحن حتى الآن اخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف ، وأنتم للنصيحة منا أهل ، فاذا وقع السيف انقطعت العصمة ، وكنا نحن أمة وأنتم أمة ، ان الله قد ابتلانا واياكم بذرية نبيه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم عاملون ، انا ندعوكم الى نصر الحسين وخذلان الطاغية ابن الطاغية ، عبيد الله ابن زياد ، فانكم لا تدركون منهما الا سوءا يسملان[1] أعينكم،ويقطعان أيديكم وأرجلكم ، ويمثلان بكم ، ويرفعانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أماثلكم وقراءكم ، أمثال حجر بن عدى وأصحابه ، وهانىء بن عروة وأشباهه . فسبه القوم وأثنوا على ابن زياد ، وقالوا :

ـ والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ، أو نبعث به وأصحابه الى الأمير عبيد الله بن زياد (عليه اللعنة) سلما . فقال لهم :

ـ يا عباد الله ، ان ولد فاطمة (رضوان الله تعالى عليها) ، أحق بالود والنصر من ابن سمية [2] ، فان كنتم لم تنصروهم ، فأعيذكم بالله أن تقتلوهم ، خلوا بين الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلعمرى أن يزيد بن معاوية ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين .

وهنا رماه اللعين شمر بن ذى الجوشن بسهم ، وقال :

ـ أسكت لقد أبرمتنا بكثرة كلامك ، فرد عليه زهير قائلا :

ـ أيا ابن البوال على عقبيه ، ما اياك أخاطب ، انما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين ، وأبشر بالخزى يوم القيامة والعذاب الأليم . فقال اللعين شمر :

ـ ان الله قاتلك وصاحبك عن ساعة . قال :

ـ أبالموت تخوفنى ؟ والله للموت معه أحب الى من الخلد معكم . ثم رفع صوته وقال :

---

(١) سمل عينه : فقأها بحديدة محماة .
(٢) هو عبد الله بن زياد (عليه اللعنة) .

ـ عباد الله لا يغرنكم من دينكم هذا الجلف الجاف ، فوالله لا تنال شفاعة محمد قوما أهرقوا دماء ذريته وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم وذب[1] عن حريمهم .

هذا مثل من شجاعة أصحاب الحسين رضى الله تعالى عنه ، وهذا هو زهير الذى قال من قبل للامام الحسين :

ـ والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة ، ويدفع الله بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك .

وقد أمره الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، أن يرجع ويكف عن مخاطبة هؤلاء القوم ، ولما زحف عمر بن سعد نحو الحسين ، أتاه الحر ابن يزيد فقال له :

ـ أصلحك الله ، أمقاتل أنت هذا الرجل ؟ قال له :

ـ أى والله ، قتالا أيسره أن تسقط الرءوس وتطيح الأيدى . قال :

ـ أفما لكم فى واحدة من الخصال التى عرض عليكم رضا ؟ فقال عمر :

ـ والله لو كان الأمر الى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك .

فأقبل الحر يدنو نحو الحسين رضى الله تعالى عنه قليلا قليلا ، وأخذته رعدة ، فقال له رجل من قومه يقال له المهاجر بن أوس :

ـ والله ان أمرك لمريب ، والله ما رأيت منك فى موقف قط ، مثل ما أراه الآن ، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك . فقال له :

ـ انى والله أخير نفسى بين الجنة والنار ، ولا أختار على الجنة شيئا ، ولو قطعت وحرقت .

ثم ضرب فرسه فلحق بالحسين رضى الله تعالى عنه ، فقال له .

ـ جعلنى الله فداك يا ابن رسول الله ، أنا صاحبك الذى حبستك عن الرجوع وسايرتك فى الطريق ، وجعجعت بك فى هذا المكان ، ووالله الذى

---

(١) حمى ودفع .

لا اله الا هو ، ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ، ولا يبلغون منك هذه المنزلة أبدا ، فقلت فى نفسى لا أبالى أن أطيع القوم فى بعض أمرهم ، ولا يرون أنى خرجت من طاعتهم ، وأما هم فيقبلون بعض ما تدعوهم اليه ، ووالله ما ظننت أنهم لا يقبلونها منك ، وانى قد جئتك تائبا — مما كان منى — الى ربى ، مواسيا لك بنفسى حتى أموت بين يديك ، أفترى ذلك توبة ؟ قال :

— نعم ، يتوب الله عليكم ويغفر لكم .

وفى رواية أنه قال : « اسأل الله أن يقبل توبتك ويغسل حوبتك[1] ، وأنت الحر فى الدنيا والآخرة .

وتقدم الحر بن يزيد أمام أصحابه ، ثم قال :

— أيها القوم ، ألا تقبلون من الحسين خصلة من هذه الخصال التى عرض عليكم فيعافيكم الله من حربه وقتاله ؟ فقال عمر بن سعد :

— لقد حرصت لو وجدت الى ذلك سبيلا . فقال الحر :

— يا أهل الكوفة ، لأمكم الهبل والعبر[2] ، أدعوتموه حتى اذا أتاكم أسلمتموه ، وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمسكتم بنفسه وأحطتم به ومنعتموه من التوجه فى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، فأصبح كالاسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرا ، ومنعتموه ومن معه من ماء الفرات الجارى ، يشرب اليهودى والنصرانى والمجوسى ، ويتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ، وها هو وأهله قد صرعهم العطش ، بئسما خلفتم محمدا صلى الله عليه وسلم فى ذريته ، لاسقاكم الله يوم الظمأ ان لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم فيه .

فرموه بالنبل ، فرجع حتى وقف أمام الحسين رضى الله تعالى عنه ، ثم قدم عمر بن سعد برايته ، وأخذ سهما فرمى به ، وقال :

— اشهدوا لى أنى أول رام .

فقال الامام الحسين رضى الله تعالى عنه :

---

(١) خطيئتك .

(٢) سخنة العين .

— اشتد غضب الله على اليهود اذ جعلوا له ولدا ، وعلى النصارى اذ جعلوه ثالث ثلاثة ، وعلى المجوس ، اذ عبدوا الشمس والقمر ، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم ، والله لا أجيبهم الى شيء مما يطلبون ، حتى ألقى الله تعالى وأنا مخضب بدمي مغلوب على أمرى .

***

دارت المعركة غير المتكافئة فى العدد والعدة ، وأقبل الرجال يتقاتلون بالرماح والنبل والسيوف ، الى أن خرج رجل يقال له ابن حوزة ، فقال:

— أفيكم الحسين ؟

فلم يجبه أحد ، فقالها ثلاثا ، فقالوا :

— نعم فما حاجتك ؟ قال :

— يا حسين أبشر بالنار . قال له :

— كذبت ، بل أقدم على رب رحيم وشفيع مطاع فمن أنت ؟ قال :

— ابن حوزة .

فرفع الحسين يديه فقال :

— اللهم حزه الى النار .

فغضب ابن حوزة هذا ، فأقحم فرسه فى نهر بينهما ، فتعلقت قدمه بالركاب وجالت به الفرس فسقط عنها ، فانقطعت فخذه وساقه وقدمه ، وبقى جنبه معلقا بالركاب ، يضرب كل حجر وشجر حتى مات .

وكان فيمن خرج مع هؤلاء القوم ، مشروق بن وائل الحضرمى ، يرجو أن يصيب رأس الحسين ، فيصيب به منزلة عند ابن زياد عليه اللعنة ، فلما رأى صنع الله تعالى بابن حوزة بدعاء الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، قال :

— لقد رأيت من أهل هذا البيت شيئا ، لا أقاتلهم أبدا .

***

قاتل أصحاب الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، قتالا شديدا وهم اثنان وثلاثون فارسا وأربعون راجلا ، ولكن ماذا تنفع الشجاعة وحدها مع الكثرة والقوة ، لقد كان أعوان يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد ، كما قال الكاتب الكبير المرحوم الاستاذ عباس محمود العقاد :

— « جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير ، وكانوا فى خلائقهم البدنية على المثال الذى يعهد فى هذه الطغمة من الناس ، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين ، أولئك الذين تمتلىء صدورهم بالحقد على أبناء آدم، ولاسيما من كان منهم على سواء الخلق وحسن الاحدوثة ، فاذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وان لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة ، فاذا انتفعوا بالاجر والغنيمة ، فذاك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود .

« وشر هؤلاء جميعا هم : شمر بن ذى الجوشن ، ومسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد ، ويلحق بزمرتهم على مثال قريب من مثالهم ، عمر ابن سعد .

« فشمر بن ذى الجوشن — الذى قتل مولانا الحسين ، فباء بغضب من الله — كان أبرص ، كريه المنظر ، قبيح الصورة ، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها عليا وابنيه — رضى الله عنهم جميعا — كأنه يتخذ الدين حجة للحقد ، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال .

« ومسلم بن عقبة ، مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ انسان ، وكان أعور ، أمغر[1] ، ثائر الرأس ، كأنما يقلع رجليه من وحل اذا مشى . وقد بلغ من ضراوته بالشر ، وهو شيخ فان مريض ، أنه أباح المدينة فى حرم النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ، واستعرض أهلها بالسيف جزرا ، كما يجزر القصاب الغنم ، حتى ساخت الاقدام فى الدم ، وقتل أبناء المهاجرين والانصار وذرية أهل بدر ، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين .

« أما عبيد الله بن زياد ، فكان متهم النسب فى قريش ، لان أباه زيادا كان مجهول الاب ، فكانوا يسمونه زياد ابن أبيه ، ثم ألحقه معاوية بأبيه أبى سفيان ، لان أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد ، أنه كان قد سكر بالطائف ليلة ، فالتمس بغيا ، فجاءوه بجارية تدعى سمية ، فقالت له بعد مولد زياد أنها حملت به فى تلك الليلة ، أما أم عبيد الله بن زياد ، فكانت جارية مجوسية تدعى مرجانة ، فكانوا يعيرونه بها » .

فليس عجيبا اذن ، وهؤلاء هم أمراء جيش النفاق ، أن يجد الامام

---

(١) أشقر .

الحسين وأهل بيته وأعوانهم — رضى الله تعالى عنهم جميعا — ماوجدوا من أهل الكوفة ، الذين يصورهم العقاد بقوله :

« وهكذا كان ليزيد أعوان اذا بلغ أحدهم حده فى معونته ، فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال ، بعكس أعوان الامام الحسين ، اذا بلغ أحدهم حده فى معونته ، فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح ، وهى اذن حرب جلادين وشهداء » .

لقد حرم هؤلاء الأنذال ، الامام الحسين وصحبه الماء ، الذى جعل الله تعالى منه كل شىء حى ، فارتفعت أصوات الاطفال والصغار بالبكاء طلبا للماء ، ولكن ماذا يجدى ذلك البكاء وتلك الاصوات الملهوفة مع قوم ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، فكانوا صما بكما عميا ، لا رحمة فى قلوبهم ، وفى عروقهم تجرى دماء الشر والقسوة والحقد ، متجردين من كل معنى للانسانية ، حتى أنهم رموا بسهم عبد الله بن الامام الحسين وهو طفل صغير يحمله والده بين يديه يبكى من شدة الظمأ ، وذلك عندما ناداهم مولانا الامام الحسين بقوله:

— « اتقوا الله فى الطفل ، ان لم تتقوا الله فينا » .

وها هو اللعين حصين بن نمير ، وقد رأى الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، يقترب من نهر الفرات ليروى ظمأه ، يرميه بسهم يصيبه فى فمه الشريف ، فينتزعه ويتلقى الدم المتدفق من فيه بيديه الكريمتين ، فيشخص الحسين ببصره الى السماء مناجيا السميع البصير جل شأنه ، ويقول فى ثبات وايمان راسخين :

— « ان تكن حبست عنا النصر من السماء ، فاجعل ذلك لما هو خير منه ، وانتقم لنا من القوم الظالمين » . وفى رواية أنه قال :

« اللهم انى أشكو اليك ما يصنع بابن بنت نبيك ، اللهم أحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحدا » .

وقد وصف الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد ، رباطة جأش الامام الحسين رضى الله تعالى عنه وشجاعته ، أمام تلك الشدة ، فيقول:

— « فكان الحسين — شبل على — فى شجاعته الروحية والبدنية معا غاية الغايات ، وكان مضرب المثل بين الرعيل الاول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء .

« ملك جأشه ، وكل شيء من حوله يوهن الجأش ، ويحل عقدة العزم، ويغرى بالدعة والمجاراة .

« ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر ، يجوعون ويظمأون ، ويتشبثون به ويبكون ، وملك جأشه روية وأناة ، ولم تملكه وثبة واثب الى الغضب ، أو هيجة مهتاج الى الوغى ، فكان قبل القتال، وفى حومة القتال ، قويا بصيرا ، ينفض الضعف عن عزائمه ، كما ينفض الاسد غبرات الحصباء عن لبده ، ولم يخامره الاسف قط فى ذلك الموقف المرهوب الا من أجل أحبائه وأعزائه ، الذين يراهم ويرونه ، ويسمع صيحتهم ويسمعونه ، فقال وهو ينظر الى الاخبية ومن فيها :

« لله در ابن عباس فيما أشار به على[1] » .

ثم اشتد القتال ، وتتابعت السهام ، وهاجمت الخيالة معسكر الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، وأحاطوا بهم من كل جانب ، رغم ما منى به جيش الامويين من كثرة الضحايا فى الرجال والخيل ، لانهم كانوا يقاتلون قوما مستميتين يحاربون عن عقيدة وايمان ، قوما يطلبون الموت ويتحرون مواقعه ، قوما يرجون الشهادة فى سبيل الله تعالى واعلاء كلمته .

وقد خرج على بن الحسين[2] رضى الله تعالى عنهما ، وكان من أحسن الناس وجها ، وله يومئذ أكثر من عشر سنين ، فاستأذن أباه فى القتال، فأذن له ونظر اليه وأرخى عبرته ، ثم قال :

— « اللهم اشهد انه قد برز اليهم غلام يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقا وخلقا ومنطقا » .

وجعل أهل بيت النبوة وأنصار الحسين يذودون عنه السهام المصوبة اليه ، ويحمونه بأنفسهم ، ويقاتلون بين يديه ، ومن بينهم ابنه على بن الحسين الذى كان يضرب بسيفه ويقول :

أنا على بن الحسين بن على نحن ورب البيت[3] أولى بالنبى
أضربهم بالسيف حتى يلتوى ضرب غلام هاشمى علوى

(١) كان ابن عباس قد أشار عليه بالبقاء فى مكة الى أن يطرد أهل الكوفة ، واليهم من قبل يزيد .

(٢) وهو أخ أكبر من زين العابدين على بن الحسين .

(٣) وفى رواية : « نحن وبيت الله . . . » .

ولا أزال اليــوم أحمى عن أبى   تالله لا يحكم فينــا ابن الــدعى

وظل على يقاتل ويقاتل ، حتى قتل جمعا كثيرا من عدوه ، ثم رجــع الى والده وقال :

ــ يا أبت العطش قتلنى ، وثقل الحديد قد أجهدنى .

فبكى الامام الحسين وقال :

ــ واغوثاه ، قاتل قليلا فما أسرع الملتقى بجدك محمد صلى الله عليه وسلم ويسقيك بكأسه الاوف .

ثم حمل عليه مرة بن منقذ العبدى فطعنه طعنة صرعته ، فقطعــه الناس بسيوفهم ، فقال الامام الحسين :

ــ « قتل الله قوما قتلوك يا بنى ، ما أجرأهم على الله وعلى انتهاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء » .

وأقبل الامام الحسين على جسد ابنه ومعه فتيانه ، فقال :

ــ « احملوا أخاكم » .

فحملوه حتى وضعوه فى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه ، فكان أول من قتل من آل بنى أبى طالب ، كما قتلت كذلك أمه ليلى بنت أبى مرة بن عروة بن مسعود الثقفية .

وتساقط الرجال من حول الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، الواحد تلو الآخر ، بعد أن دافعوا عنه دفاعا كبد العدو الكثير من القتلى ، حتى بقى الامام الحسين وحده يدافع عن نفسه ، فيخشاه الرجال ويهابون أن يهجموا عليه ، لشجاعته واقدامه وثباته وهيبته ، وكان يقول :

ــ « القتل أولى من ركوب العار ، والعار أولى من دخول النار ».

فجعل اللعين شمر بن ذى الجوشن يحرض عليه ، ولذلك حمــل الناس عليه من يمين وشمال ، فكان يحمل عليهم بدوره فيتفرقون عنه،وينكشفون انكشاف الغنم اذا شد فيها الذئب .

وبينما هو كذلك ، اذ خرجت العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وهى تقول :

— ليت السماء انطبقت على الارض •

وكان عمر بن سعد قائد جيش النفاق قريبا منها ، فقالت :

— يا عمر ، أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر اليه ؟ •

فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته وصرف وجهه عنها •

ظل الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، يقاتل ببسالة وهو راجل ، يتقى الرمية ويشد على الخيل وهو يقول :

— « أعلى قتلى تجتمعون ؟ أما والله لا تقتلون بعدى عبدا من عباد الله ، يكون أسخط عليكم لقتله منى ، وأيم الله انى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى منكم من حيث لا تشعرون ، أما والله لو قتلتمونى لألقى الله بأسكم بينكم ، وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب الاليم » •

مكث الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، طويلا من النهار دون أن يجرؤ عليه أحد ، وكان كل واحد يتقى بنفسه ويحب أن يكفيه الآخر عن قتله الى أن نادى فيهم اللعين شمر بن ذى الجوشن قائلا :

— ويحكم ماذا تنتظرون الرجل ؟ أقتلوه ثكلتكم أمهاتكم •

فحملوا عليه ، رضى الله تعالى عنه ، من كل جانب فضربوه وطعنوه، ثم حمل عليه وهو فى تلك الحال ، اللعين سنان بن أنس النخعى ليقضى عليه ، ثم قال لخولى بن يزيد الاصبحى :

— احتز رأسه •

فضعف هذا وأرعد ، فقال له سنان :

— فت الله عضدك •

ونزل اليه فذبحه واحتز رأسه وهو يقول :

— أمشى اليك وأعلم أنك سيد القوم وأنك خير الناس أبا وأما •

ثم هجم القوم يسلبون وينهبون رحل الحسين وأصحابه ومتاعهم ، كما مالوا على الحلل والابل فانتهبوها ، كما نهبوا متاع النساء وحليهن

وكذلك أثوابهن ، فكانوا يسلبون المرأة قناعها من على رأسها ، أو خاتمها من أصبعها ، أو قرطها من أذنها ، وحجلها من رجلها ٠.

وقد وجد بجسد الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، ثلاث وثلاثون طعنه وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ٠

وقد أبت خسة القـــوم ودناءتهم التى جبلوا عليها ، الا أن يمثـــلوا بالجثمان الطاهر أشنع تمثيل ٠ فهم ، بعد أن حزوا رأسه الشريف ، ندبوا عشرة من فرسانهم غـــلاظ القلوب فوطئوا جثتـــه جيئة وذهابا بسنابك الخيول ، كما أمرهم بذلك ، اللعين شمر بن ذى الجوشن ، تنفيذا لأمر أميره عبيد الله بن زياد ، دون مراعاة لحرمة ذلك الشهيد الكريم أو لكرامة بيته المجيد ، أو لشـــعور من بقى من نساء أسرته الشريفـــة ، وأطفـــالها ٠

ولم يكتف الأنذال بما فعلوا ، فى جثمـــان الامام الحســـين ، بل قاموا بقطع رءوس الشهداء من أهل البيت النبوى وأنصارهم ، ورفعوها فوق أسنة حرابهم ، ولم يعتبروا بحرمة الموت فيواروا تلك الجثث التراب أو يصلوا عليها ، كما فعلوا بالملعونين من قتلاهم ٠

وكان آخر من قتل من أصحاب الامام أبى عبد الله الحسين ، سويد ابن المطاع ، وذلك أنه كان قد أصيب ووقع بين القتلى مثخنا بالجراحات٠ فلما سمع القوم يهتفون بقتل الحسين ٠ وثب من رقدته بسكين ، حيث كان سيفه قد أخذ منه ، وأخذ يقاتل بتلك السكين ساعة الى أن قضى عليه عروة بن بسطان الثعلبى وزيد بن رقاد الجبنى(١) ٠

ثم تنبه القوم الفجر ، الى وجود زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وكان صبيا مريضا ، فأراد اللعين شمر بن ذى الجوشن أن يقتله ٠ فقال له حميد بن مسلم :

ــ سبحان الله ، أتقتل الصبيان ؟

فجاء عمر بن سعد وقال :

ــ لا يدخلن بيت هذه النسوة أحد ، ولا يتعرض لهذا الغلام المريض أحد ، ومن أخذ من متاعهم شيئا فليرده ٠

---

(١) فى الطبرى : الجنبى بتقديم النون على الباء ٠

ولكنهم صموا آذانهم عن ذلك ، فلم يرد أحد شيئا أخذه .

وقال الناس للأثيم سنان بن أنس النخعى ، قتلت الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتلت أعظم العرب خطرا ، فأت أمراءك فاطلب ثوابك منهم ، فلو أعطوك بيوت أموالهم كلها فى قتله لكان قليلا .

فأقبل المجرم الاثيم على فرسه ، وكان به لوثة فى عقله وهو ينشد بأعلى صوته :

أوقر[1] ركابى فضة وذهبا انى قتلت السيد المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا وخيرهم اذ ينسبون نسبا

فقال عمر بن سعد :

ــ أشهد أنك مجنون ، أدخلوه على .

فلما دخل حذفه بقضيب وقال :

ــ يا مجنون أتتكلم بهذا الكلام ؟ والله لو سمعك ابن زياد لضرب عنقك .

وقد اختلف الرواة فيمن حمل رأس الامام الحسين رضى الله تعالى عنه الى ابن زياد ، فقيل أنه أرسل مع خولى بن يزيد وحميد بن مسلم الأزدى ، وقيل بل الذى حمل الرأس الشريف هو شمر بن ذى الجوشن وقيس بن الاشعث وعمرو بن الحجاج وعروة بن قيس .

ويروى أن خولى بن يزيد ، لما وصل الكوفة بالرأس الشريف ، وجد قصر الأمير مغلقا ، فعاد الى بيته ووضع الرأس تحت أجانة فى منزله ودخل فراشه ، وقال لامرأته :

ــ جئتك بغنى الدهر ، فهذا رأس الحسين معك فى الدار . فقالت :

ــ ويلك ، جاء الناس بالذهب والفضة ، وجئت برأس ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله لا يجمع رأسى ورأسك بيت أبدا .

وخرجت من الدار . ويروى أنها قالت :

ــ فما زلت أنظر الى نور يسطع مثل العمود من السماء الى الأجانة ، ورأيت طيرا أبيض يرفرف حولها .

---

(1) أثقله وزنا .

موكب الأسارى والسبايا

اقتحم السفلة من جند ابن زياد ، وما أكثرهم ، فسطاط نساء أهل البيت وصاحباتهن ، وأعملن فيه سلبا ونهبا وحرقا ، غير مبالين بأمر عمر بن سعد الذى أمرهم به من قبل ، وغير مكترثين بحرمة الموت الذى يحيط بالنساء والأطفال من كل جانب ، فأظهروا من القسوة والغلظة فى معاملتهن ما لم يعرف من قبل فى مثل هذه المواقف المؤلمة .

وبعد أن قضوا أربهم ، وأتموا سلبهم ونهبهم ، وأحرقوا الخيام بما بقى فيها من متاع لم يستطيعوا حمله معهم ، ساقوا أسراهم وسباياهم من الأطفال والنساء ، وكان فيهم ولدان للامام الحسن بن على رضى الله تعالى عنهم جميعا ، استصغر الأعداء شأنهما وسنهما فتركوهما دون أن يقتلوهما ، كما كان فيهم كذلك زين العابدين على ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وكان مريضا فى حجر عمته العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها . وقد أراد الأعداء قتله ، لولا أن أنقذته عمته بعد أن عرضت نفسها للقتل دونه .

وكان من نعمة الله تعالى على الأمة المحمدية ، أن بقى زين العابدين على بن الحسين حيا ، اذ حفظ الله تعالى به ذرية الامام الحسين ، وهم من ذرية جده النبى الأمين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كما سيق فى هذا الركب من نساء البيت النبوى الكريم ، العقيلة الطاهرة السيدة زينب وأختها أم كلثوم وابنتا الامام الحسين فاطمة وسكينة وبقية من نساء بنى هاشم رضى الله تعالى عنهن جميعا .

حملت السيدة العقيلة زينب ومن معها على أقتاب [1] الجمال بغير غطاء ، فمرت على مصارع الشهداء ، ووقعت أبصار النساء والأطفال على أبشع منظر ، فكان لذلك أثره العميق فى النفوس ، اذ كانت الأرض مغطاة بجثث الشهداء الأبرار ، محزوزة الرءوس ، وقد ارتوت رمال الصحراء من دمائهم ، وتسفى عليها الرياح ، وتطير فى الفضاء القريب

(١) ظهور .

منهم الطيور الجارحة كأنها تريد أن تنقض على لقمة سائغة ووليمة حافلة ، فضلا عن الوحوش الكاسرة التى كانت تنتظر هبوط الليل لتخرج من جحورها لتشترك بنصيب فى هذه الوليمة .

كان لهذا كله أثره البالغ على العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، فنفذ صبرها ولم تتمالك نفسها أمام ما ترى من هول وبشاعة ، فنادت بصوت حزين وقلب يتفتت حسرة وألما :

ــ « يا محمداه ، صلى عليك مليك السماء ، هذا حسين بالعراء ، مقطع الاعضاء ، وبناتك سبايا ، الى الله المشتكى ، والى محمد المصطفى ، والى على المرتضى ، والى فاطمة الزهراء ، والى حمزة سيد الشهداء .

« يا محمداه ، هذا حسين بالعراء تسفى عليه الصبا ، قتيل أولاد البغايا ، واحزناه ، واكرباه عليك يا أبا عبد الله ، اليوم مات جدى رسول الله ، يا أصحاب محمداه ، هؤلاء ذرية المصطفى يساقون سوق السبايا ، وهذا حسين محزوز الرأس من القفا ، مسلوب العمامة والرداء ، بأبى من أضحى معسكره يوم الاثنين نهبا ، بأبى من فسطاطه مقطع العرى ، بأبى من لا غائب فيرجى ، ولا جريح فيداوى ، بأبى من نفسى له الفدا ، بأبى المهموم حتى قضى ، بأبى من جده محمد المصطفى ، بأبى خديجة الكبرى ، بأبى على المرتضى ، بأبى فاطمة الزهراء ، بأبى من ردت عليه الشمس حتى صلى » .

ولقد صورت العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، بكلامها الفصيح وبلاغتها الفائقة ، الموقف الذى مر عليه الركب ، أبلغ تصوير . ولذلك أبكت ألفاظها التى صدرت من قلب جريح كسير ، كل عدو وصديق ، وكان لكلامها هذا ، أعظم الأثر فى الاحساس بفداحة ما أقدم عليه القوم من فعلة شنعاء ، والشعور بعظم الخسارة التى لا تعوض .

ولما أقبل الركب على الكوفة ، تتقدمه السبايا والرءوس المقطعة ، فى نحو أربعين جملا ، كان زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، على بعير بغير غطاء ، وفى حالة يرثى لها من الضعف والمرض ، ومن الحزن على ما أصاب أهل البيت النبوى الكريم وعلى رأسهم والده الحبيب ، فكان يقول فى أسى وألم بالغين :

يا أمة السوء لا سقيا لربعكم   يا أمة لم تراعى أحمدا فينا

لو أننا ورسول الله يجمعنا — يوم القيامة ما كنتم تقولونا
تسيرونا على الأقتاب عارية — كأننا لم نشيد فيكم دينا
بنى أمية ما هذا الوقوف على — هذى المصائب لم تصغوا لداعينا
تصفقون علينا كفكم فرحا — وأنتم فى فجاج الأرض تسبونا
أليس جدى رسول الله ويلكم — هادى البرية من سبل المضلينا
يا وقعة الطف قد أورثتنى حزنا — والله يهتك أستار المسيئينا

وما ان وقعت أنظار أهل الكوفة على هذا الركب ، حتى أقبلوا يناولون الأطفال وهم على محاملهم بعض التمر والخبز والطعام ، فصاحت فيهم السيدة أم كلثوم وقالت :

— « يا أهل الكوفة ، ان الصدقة علينا حرام » .

وصارت تأخذ من أيدى الأطفال وأفواههم ما أخذوه من القوم وتلقى به الى الأرض ، والناس حولهم يبكون على مصيبتهم التى حاقت بهم .فطلت عليهم السيدة أم كلثوم برأسها من محملها وقالت لهم :

— « صه يا أهل الكوفة ، يقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم ، فالحاكم بيننا وبينكم الله يوم فصل القضاء » .

وبينما هى تخاطبهم ،اذ بضجة قد ارتفعت ، واذا هم قد أتوا برأس الامام الحسين ، والرمح تلعب بها يمينا ويسارا ، فالتفتت السيدة العقيلة زينب فرأت رأس أخيها الشهيد ، فأنت أنة شديدة موجعة ، وأومأت اليه بحرقة ، وجعلت تقول :

يا هلالا لما استتم كمالا — غاله خسفه فأبدى غروبا
ما توهمت يا شقيق فؤادى — كان هذا مقدرا مكتوبا

ثم أشارت رضى الله تعالى عنها الى الناس ، فسكتت أصواتهم ، وطارت نفوسهم خشية من جلال الموقف ورهبته ، وأخذت تخاطبهم قائلة :

— « الحمد لله ، والصلاة والسلام على أبى محمد وآله الطيبين الأخيار ، أما بعد ، يا أهل الكوفة ، يا أهل الختل[1] والغدر ، أتبكون ،

---

(1) الخديعة . وفى رواية الختر .

فلا رقأت الدمعة ، ولا هدأت الرنة ، انما مثلكم كمثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا [١] بينكم ، ألا وهل فيكم الا الصلف [٢] والنطف [٣] والكذب والشنف [٤] وملق الاماء وغمز الأعداء ، أو كرعى على دمنة [٥] ، أو كفضة ملحودة ، ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفى العذاب أنتم خالدون .

« أتبكون وتنتحبون ، اى والله فابكوا كثيرا واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، ولن ترحضوها بغسل أبدا ، وأنى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، مدره [٦] حجتكم ومنار محجتكم ، وملاذ خيرتكم ، ومفزع نازلتكم ، وسيد شباب أهل الجنة ، ألا ساء ما تزرون .

« فتعسا ونكسا وبعدا لكم وسحقا ، فلقد خاب السعى وتبت الأيدى وخسرت الصفقة ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة ، ويلكم يا أهل الكوفة ، أتدرون أى كبد لرسول الله فريتم ، وأى كريمة له أبرزتم ، وأى دم له سفكتم ، وأى حرمة له انتهكتم ، لقد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع [٧] الأرض وملء السماء ، أفعجبتم ان مطرت السماء دما، ولعذاب الآخرة أخزى وأنتم لاتنصرون . فلا يستخفنكم المهل ، فانه لا يحفزه [٨] البدار ، ولا يخاف فوت الثار [٩] ، وان ربكم لبالمرصاد » .

أدهش خطابها البليغ الذى تدفق من لسانها كسيل حطه جلمود صخر من عل ، هؤلاء القوم وأثر فيهم ، وأيقظ أفئدتهم ، وأظهر لهم شنيع جرمهم ، فأخذوا وقد أدركوا فجيعة فاجعتهم وعظيم جنايتهم فى حق الاسلام والمسلمين ، فلا يدرون ما يصنعون ، حتى أن شيخا

---

(١) خيانة ومكرا .
(٢) الادعاء تكبرا .
(٣) التلطخ بالعيب .
(٤) البغض والتنكر .
(٥) ما تدمنه الابل والغنم بأبوالها وابعارها .
(٦) المدره : المتكلم عن القوم المدافع عنهم .
(٧) ملؤها .
(٨) الحث والاعجال .
(٩) وفى رواية : النار .

كبيرا كان يستمع اليها ، فأبكاه كلامها حتى اخضلت لحيته بالدموع ، وأخذ يقول :

ــ « بأبى أنتم وأمى ، كهولكم خير الكهول ، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء ، ونسلكم خير النسل ، لا يخزى ولا يبزو » (١)

ثم تكلمت فاطمة الصغرى فقالت :

ــ « الحمد لله عدد الرمل والحصى وزنة العرش الى الثرى ، أحمده وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، اللهم انى أعوذ بك أن أفترى عليك الكذب ، أو أن أقول خلاف ما أنزلت عليه من أخذ العهود لوصيه على بن أبى طالب ، المقتــول كما قتل ولده بالامس ، فى بيت من بيوت الله فيه معشر مسلمة بألسنتهم، تعســا لمروءتهم ، ما رفعت عنه ضيما فى حياته وبعد وفاتــه ، حتى قبض اليك محمود النقية ، طيب العريكة ، معروف المناقب ، مشهــور المذاهب ، لم تأخذه فيك لومة لائم ، زاهدا فى الدنيــا ، مجاهــدا فى سبيلك ، فهديته الى صراطك المستقيم .

« أما بعد ، يا أهل الكوفة ، يا أهل المكر والغدر والخيلاء ، فانــا أهل بيت ابتلانا الله بكم وابتلاكم بنا ، فجعل بلاءنا حسنا ، وجعل علمه عندنا وفهمه لدينا ، فنحن عيبة علمــه ، أكرمنــا بكــرامته ، وفضلنا بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم على كثير ممن خلق تفضيلا ، فكذبتمونا ورأيتم قتالنا حلالا ، وأموالنا نهبا ، كأنا أولاد تــرك أو كابل ، فلا تدعونكم أنفسكم الى الجدل بما أصبتم من دمائنا ، ونالت أيديكم من أموالنا ، فكان العذاب قد حل بكم وأتت نقمات ، ألا لعنة الله على الظالمين ، تبا لكم يا أهل الكوفة ، أى تراث لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبلكم ، وذحول (٢) له لديكم ، بما عنتم بأخيه على بن أبى طالب ، افتخرتم بقتل قوم زكاهم الله فى كتابه ، وطهرهم وأذهب عنهم الرجس ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نــور » .

ثم تكلمت أم كلثوم بنت الامام على كرم الله وجهه وشقيقة العقيلة

---

(١) لا يغلب ولا يقهر .

(٢) الذحول : الحقد .

الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنهما ، وقد غلب عليها البكاء فقـالت :

— « يا أهل الكوفة سوءة ، مالكم خذلتم حسينا وقتلتموه ، وسبيتم نساءه ونكبتموه ، ويلكم ، أتدرون أى دواه دهتكم ، وأى وزر على ظهوركم حملتم ، وأى كريمة أصبتموها ، وأى أموال انتهبتموهـا ، قتلتم خير رجالات بعد النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، ألا ان حزب الله هم الفائزون ، وحزب الشيطان هم الخاسرون . ثم قالت :

قتلتم أخى والله صبرا للؤمكم	ستجزون نارا حرها يتوقـــد
سفكتم دماء حرم الله سفكهـا	وحرمها القرآن ثم محمـــد
ألا فابشروا بالنار انكم غـدا	لفى سقر حقا يقينـا تخلدوا
وانى لأبكى فى حياتى على أخى	على خير من بعد النبى سـيولد
بدمع غـزير مسـتهل مكفكف	على الخد منى دايبا ليس يجمد

فضج الناس بالبكاء والعويل .

ثم قام زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وأومأ للناس أن اسكتوا ، وقال بعد حمد الله والثناء عليه :

— « أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، أنا ابن المذبوح بشط الفرات بغير ذحل[1] ولا تراث ، أنا ابن من انتهك حـريمه ، وانتهب مـاله ، وسبى عياله ، وقتل صبرا ، وكفى بذلك فخـرا ، فأنشـدكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم الى أبى ، وأعطيتموه العهد والميثاق فخذلتموه ، فتبـا لمـا قدمتم وسوأة لرأيكم ، بأية عين تنظرون الى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، اذ يقول : « قتلتم عترتى وانتهكتم حرمتى فلستم من أمتى » .

فارتفعت الأصوات من كل ناحية ، وقال بعض الناس لبعضهم البعض، هلكتم وما تعلمون . فقال رضى الله تعالى عنه :

— « رحم الله امرءا قبل نصيحتى ووصيتى فى الله وفى رسوله وأهل بيته ، فان لنا فى رسول الله أسوة حسنة » .

---

(١) الذحل : الحقد .

فقالوا جميعا سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك ، فمرنا بأمرك يرحمك الله ، فانا حرب لحربك وسلم اسلمك ، لنأخذن يزيد ونبرأ ممن ظلمك وظلمنا ، فقال رضى الله تعالى عنـــه :

ــ هيهات هيهات أيها الغدرة المكرة ، حيل بينكم وبين شهوات أنفسكم ، أتريدون أن تأتوا الى كما أتيتم الى أبى بالأمس وأهل بيته معه ، ولم ينسنى ثكل رسول الله صلى الله عليه وآله وثكل أبى وبنى أبى، ووجده[1] بين لهاتى[2] ومرارته بين حناجرى ، وغصصـــه فى فراش صدرى ، ومسألتى أن لا تكونوا لنا ولا علينا ، ثم قال :

غمز وان قتل الحسين فشيخه ... قد كان خيرا من حسين وأكرما
فلا تفرحوا يا أهل كوفان بالذى ... أصاب حسينا كان ذلك أعظما
قتيل بنهر الشط روحى فداؤه ... جــزاء الذى أرداه نار جهنما

ثم قـــال :

ــ رضينا منكم رأسا برأس ، فلا يوم لنا ولا علينا .

* * *

ولما أدخل أهل البيت النبوى الكريم ومن معهم الى حيث اللعـــين عبيد الله بن زياد والى الكوفة من قبل يزيد بن معاوية ، والذى كان حربا على أهل البيت ، لكرهه الشديد للامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، لمـــا ادخلوا الى هذا المكان ، تذكرت السيدة العقيلة زينب رضى الله تعالى عنها ، تلك القاعة التى يجلس فيها قاتل أخيها وأهلهـــا وأنصارهم ، بعد أن كان يجلس فيها ــ من قبل ــ أبوها أمير المؤمنين على بن أبى طالبكرم الله وجهه .

دخلتها السيدة العقيلة زينب هذه المرة ، وقلبها متصدع من الحزن والأسى من أثر ما مر بها من أحداث جسام شهدتهـــا بعينى رأســـها ولمستها بأيديها عن كثب ، ولكنها لاذت بكل كبريائها وعزة نفسها وكرامة محتدها ، واعتزت بعلو حسبها ونسبهـــا الشريفين ، والتفت بجـــلال النبوة ، وجلست ، بعد أن كانت قد لبست أبلى ثيابها وأرذلها متنكرة فيها ، منتحية ناحية من القاعة تحف بها اماؤها .

---

(١) الوجد : الحزن .
(٢) اللهاة : اللحمة المشرفة على الحلق فى اقصى الفم .

ثم أمر اللعين ابن زياد ، فجيء له برءوس الضحايا والشهداء ومن بينها الرأس الشريف لمولانا الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه ، فجعل اللعين ابن زياد ينكت بقضيب كان فى يده ، بين ثنيتى الرأس الشريف ، غير عابىء بشعور الحاضرين ، ولا مراع لاحساس أهل البيت النبوى وهم يرون ما يصنع هذا المجرم الآثم .

ولذلك انبرى له زيد بن الأرقم وصاح فيه قائلا :

ـ أعل هذا القضيب عن هاتين الثنيتين ، فوالذى لا اله غيره ، لقد رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هاتين الثنيتين يقبلهما. ثم بكى . فقال له اللعين ابن زياد :

ـ أبكى الله عينيك ، فوالله لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك .

فخرج ابن الأرقم وهو يقول :

ـ أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم ، قتلتم ابن فـــاطمة ، وأمرتم ابن مرجانة ، فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم ، فرضيتم بالـــذل .

نظر اللعين ابن زياد الى الحاضرين أمامه وتفحص كلا منهم بنظرة ، ثم تساءل عن هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها وهى شامخة الرأس عاليته ، فلم تجبه العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، فأعاد تساؤله ثلاثا دون أن ترد عليه ، فقال بعض امائها ، هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبنت الامام على كرم الله وجهه ، فقال متشفيا فيهـــا :

ـ الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم . (١)

فردت عليه العقيلة السيدة زينب بكل اباء وشمم وترفع :

ـ الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا ، انما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا . فلم يصبر اللعين ابن زياد على قولها ، بل رد عليها قائلا :

---

(١) الأحدوثة فى قول ابن زياد ، تحتمل أن يكون معناها الخروج على دين جدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم (أى أهل البيت) من ذلك براء ، أو أنه يقصد خروجهم على خليفته يزيد بن معاوية .

ـ كيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك ؟

وهنا تتجلى كل معانى الايمان والصبر والشـجاعة ، فترد عليه بقولها :

ـ ما رأيت الا خيرا ، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلج[1] يومئذ ، ثكلتك أمك يا ابن مرجانة .

فأثار هذا الرد الحازم الحاسم حفيظة اللعين ابن زياد واستشاط غيظا وغضبا ، فقال له عمرو بن حريث :

ـ أصلح الله الأمير ، انما هى امرأة ، وهل تؤاخذ المرأة بشىء من منطقها ، انها لا تؤاخذ بقول ولا تلام على خطل .

ولكن اللعين ابن زياد ظل غاضبا محنقا ، فرد على السيدة الطاهرة بقوله :

ـ لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك . فقالت له :

ـ لعمرى لقد قتلت كهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلى ، فان كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت .

فرد عليها اللعين ابن زياد قائلا :

ـ هذه سجاعة ، ولعمرى لقد كان أبوها سجاعا شاعرا ، فقالت :

ـ يا ابن زياد ، ما للمرأة والسجاعة ، وان لى عن السجاعة لشغلا ، وانى لأعجب ممن يشتفى بقتل أئمته ، ويعلم أنهم منتقمون منه فى آخرته .

وفى هذا الموقف الشجاع الجدير بالتسجيل ، يقول الشيخ الجليل ابن نما الحلى :

يا أيها المتشفى فى قتل أئمته ... قلبى من الوجد على مثل الحجر
لا بلغتك الليالى ما تؤمله ... منها وبل سداك المالح المقر
قوم هم الدين والدنيا فمن ... قلاهم فمأواهم اذن سقر

(١) الظفر والظهور .

لهم نبى الهدى جـد ، وجدهم   يوم المعاد بنصر اللـه ينتصر

أثار هذا النقاش الصريح بين العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وبين اللعين ابن زياد ، غيرة زين العابدين على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما على عمته العقيلة ، فانبرى صائحا بابن زياد :

ــ الى كم تهتك عمتى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت اليه ابن زياد وقال :

ــ من أنت ؟ فرد عليه فى حزم وثبات :

ــ أنا على بن الحسين . قال ابن زياد :

ــ أليس الله قتل عليا بن الحسين ؟ قال على :

ــ كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس بأسيافهم . فـرد اللعين عليـه :

ــ بل قتله الله .

وهنا تتجلى مرة أخرى ، قوة ايمان أهل البيت وشجاعتهم ، عندما رد زين العابدين بقوله :

ــ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها .....

فيسأله ابن زياد عليه اللعنة فى دهشة وغضب :

ــ أو بك جرأة على جوابى ، وفيك بقية للرد ؟

وصاح بغلمانه أن ينظروا هل أدرك[1] ، انى لأحسبه رجلا .

فكشف عنه مرى بن معاذ الأحمرى ، وقال :

ــ نعم ، قد أدرك ، قال :

ــ اقتله . فقال على :

ــ من توكل بهذه النسوة ؟

فتعلقت العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها بزين العابدين على وقالت :

ــ يا ابن زياد حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت ، وهل أبقيت أحدا غير هذا ؟ والله لا أفارقه ، فان قتلته فاقتلنى معه .

---

(١) بلغ سن الحلم .

وعندئذ قال على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما :

ــ اسكتى يا عمة حتى أكلمه •

والتفت الى اللعين ابن زياد وقال :

ــ أبالقتل تهددنى ؟ أما علمت أن القتل لنا عادة ، وكرامتنا من الله الشهادة ؟

فنظر ابن زياد اليه والى العقيلة الطاهرة عمته ساعة ، ثم قال :

ــ عجبا للرحم ، والله انى لأظنها ودت لو أنى قتلته أنى قتلتها معه ، دعوه ينطلق مع نسائه فانى أراه لما به مشغولا •

ثم نادى اللعين ابن زياد بالصلاة الجامعة ، فاجتمع الناس فصعد المنبر فخطبهم وقال :

ــ الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ، ونصر أمير المؤمنين وأيد حزبه[1] ، وقتل الكذاب ابن الكذاب الحسين بن على وشيعته •

وقبل أن يستأنف كلامه ، وثب اليه عبد الله بن عفيف الأزدى ، وكان ضريرا قد ذهبت احدى عينيه يوم الجمل مع الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وذهبت الأخرى بصفين معه أيضا ، وكان لا يفارق المسجد يصلى فيه الى الليل ثم ينصرف • فلما سمع مقالة اللعين ابن زياد ، قال :

ــ يا ابن مرجانة ، ان الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه ، يا ابن مرجانة ، أتقتلون أبناء النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين ؟ فقال ابن زياد :

---

(١) يقول ابن الاثير فى كتابه الكامل فى التاريخ : هذا النصر فى نظرى ونظر كل عاقل صحيح العقل ، شر من الخذلان ، اذ ما فخر الالاف الكثيرة تجتمع على اثنين وسبعين رجلا قد نزلوا على غير ماء ، انما يعتبر النصر شرفا وفخرا ، اذا كانت العدة متكافئة والعدد تقريبا •

فحق ابن زياد ومن كان على شاكلته ، أن يندبوا على أنفسهم بالخيبة والخسران وأن يطأطئوا رءوسهم ذلا وعارا ، حينما وقف هؤلاء النسوة الأشراف وعلى رأسهم السيدة زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى بهذه الحالة . لعن الله الفسق والفساق ، لقد ستوءوا صحائف التاريخ وسجلوا على أنفسهم الجرائم الكبرى التى لا تغتفر ولا تنسى مدى الدهر ، فانا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم •

— علی به .

فأخذوه ، فنادى عبد الله بشعار الأزد « يا مبرور » ، فوثب اليه فتية من الأزد فانتزعوه من أيدى الجلاوزة ، وأتوا به أهله ومنزله . فقال ابن زيـاد :

— الى أعمى الأزد ، أعمى الله قلبه ، فأتونى به .

فلما بلغ الأزد ذلك ، اجتمعوا وقبائل اليمن معهم ، فبلغ ذلك ابن زياد ، فجمع قبائل مضر وضمهم الى ابن الأشعث وأمـره بالقتال . فاقتتلوا حتى وصل أصحاب عبيد الله بن زياد — عليه اللعنـة — الى دار عبد الله بن عفيف الأزدى ، فكسروا الباب واقتحمـوا عليـه ، فصاحت ابنتـه :

— أتاك القوم من حيث تحذر . فقال :

— لا عليك ، ناولينى سيفى .

فناولته ، فجعل يذب عن نفسه ويقول :

أنـا ابـن ذى الفضـل عفيف الطـاهر
عفيـف شـيخى وابـن أم عـامر
كم دارع من جمعكم وحـاسر

فقالت ابنتـه !

— يا ليتنى كنت رجلا أخاصم بين يديك هؤلاء الفجرة ، قاتلى العترة البـررة .

والقوم محدقون به ، كلما جاءوه من جهة أشعرته ابنتـه ، وهـو يذب عن نفسه ويقول :

أقسـم لـو فـرج لـى عن بصـرى
ضـاق عليـكم مـوردى ومصـدرى

فتكاثروا عليه فأخذوه ، فقالت ابنته :

— واذلاه ، يحاط بأبى وليس له ناصر .

وأدخلوه على اللعين ابن زياد ، فقال :

— الحمد لله الذى أخزاك . فقال :

— يا عدو الله ، فماذا أخزانى • والله لو فـــرج لى عن بصرى ضاق عليكم موردى ومصدرى • فقال :

— يا عدو الله ، ما تقول فى عثمان ؟ فقال :

— يا عبد بنى علاج ، يا ابن مرجانة ، ما أنت وعثمان ، أساء أم أحسن ، فقد لقى ربه وهو ولى خلقه يقضى بينهم بالعدل ، ولكن سلنى عن أبيك وعن يزيد وأبيه • فقال :

— والله لا أسألنك عن شىء حتى تذوق الموت عطشا • فقال :

— الحمد لله رب العالمين ، أما أنى كنت أسأل الله ربى أن يرزقنى الشهادة ، وسألته أن يجعلها على يدى ألعن خلقـــه وأبغضهم اليـــه، فلما كف بصرى يئست من الشهادة ، والآن ، فالحمد لله الذى رزقنيها بعد اليأس منها •

فأمر ابن زياد ، فضرب عنقه وصلب فى السبخة • ثم دعا بجندب ابن عبد الله الأزدى وكان شيخا ، فقال :

— يا عدو الله ، ألست بصاحب أبى تراب[1] ؟ فقال :

— بلى ، لا أعتذر منه • قال :

— ما أرانى الا متقربا الى الله بدمك • قال :

— اذن لا يقربك الله منه ، بل يباعدك • قال :

— شيخ قد ذهب عقله • وخلى سبيله •

* * *

ثم أمر ابن زياد ، عليه اللعنة ، بـــرأس الحسين فطـــافوا بـــه فى الكوفـــة ، وكان هذا الرأس الشريف ، أول رأس حمل فى الاســـلام على خشبة •

ويقول ابن الأثير فى ذلك :

« وانى لأعد من سيئات بنى أمية ومنهم معاوية ، أن يرخصـــوا لولاتهم فى المعاقبة بالقتل ، وكان سبيلهم أن يكون العقاب على يـــد الخليفة لا الوالى ، فان الترخيص بذلك جرأ أمثال زياد وسمـــرة بن جندب وعبيد الله ، على الاكثار من القتل لموجب ولغير موجب » •

---

(١) يقصد عبد الله بن عفيف الأزدى .

رحلة إلى الشام

أمر اللعين عبيد الله بن زياد ، فأرسل رأس مولانا الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ورءوس أصحابه ، مع زخر بن قيس [1] ومعه جماعة الى الشام حيث يزيد بن معاوية فى مقر حكمه ، كما أرسل النساء والصبيان من أهل البيت النبوى الكريم محمولين على أقتاب الجمال ، وفيهم زين العابدين على بن الحسين مغلول اليدين والرقبة.

فلما قربوا من دمشق ، دنت السيدة أم كلثوم رضى الله عنها من شمر بن ذى الجوشن — وكان ضمن جماعة ابن زياد — وقالت له :

— لى اليك حاجة . قال :

— ما هى ؟ قالت :

— اذا دخلت البلد (دمشق) ، فاحملنا فى درب قليل النظارة ، وتقدم أن يخرجوا هذه الرءوس من بين المحامل وينحونا عنها ، فقد خزينا من كثرة النظر الينا ونحن فى هذه الحال .

ولكن اللعين شمر ، أمر بعكس ما سألته السيدة أم كلثوم ، بغيا وعدوا وعتوا على أهل البيت النبوى الكريم ، وسلك بهم على تلك الصورة ، الدروب الواسعة ، كثيرة النظارة ، حتى وصلوا باب دمشق حيث يكون السبى .

ويقول ابن الأثير فى كتاب الكامل فى التاريخ :

« ولما بلغوا دمشق ، دخل زخر بن قيس على يزيد بن معاوية ، فسأله قائلا :

— ما وراءك ؟ فرد عليه قائلا :

— أبشر يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره ، ورد علينا الحسين بن

(١) وقيل مع شمر ومعه مخفر بن ثعلبة بن مرة العايذى من عايذة قريش .

على فى ثمانية عشر من أهل بيته وستين من شيعته [1] ، فسرنا اليهم فسألناهم أن ينزلوا على حكم الأمير عبيد الله أو القتال ، فاختاروا القتال • فعدونا عليهم مع شروق الشمس ، فأحطنا بهم من كل ناحية ، حتى اذا أخذت السيوف مأخذها من هام القوم ، جعلوا يهربون[2] الى غير وزر ، ويلوذون بالآكام والحفر ، كما لاذ الحمائم من صقر • فوالله ما كان الا جزر جزور ، أو نومة قائل حتى أتينا على آخرهم • فهاتيك أجسادهم مجردة ، وثيابهم مرملة ، وخدودهم معفرة، تصهرهم الشمس ، وتسفى عليهم الريح ، زوارهم العقبان والرخم، بقاع سبسب • فدمعت عينا يزيد ، وقال :

ـ كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن سمية، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين •

ويروى ، أنه لما ورد وفد أهل الكوفة بالرأس الشريف الى الشام ودخلوا مسجد دمشق ، أتاهم مروان بن الحكم فقال :

ـ حجبتم عن محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، لن أجامعكم على أمر أبدا • ثم انصرف عنهم[3] •

فلما دخلوا على يزيد ، قال يحيى بن الحكم :

لهام بجنب الطف أدنى قرابة
من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى
وليس لآل المصطفى اليوم من نسل[4]

وقيل أنه لما سمعت هند بنت عبد الله بن عامر بن كريز ـ وكانت تحت يزيد[5] ـ ما دار من حديث زخر بن قيس وجماعته ، ورأت بعينيها الرأس الشريف بين يديه ، تقنعت بثوبها وخرجت وقالت :

(۱) صحة العدد كله اثنين وسبعين رجلا من أهل البيت وشيعتهم .
(۲) هذا هو الفخر المزيف والكذب الصريح . فان كل المؤرخين يذكرون لمن كان مع الحسين وآله ، ثباتا لا يضارعه ثبات ، واباء وشمما ندر أن يريا لكسور قل ناصروه ومؤيدوه ، وكثر خاذلوه وواتروه .
(۳) وان كان من المستبعد على مروان أن يقول هذا ، لأنه رأس كل المصائب ، الا انها ربما تكون صحوة ضمير بعد فوات الأوان .
(٤) وفى رواية : وبنت رسول الله ليست بذى نسل .
(٥) أى زوجته .

ــ يا أمير المؤمنين ، أرأس الحسين بن على ابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال :

ــ نعم ، فأعولى عليه ، وحدى على بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصريحة قريش ، عجل عليه ابن زياد فقتله ، قتله الله .

ثم أذن للناس ، فدخلوا عليه والرأس بين يديه ومعه قضيب وهو ينكت به ثغره ، ثم قال :

ــ ان هذا وايانا ، كما قال الحصين بن الحمام :

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت
قواضب[1] فى أيماننا تقطر الدما
يفلقن هاما [2] من رجال أعزة [3] .
علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فقال له أبو برزة الأسلمى :

ــ ويحك ، أتنكت بقضيبك فى ثغر الحسين ابن فاطمة ، أشهد لقد رأيت النبى صلى الله عليه وآله يرشف ثناياه وثنايا أخيه ويقول: « أنتما سيدا شباب أهل الجنة ، فقتل الله قاتلكما ولعنه الله وأعد له جهنم وساءت مصيرا ، أما انك يا يزيد تجىء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ، ويجىء هذا ومحمد شفيعه ، ثم قام أبو برزة فولى ، فقال يزيد :

ــ والله يا حسين ، لو كنت أنا صاحبك ما قتلتك ، ثم قال :

أتدرون من أين أتى هذا ؟ لقد قال : أبى على خير من أبيه ، وفاطمة أمى خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه وأحق بهذاالأمر منه ، فأما قوله : أبوه خير من أبى ، فقد تحاج وأبوه الى الله ، وعلم الناس أيهما حكم له ، وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى ، وأما قوله : جدى رسول الله خير من جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) سيوف .

(٢) رءوسا .

(٣) وفى رواية : من رجال أحبة .

يرى لرسول الله نبينا عدولا ولا ندا[1] ، ولكنه [2] أتى من قبل فقهه ولم يقرأ : « قل اللهم مالك الملك .... » [3] .

ثم أدخل نساء الحسين عليه والرأس الشريف بين يديه ، فجعلت فاطمة وسكينة ابنتا الشهيد الامام الحسين تتطاولان لتنظـرا الى الرأس ، وجعل يزيد يتطاول بدوره ليستره عنهما ، فلما رأتا الرأس صاحتا ، فصاحت نساء يزيد وولولت بنات معاوية ، فقالت فاطمـة بنت الحسين :

أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ فقال :

ــ يا ابنة أخي ، أنا لهذا كنت أكره . فقالت :

ــ ما ترك لنا خرص[4] . فقال :

ــ ما أتى اليكن أعظم مما أخذ منكن .

وقد تجرأ رجل من أهل الشام كان حاضرا فى هذا المجلس فقـام وقـال :

ــ هب لى هذه الجارية[5] يا أمير المؤمنين تكون خادمة عنـدى .

فارتعدت فرائص فاطمة وأخذت بثياب عمتها العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وقالت :

ــ يا عمتاه ، أوتمت وأستخدم !!

فقالت العقيلة السيدة زينب للشامى :

ــ كذبت ولؤمت ، ما جعل الله ذلك لك ولا لأميرك .

فغضب يزيد وقال :

ــ كذبت والله ، ان ذلك لى ، ولو شئت أن أفعل لفعلت . فقالت

ــ كلا والله ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننـا .

---

(١) نظيرا .
(٢) أى الحسين .
(٣) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران .
(٤) اعتبار فى الرأى .
(٥) يعنى فاطمة بنت الحسين .

فاستطار يزيد غضبا وقال :

ــ اياى تستقبلين بهذا الكلام !! انما خــرج من الدين أبوك وأخوك فقالت السيدة العقيلة :

ــ بدين أبى وأخى اهتديت أنت وأبوك وجدك ان كنت مسلمــا • قــال :

ــ كذبت يا عدوة الله • قالت :

ــ يا يزيد ، أنت أمير تشتم ظالما وتقهر بسلطانك •

فاستحيى يزيد وسكت ، فأعاد الشامى سؤاله قائلا :

ــ هب لى هذه الجارية ، فقال له يزيد :

ــ اسكت ، وهب الله لك حتفا قاضيا •

ولم يرتدع يزيد بن معاوية عن غيه فى مجلسه هذا ، بل ظل ينكت بقضيبه الذى فى يده ، ثنايا الامام أبى عبد الله الحسين ويقول :

ليت أشياخى ببــدر شــهدوا   جزع الخزرج منوقع الأسل(١)
فأهلوا (٢) واستهلــوا فرحــا   ثم قالــوا يا يزيــد لا تشــل
قد قتلنا القــوم من ســادتهم   وعدلناه ببــدر فاعتــدل (٣)

وما أن سمعت العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنهــا ذلك القول ، حتى انتصبت قائمة ترد على يزيد قائلة فى خطبة تعد من أبلغ الخطب وأفصحها ، عليها أنوار الحق ، خطبة علوية فاطمية ، فتقــول رضى الله تعالى عنهــا :

ــ « الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين ،

صدق الله سبحانه حيث يقول : (ثم كان عــاقبة الذين أســاءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانــوا بها يســتهزءون)(٤) ، أظننت يا يزيد حين أخذ علينا بأقطار الأرض وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة ، وأن ذلك

---

(١) الأسل : السيف .
(٢) وفى رواية : لا هلوا .
(٣) وفى رواية : فجزيناهم ببــدر مثلها   واقمنا ميل بدر فاعتــدل
(٤) الآية ١٠ من سورة الروم .

لعظيم خطرك عنده فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفك تضرب أصدريك[1] فرحـــا ، وتنفض مذوريك[2] مرحا ، جذلان مسرورا ، حـــين رأيت الدنيا لك مستوثقة والأمور متسقة[3] وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا ، أنسيت قول الله تعالى : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين) [4] .

« أمن العـــدل يا ابن الطلقاء[5] ، تخديرك حـــرائرك وامـــاءك ، وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأباعر من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد ، والدنى والشريف ، ليس معهـــن من رجالهن ولى ، ولا من حماتهن حمى ؟

« وكيف يرتجى مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكياء ، ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ فى بغضنا أهل البيت من نظـــر الينـــا بالشنف والشنآن ، والاحن والأضغـــان ، ثم تقـــول غير متـــأثم ولا مستعظم :

لا هلوا واستهلـــوا فرحـــا ثم قالـــوا يا يزيـــد لا تشـــل

منحنيا على ثنايا أبى عبد الله ، سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة[6] ، واستأصلت الشـــأفة[7] ، باراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم ، فلتردن وشـــيكا موردهم ، ولتودن أنك شللت وبكمت ولـــم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، وأحلل غضـــبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فوالله يا يزيد ، ما فريت[8] الا جلدك ،

---

(١) منكبيك .
(٢) المذوران : جانبا الاليتين ولا واحد لها ، أى باغيا متهددا .
(٣) منتظمة ومجتمعة .
(٤) الآية ١٧٨ من سورة آل عمران .
(٥) الطلقاء : هم أبو سفيان ومعاوية وبقية الأمويين الذين أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ، وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وبهذا صاروا موالى له هم وذريتهم الى يوم القيامة .
(٦) أكثرت جراحها .
(٧) قطعتها من أصلها وأزلتها .
(٨) قطعت .

ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته ، وانتهكت من حرمته فى عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ، ويلم شعثهم ، ويأخذ بحقهم ؛ (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)[1]،وحسبك بالله حاكما ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيما ، وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم من سول لك وأمكنك من رقاب المسلمين ــ بئس للظالمين بدلا ــ أينا شر مكانا وأضعف جندا . « ولئن جرت على الدواهى مخاطبتك ، انى لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك ، وأستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى ، وما يجزى ذلك أو يغنى ، وقد قتل أخى الحسين ، ألا ان حزب الشيطان يقربنا الى حزب السفهاء ، ليعطوهم أموال الله عونا على انتهاك محارم الله ، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الذواكى تنتابها العواسل [2] ، وتعفرها أمهات الفراعل [3] ، ولئن اتخذتنا مغنما ، لتجدنا وشيكا مغرما ، حين لا تجد الا ما قدمت يداك ، وما ربك بظلام للعبيد، والى الله المشتكى وعليه المعول ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا ترحض عنك عارها ، وهل رأيك الا فند[4] ، وأيامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم ينادى المنادى الا لعنة الله على الظالمين ، فالحمد لله رب العالمين الذى ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ، ولآخرنا بالشهادة والرحمة، نسأل الله أن يكمل لهم الثواب،ويوجب لهم المزيد،ويحسن علينا الخلافة، انه رحيم ودود ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

لم يستطع يزيد بن معاوية ، مع ما هو عليه من سلطان وملك وهيبة يخشاها أكثر الناس ، أن يقاطع العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، أو أن يمنعها من الاستمرار فى الكلام ــ رغم أنه من لاذع القول وشديد التقريع ــ مع علم السيدة زينب أنها فى ذلة الأسر ، وأنها كانت دامية القلب باكية الطرف مما مر بها من أحداث جسام .

---

(١) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

(٢) الذئاب .

(٣) الضباع .

(٤) كذب .

انه لموقف عظيم لا يحتاج الى برهان للتدليل على شجاعتها رضى الله تعالى عنها ، وعلى قوة حجتها ، اذ مثلت فى موقفها هذا ، الحق تمثيلا صحيحا ، وأضاءت الى طلاب المعرفة والحقيقة سبيلا واضحا •

الا أن يزيد بن معاوية ، أراد أن يخرج من هذا المأزق الذى وقع فيه. والحرج الشديد الذىأصابه من افتضاح حقيقة أمره ، فلم يستطع أن ينطق بغير هذه الكلمة :

يا صيحة تحمــد من صـــــوائح ما أهون النـــوح على النوائـــح

ثم أمر ، فأخرج النساء وأدخلن دور يزيد ، فلم تبق امرأة من آل يزيد الا أتتهن وأقمن مأتما على الضحايا الشهداء •

وقد سألهن يزيد عما أخذ منهن ، فأضـــعفه لهن حتى قالت الســـيدة سكينة ابنة الامام الحسين رضى الله تعالى عنهما :

ــ ما رأيت كافرا بالله خيرا من يزيد بن معاوية •

أما زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما ، فكان قد أدخل على يزيد وهو مغلول الأيدى ، فقال ليزيد :

ــ لو رآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مغلولين لفك عنا • قال :

ــ صدقت • وأمر بفك غله • فقال على :

ــ ولو رآنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعداء ، لأحب أن يقربنا. فأمر يزيد فقرب منه وقال:

ــ ايه يا على بن الحسين،أبوك الذى قطع رحمى وجهل حقى ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما رأيت • فقال على :

ــ « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير•لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » (١) •

فقال يزيد :

ــ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم (٢) ••• » ، فقال على :

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الحديد .

(٢) من الآية ٣٠ من سورة الشورى .

ـ هذا فى حق من ظلم لا من ظلم .

ثم سكت عنه ، وأمر بانزاله وأهل بيته ـ بعد أن خرجن من عند نساء يزيد ـ فى دار خاصة،وكان يدعوه للطعام معه سواء فى الغداء أو العشاء. فدعاه مرة ومعه عمرو بن الحسن وهو صبى ، فقال له يزيد بن معاوية وهو يشير الى ابنه خالد :

ـ أتقاتل هذا ؟ فقال عمرو :

ـ أعطنى سكينا وأعطه سكينا حتى أقاتله .

فقبله يزيد وضمه اليه وقال :

ـ شنشنة أعرفها من أخزم ، وهل تلد الحية الا حية[1] !!

ويروى أبو الديلم ، أنه لما جىء بعلى بن الحسين الى دمشق فيمن جاء معهم ، فأقيم على درج دمشق ، قام رجل من أهل الشام فقال :

ـ الحمد لله الذى قتلكم واستأصلكم وقطع قرنى الفتنة ، فقال على :

ـ أقرأت القرآن ؟ قال :

ـ نعم . قال :

ـ أقرأت ال حم ؟ قال :

ـ قرأت القرآن ولم أقرأ ال حم . قال :

ـ أما قرأت « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى[2] » ؟ قال :

ـ وانكم لأنتم هم ؟ قال :

ـ نعم .

* * *

ولقد اطمأن يزيد بن معاوية على ملكه بعد ما حدث للامام الحسين رضى الله تعالى عنه ، واستتب له الأمر،فرضى عن اللعين عبيد الله بن زياد، وزاده ووصله ، وسره منه ما فعل . الا أن هذا لم يدم طويلا ، اذ أكبر الناس ماجرى للشهيد العظيم الامام الحسين وأهل بيته وأنصاره ، فكرهوا يزيد وحكمه ، وأبغضوه ولعنوه وسبوه .

---

(١) ولو أنصفه اللعين يزيد لقال : (ان ذاك الشبل من ذاك الأسد) .
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الشورى .

ولما بلغه ما وصل اليه حال الناس ، ندم على قتـــل الامام الحســـين وصحبه رضى الله تعالى عنهم جميعا ، فصار يقول :

ـ وما على لو احتملت الأذى وأنزلت الحسين معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وان كان على فى ذلك وهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله صلى الله عليهوسلم، ورعاية لحقه وقرابته ، لعن الله ابن مرجانة ، فانه اضطره، وقد سأله أن يضع يده فى يدى أو يلحق بثغر حتى يتوفاه الله ، فلم يجبه الى ذلك فقتله ، فبغضنى بقتله الى المسلمين ، وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى البر والفاجر بما استعظموه من قتل الحسين ، ما لى ولابن مرجانة ، لعنـــه الله وغضب عليه •

بيان للحقيقة واجب

كأنى بالقارىء الكريم ، وهو يطالع فصول هذه المأساة الأليمة التى روعت الأمة الاسلامية ، وصدعت قلوب أبنائها فى القرن الأول الهجرى ، كأنى بالقارىء الكريم ، وقد ارتسم على وجهه من علامات الاستفهام ما ينم عن حزن عميق وحيرة شديدة ودهشة بالغة ، تثير فى خاطره سيلا من الأسئلة عن هذا الذى حدث لبيت النبوة ، كيف حدث أن أهل البيت قد أشاد الله تعالى بذكرهم ، وأثنى فى القرآن الكريم عليهم ، ... تعرضوا للقتل والابادة بتلك الصورة البشعة التى تقشعر الأبدان من هولها ، وأين ما تكفل الله به لأوليائه من رعايتهم وحمايتهم ونصرتهم ، ومن أولى من الحسين وأهل بيته — رضى الله تعالى عنهم جميعا — بتلك الرعاية وتلك الحماية وتلك النصرة ... ألا هون عليك أيها القارىء الكريم ، فان الله تعالى لم يرد بالامام الحسين وأهله الطيبين الطاهرين الا خيرا ، انه تعالى أراد أن يجعلهم فى مستوى مع أنبياء بنى اسرائيل ورسلهم ، وهؤلاء قد طغى الظلمة الجبارون من اليهود عليهم ، فأمعنوا فيهم قتلا وتمزيقا وتحريقا وابادة . فقتلوا زكريا ويحيى وشعياء وأرمياء وعددا كبيرا من كرام الأنبياء .

وقد روى أن زكريا عليه السلام لاذ من قاتليه بشجرة ، فانفتحت له ودخل فى جوفها ، ولكن الطغاة البغاة أعملوا فيها بمناشيرهم حتى نشروه وهو فى داخلها وشطروا جسمه شطرين ، فلم ينقص ذلك من قدره ، ولم يدل على أن الله تعالى لا يبالى به . ان الله تعالى قد أعطاه درجة الشهادة الى جانب مرتبة النبوة ، فكان نبيا وكان شهيدا ، وحاق بالظلمة ما بين الله تعالى فى قوله : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون[1] » .

وقد وصف النبى صلى الله عليه وسلم بعض ما تعرض له المؤمنون

---

(١) من الآية ٦١ من سورة البقره .

من قبل ، وذلك حين جاء خباب بن الأرت يشكو اليه ما كان يعانيه هو ورفاقه من تنكيل كفار قريش بهم ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اصبروا فقد كان يؤتى بالرجل ممن قبلكم فينشر بمنشار من حديد من قمة رأسه الى أخمص قدمه ما يصرفه ذلك عن دين الله » (رواه البخارى) • وفى القرآن الكريم اشارة الى طوائف من المؤمنين بغى عليهم الكفار ، فحفروا لهم أخاديد فى الأرض ملأوها نارا ثم أخذوا يعرضون عليهم الارتداد عن الاسلام فيأبون ، فيقذفون بهم فى تلك الأخاديد ، ويجلسون للتفرج عليهم وهم يحترقون • وجاء دور امرأة كانت ترضع وليدها فتباطأت اشفاقا على الرضيع ، فأنطق الله تعالى لسانه وقال لها ، تقدمى يا أمى ولا تتقاعسى فانك على الحق ، فتقدمت واحترقت ولم تستغرق عملية احتراقها الا لحظات قصيرة ، من بعدها تفتحت لها ولرضيعها أبواب الجنة ينعمان بقصورها وأنهارها وأشجارها وثمارها وكل ما فيها •

فاذا كان الامام الحسين رضى الله تعالى عنه ومن معه من بنى هاشم قد لاقوا ما لاقوا من بغى الباغين وظلم الظالمين ، فان ذلك لم يكن لهوان لهم على الله تعالى ، ان الله تعالى رفعهم الى أعلى عليين وجعل أعداءهم فى أسفل سافلين • وفى اعتقادى أن الله تعالى لم يرد بالامام الحسين رضى الله عنه أن يكون وليا لأمور الدنيا ، لأنه لو تولاها لكان واحدا من الخلفاء الراشدين ، ولحكمة لا يعلمها الا الله ، اقتضت المشيئة الالهية ألا يتجاوز عهد الخلفاء الراشدين أكثر من ثلاثين عاما[1] ، بعد الرسول صلى الله عليه وسلم • فلو أصبح الامام الحسين خليفة لجاء فى عهد غير عهده ، وأوان غير أوانه ، وكما قال الفرزدق الشاعر الكبير ، « القدر ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء » •

على أن ما صنعه الامام الحسين كان له نورا فى الأرض وذخرا فى السماء ، فمازال يذكر — رضى الله تعالى عنه — بكل اجلال واكرام ،

---

(١) وهى مدة حكم الخلفاء الراشدين الأربعة وكذلك الامام الحسن . فقد بقى أبو بكر الصديق فى الحكم سنتان وثلاثة شهور وعشرة أيام ، وبقى عمر عشر سنوات وستة شهور وأربعة أيام ، وبقى عثمان احدى عشرة سنة واحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما ، وبقى على أربع سنوات وتسعة شهور . أما الحسن بن على فقد بقى ستة شهور فقط وهى المدة المكملة للثلاثين عاما . رضى الله تعالى عنهم جميعا .

بينما خصومه لا يذكرون الا بالرجم والشتم واللعن • وقد أصــابه من قال :

لذكرك فينـا يا حســين خلـود بقيت بـه حيـا ومـات يزيـد
نعم مات حتى ضل فى الأرض قبره وليس له بين القبـور وجـود
ومن رجمت ذكراه من بعـد موته هـو الميت لكن الحسـين شـهيد

وقد يسأل القارىء عن الأمة الاسلامية بعد قتل الامام الحسين ، لماذا لم تغضب غضبتها ولم تثر ثورتها ؟ وأقول ان الأمة قد حزنت أشد الحزن لما أصاب الامام الحسين ورفاقه ، ولكنها اذ ذاك كانت ذاخرة بالعقلاء من الرجال ما بين صحابة وتابعين ، وهؤلاء رأوا أن الثـورة آنذاك ليست فى صالح الدعوة الاسلامية ، لأنها كانت ستعطى فرصـة كبيرة لأعداء الاسلام من اليهود والنصارى ، فيسرعون بالتـدخل ، ويعملون بكل ما أوتوا من قوة على وقف تقدم الدعوة وانطلاقها لهداية المشرق والمغرب ، ففضلوا أن تسكن الفتنة ليتاح لدعوة الحق أن تشق طريقها فى كل اتجاه ، فذلك أجدى بكثير من ثورة عارمة لا يعلم الا الله تعالى مداها •

ومما يجدر ذكره أن قتلة الحسين وأهل بيته ــ رضى الله تعالى عنهم جميعا ــ ظنوا أنهم يستطيعون القضاء على الذرية المحمدية ، ولكن الله تعالى أحبط كيدهم • فقد عاش زين العابدين على بن الحسين وكثر نسله ، وانتشرت فى الأرض ذريته ، ولا يزالون حتى الان يعيشـون فى أقطار شتى من الدنيا ، فهم أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم ولكن الله تعالى أتم نوره على الرغم منهم • وأما سيدات بنى هاشم اللاتى شهدن المأساة ، فان الأحداث المروعة لم تستطع أن تطغى على ايمانهن وصبرهن ، فقد بقين فى الحياة وبعد الممات يملأن حياة المسلمين نورا وهدى وخيرا وبركة ، وفى طليعتهن سيدتنا الطاهرة العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وأرضاها •

مسيرة أهـــل البيـــت
إلى المدينـــة المنـــورة

كان لشجاعة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وصراحتها البالغة فى مجلس يزيد ، وما تبع ذلك من رد فعل عميق فى نفوس جمـاهير المسلمين ، أثر قوى فى يزيد بن معاوية ، فأحس بتأنيب الضمير والندم ، وشعر بفداحة ما أقدم عليه من جرم عظيم فى حق أهل البيت النبـوى الكريم • فأراد أن يكفر عن شنيع فعلته وسوء صنيعه وخبث طويته ، فعرض على السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، الأموال الكثيرة عوضا عما سلب ونهب منها وممن كان معها من آل الامام الحسين وأنصاره وأتباعه • فقالت ليزيد :

ـ يا يزيد ما أقسى قلبك ، تقتل أخى وتعطينى المال ، والله لا كان ذلك أبدا •

فأمر يزيد بن معاوية بهم أن يسيروا الى المدينة المنورة ، وندب النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم فى مسيرتهم ، وأن يصحبهم فى ركبهم اليها ومعه من الرجال الأمناء الذين يرعون كرامة أهل البيت وحرمتهم • فلما جهز الركب واستعد للرحيل ، دعا يزيد بن معاوية عليا بن الحسين رضى الله تعالى عنهما ليودعه ، وقال له :

ـ لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو أنى صاحبه ، ما سألنى خصـلة أبدا الا أعطيته اياها ، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى ، ولكن قضى الله ما رأيت يا بنى ، كاتبنى حاجة تكون لك •

وأوصى يزيد بن معاوية ، النعمان بن بشير ورفاقه ـ وكان منهم بشر بن حذلم ـ حسن الصحبة وتلبية طلبات أهـل البيت • فكانوا يسايرون الركب فيكونون أمامه نهارا بحيث لا يفوتون طرفه ، فاذا نزلوا ليلا للراحة ، تنحوا عنهم فيكونون حولهم كهيئة الحرس ، بحيث لو أراد أحد الركب وضوءا أو قضاء حاجة لم يجد حرجا فى ذلك •

وكان النعمان وبشر ، يسألان أهل البيت عن حاجتهم ويتلطفان بهم ، حتى قاربوا نهاية المسيرة • وقد أثرت تلك المعاملة الطيبة من رجال الركب في نفوس أهل البيت ، فأرادت السيدة زينب ومن معها أن يصلن بشر بن حذلم بشيء مما بقي معهن من حلى ، مكافأة له على رقيق معاملته وحسن رفقته في الطريق ، وقلن والله ما معنا ما نصله به الا بعض حلينا ، فقدمن له سوارين ودملجين وبعثن بها اليه ، معتذرات بقلة ما معهن •

وقد رد اليهن بشر بن حذلم كل ما أرسلنه اليه وقال :

— لو كان الذى صنعت للدنيا لكان في هذا ما يرضيني ودونه ، ولكن والله ما فعلته الا لله ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ولقد كان هذا الرجل محبا لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ولأهل البيت النبوى على خوف من بنى أمية ، وكان لسان حاله يقول :

أحب الحسين ولكنما لساني عليه وقلبي معه
حبست لساني عن مدحه حذار أمية أن تقطعه
اذا الفتنة اضطرمت في البلاد ورمت النجاة فكن امعة

وفى خلال هذا الوقت ، كان اللعين عبيد الله بن زياد قد أرسل الى المدينة من يخبر ويبشر واليها عمرو بن سعيد بقتل الحسين ، فلقى رجل من قريش رسول ابن زياد وسأله قائلا :

— ما الخبر فقال :

— الخبر عند الأمير • فقال القرشى :

— انا لله وانا اليه راجعون ، قتل الحسين •

ودخل رسول ابن زياد على عمرو بن سعيد فقال :

— ما وراءك ؟ قال :

— ما يسر الأمير ، قتل الحسين بن على • قال :

— ناد بقتله •

فنادى في المدينة بذلك • فصاح نساء بنى هاشم وخرجت ابنة عقيل ابن أبى طالب ومعها نساؤها حاسرة تلوى ثوبها وهى تقول :

ماذا تقولون ان قال النبى لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى ... منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لكم ... أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فلما سمع عمرو بن سعيد والى المدينة أصواتهن ضحك وقال :

عجت نساء بنى زياد عجة ... كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[1]

ثم قال عمرو ، ناعيه كناعية عثمان • ثم صعد المنبر فأعلم الناس بقتل الحسين بن على • ولما بلغ عبد الله بن جعفر زوج العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، قتل ولديه فيمن قتل مع الامام الحسين ، دخل عليه أحد مواليه يعزيه فيهما والناس يعزونه كذلك ، فقال هذا المولى :

ـ هذا ما لقيناه من الحسين •

فحذفه عبد الله بن جعفر بنعله ، وقال :

ـ يا ابن اللخناء ، أللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله انه لما يسخى بنفسى عنهما ويهون المصاب بهما ، أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى مواسيين له صابرين معه • ثم قال : ان لم تكن آسبت الحسين يدى ، فقد آساه ولداى •

ويروى أن بعض أهل المدينة سمعوا ليلة قتل الحسين رضى الله تعالى عنه ، مناديا ينادى :

أيها القاتلون جهلا حسينا ... أبشروا بالعذاب والتنكيل
كل أهل السماء يدعو عليكم ... من نبى وملائك وقبيل
قد لعنتم على لسان ابن داود ... وموسى وصاحب الانجيل [2]

* * *

ويعلق الحافظ ابن كثير على مقتل الامام الحسين ، فيقول :

---

(١) الأرنب وقعة كانت على بنى زياد من بنى الحرث بن كعب . وهذا لعمرو بن معد يكرب .

ويقول ابن نما الحلى مسفها لعمرو بن سعيد فى بشراه :

يستبشرون بقتله وبسبه ... وهم على دين النبى محمد
وان ماهم مسلمون وانما ... قالوا بأقوال الكفور الملحد
قد أسلموا خوف الردى وقلوبهم ... طويت على غل وحقد مكمد

(٢) وفى رواية : وحامل الانجيل .

« فكل مسلم ينبغى له أن يحزنه قتل الحسين رضى الله عنه ، فانه من سادات المسلمين وعلماء الصحابة وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، التى هى أفضل بناته ، وكان عابدا وشجاعا وسخيا ، ولكن لا يحسن ما يفعله الشيعة من اظهار الجزع والحزن الذى لعل أكثره تصنع ورياء . وقد كان أبوه أفضل منه فقتل ، وهم لا يتخذون مقتله مأتما كيوم قتل الحسين ، فان أباه قتل يوم الجمعة وهو خارج الى صلاة الفجر فى السابع عشر[1] من رمضان سنة أربعين ، وكذلك عثمان كان أفضل من على عند أهل السنة والجماعة ، وقد قتل وهو محصور فى داره فى أيام التشريق من شهر ذى الحجة سنة ست وثلاثين ، وقد ذبح من الوريد الى الوريد ، ولم يتخذ الناس يوم قتله مأتما ، وكذلك عمر بن الخطاب ، وهو أفضل من عثمان وعلى ، قتل وهو قائم يصلى فى المحراب صلاة الفجر ويقرأ القرآن ، ولم يتخذ الناس يوم وفاته مأتما ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، سيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة ، وقد قبضه الله اليه كما مات الأنبياء قبله ، ولم يتخذ أحد يوم موته مأتما يفعلون فيه ما يفعل هؤلاء الجهلة من الرافضة ، يوم مصرع الحسين ، ولا ذكر أحد أنه ظهر يوم موتهم وقبله شىء مما ادعاه هؤلاء يوم مقتل الحسين من الأمور المتقدمة ، مثل كسوف الشمس والحمرة التى تطلع فى السماء وغير ذلك ، وأحسن ما يقال عند ذكر هذه المصائب وأمثالها ، ما رواه على بن الحسين عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« ما من مسلم يصاب بمصيبة فيتذكرها وان تقادم عهدها ، فيحدث لها استرجاعا[2] ، الا أعطاه الله من الأجر مثل يوم أصيب بها » . (رواه الامام أحمد وابن ماجه) . انتهى كلام ابن كثير .

نعود فنقول ، أنه لما اقترب ركب أهل البيت النبوى الكريم من المدينة المنورة عائدين من الشام ، وبلغوا مشارفها ، نزل زين العابدين على ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ، وحط رحله هو وأهله وضرب فسطاطه ، وقال لبشر بن حذلم :

— يا بشر ، رحم الله أباك ، لقد كان شاعرا ، فهل تقدر على شىء منه ؟ قال :

---

(١) وفى رواية : التاسع عشر .

(٢) وذلك بقوله : انا لله وانا اليه راجعون .

ــ بلى يا ابن رسول الله ، انى لشاعر • قال :

ــ أدخل المدينة وانع أبا عبد الله •

ركب بشر فرسه وركض حتى دخل المدينة ، ولما بلغ مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ، رفع صوته بالبكاء قائلا :

يا أهل يثرب لا مقام لكم بهـا قتل الحسـين فأدمعى مـدرار
الجسم منه بكربلاء مضـرج والرأس منه على القنـاة تدار

ثم نادى ، هذا على بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بساحتكم ونزلوا بفنائكم ، وأنا رسوله اليكم أعرفكم مكانه ، فما بقيت فى المدينة مخدرة ولا محجبة ، الا برزن من خـدورهن • مكشـوفة رءوسـهن وشعورهن ، يدعون بالويل والثبور ، فلم ير يوم أمر على المدينة من ذلك اليوم ، كما لم ير أكثر من ذلك اليوم باكيا أو باكية وهم يستقبلون ذلك الركب الكريم ، وينادى قائلهم :

أترجـو أمـة قتلت حسـينا شـفاعة جـده يوم الحسـاب

ثم دخل على بن الحسين رضى الله تعالى عنهما المدينة • فزار مقام جده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أومأ الى الناس أن اسكتوا ، فسكنت فورتهم ، ثم خطبهم قائلا :

« الحمد لله رب العالمين ، مالك يوم الدين ، بارىء الخلائق أجمعين ، الذى بعد فارتفع فى السموات العلى ، وقرب فشهد النجوى ، نحمده على عظائم الأمور ، وفجائع الدهور ، وجليل الرزء ، وعظيم المصائب •

« أيها القوم ، ان الله ابتلانا بمصيبة جليلة ، وثلمة فى الاسلام عظيمة ، قتل أبو عبد الله وعترته ، وسبى نساؤه وصبيته ، وداروا برأسـه فى البلدان من فوق على السنان •

« أيها الناس ، فأى رجالات منكم يسرون بعد قتله ، أم أية عين تحبس دمعها ، وتضن عن انهمالها ، فلقد بكت السبع الشداد لقتله ، وبكت البحار والسموات والأرض والأشجار والحيتان والملائكة المقربون وأهل السموات أجمعون •

« أيها الناس ، أى قلب لا يتصدع لقتله ، أم أى فؤاد لا يحن اليه ، أم أى سمع يسمع هذه الثلمة التى ثلمت فى الاسلام •

« أيها الناس ، أصبحنا مطرودين مشردين مذودين شاسعين ، كأنا أولاد ترك أو كابل ، من غير جرم اجترمنـاه ، ولا مكروه ارتكبنـاه ، ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، ان هذا الا اختلاق ، والله لو أن النبى تقدم اليهم فى قتالهم كما تقدم اليهم فى الوصاة بنا ، لما زادوا على ما فعلوه ، فانا لله وانا اليه راجعون » •

ثم دخل منزله وهو شديد الحزن على ما أصاب أهل البيت ، وبكى بكاء شديدا ، بل ظل يبكى على هذا الحادث سنين طويلة ، وكان يقول عندما يحضرون له طعامه وشرابه :

— قتل ابن رسول الله جائعا عطشانا •

ولما كلموه فى كثرة بكائه ، قال :

— ان يعقوب عليه السلام ، فقد سبطا من أولاده فبكى عليه حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم ، وابنه حى فى الدنيا ولم يعلم أنه مات ، وانى نظرت الى أبى وسبعة عشر من أهل بيتى قتلوا فى سـاعة واحدة ، فترون حزنى عليهم يذهب قلبى •

وأما العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، فقد تجلى حزنها لما دخلت المدينة المنورة ، وذلك عندما أخذت بعضادتى باب مسجد الرسول صلى الله عليـه وسلم وعيناها تسيل بالدموع باكية منتحبـة وتنـادى :

— يا جداه انى ناعية اليك أخى الحسين •

وما أن استقر المقام بها بالمدينة المنورة ، حتى أخذت تنتبر المنابر ، تخطب الجماعات مظهرة عدوان يزيد بن معاوية وبغى عبيد الله بن زياد وطغيان أعوانهما على أهل البيت النبوى الكريم • فأثارت الثائرة ، وهيجت الخواطر والمشاعر ، وألبت الجماهير على حزب الشر ، وذلك من قوة بيانها وجزيل بلاغتها ، مما جعل عمرو بن سعيد والى المدينة من قبل يزيد ، يستنجد به خوفا على ولايته من غضبة الناس ، اذا ظلت السيدة العقيلة زينب تخطب الناس وتثير حماستهم •

ولذلك أمر يزيد بن معاوية ، بأن تغادر السيدة الطاهرة ، المدينـة الى حيث تشاء من أرض الله غير الحرمين الشريفين •

وقد عز عليها تنفيذ ذلك الأمر ، وعظم عليها أن ترحل من أرض الآباء

والأجداد ، مهبط الوحى ، وحيث توجـــد الأعظم العطرات لآلهـا ، وقالت :

ــ لقد علم الله ما صار اليه أمرنا ، قتل خيرنا وانسقنا كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب ، فوالله لا خرجنا وان أهريقت دماؤنا •

فتدخلت السيدة زينب بنت عقيل رضى الله تعالى عنهما ، وقالت :

ــ يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده • وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء ، فطيبى نفسا وقرى عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، أتريدين بعد ذلك هوانا ؟ ارحلى الى أى بلد آمن •

ثم اجتمع عليها نساء بنى هاشم وتلطفن معها فى الكلام وواسينها حتى قبلت الرحيل عن أرض الحجاز • وقد اختارت السيدة العقيلةزينب رضى الله تعالى عنها ، مصر دارا لاقامتها ، لما سمعته عن أهلها من محبتهم لأهل البيت النبوى الكريم ، وعظيم عطفهم ومودتهم وولائهم لذوى القربى ، ولما تعرفه من أن مصر كنانة الله فى أرضه ، من أرادها بسوء من جبار قصمه الله ، ولما سمعته بما حدثت به أم سلمة ، من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى بأهل مصر ، فقـــال :

« انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما » •

وفى رواية ، أنه صلى الله عليه وسلم قال

« انكم ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، فاذا فتحتموها فأحسنوا الى أهلها فان لهم ذمة ورحما » ، أو قال : « ذمة وصهرا »، (رواه مسلم) •

وقد صحب السيدة الكريمة فى مجيئها الى مصر بعض أهل البيت الكرام • وكان فيمن صحبها من أهل البيت النبوى الكريم ــ كما يروى البعض ــ السيدة فاطمة ابنة مولانا الامام الحسين ومسجدها معروف بالقاهرة باسم مسجد السيدة فاطمة النبوية ، وكذلك السيدة سكينة ابنة مولانا الامام الحسين ومسجدها معروف بالقاهرة كذلك باسمها ، وبهذا قال محمد بن عبد الله عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن الحسن ابن الحسن رضى الله عنهم جميعا •

وبالاسناد المرفوع الى على بن محمد بن عبد الله ، قال :

ــ لما دخلت مصر فى سنة ١٤٥ هجرية ، سمعت عسامة المعاقرى يقول ، حدثنى عبدالملك بن سعيد الأنصارى ، قال حدثنى وهب بن سعيد الأوسى عن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصارى ، قال ، رأيت زينب بنت على بعد قدومها بأيام ، فوالله ما رأيت مثلها وجها كأنه شقة قمر .

وبالسند المرفوع الى رقية بنت عامر الفهرى ، قالت :

ــ كنت فيمن استقبل زينب بنت على لما قدمت مصر بعد المصيبة ، فتقدم اليها مسلمة بن مخلد الأنصارى ، وعبد الله بن الحرث ، وأبو عميرة المزنى ، فعزاها مسلمة فبكى ، فبكت وبكى الحاضرون وقالت : « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون » .

وكان مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر ، قد توجه ومعه جماعة من أصحابه ورهط كبير من أعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها ، ليكونوا فى شرف استقبال السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، عندما تطأ قدماها الشريفتان أرض الكنانة ، فاستقبلوها جميعا استقبالا حافلا بليق بمقامها الكريم ، عند قرية على طريق مصر والشام ، شرقى مدينة بلبيس بمحافظة الشرقية . وقد عرفت هذه القرية فيما بعد باسم قرية العباسة نسبة للعباسة ابنة أحمد بن طولون .

وقد وافق دخول السيدة الطاهرة مصر ، بزوغ هلال شعبان سنة احدى وستين هجرية ، الموافق ٢٦ ابريل سنة ٦٨١ ميلادية ، وكان قد مضى على استشهاد شقيقها الامام أبى عبد الله الحسين رضى الله تعالى عنه ستة أشهر وأيام .

ولقد قال أحد الشعراء فى اختيارها مصر دارا لاقامتها :

لما رجعت من الشآم ليثرب ... من بعد فاجعة الامام الحسين
طلبوا اليك الظعن للبلد الذى ... تستوطنينه خارج الحرمين
فاخترت مصر فرحبت بك وأنثنت ... تهتز من شرف على الكونين

وقد أنزلها الوالى هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحا لها ، اذ كانت تشكو ضعفا من أثر ما مر بها ، فنزلت بتلك الدار معززة مكرمة ، وبقيت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم ،حيث كانوا

يفدون الى منزلها الكريم ملتمسين بركتها ودعواتها ، مستمعين الى ما ترويه من الأحاديث النبوية الشريفة والأدب الدينى الرفيع .

وبقيت العقيلة السيدة زينب بتلك الدار ، أقل من عام بقليل ، فلم تر خلال مدة اقامتها الا عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تالية لآى الذكر الحكيم .

وقد انتقلت رضوان الله عليها عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب سنة ثنتين وستين من الهجرة ، الموافق ٢٧ مارس سنة ٦٨٢ ميلادية ، فمهدت لها الأرض الطاهرة مرقدا لينا فى مخدعها من دار مسلمة ، حيث أقامت وحيث اختارت أن تلقى فيها ربها الكريم ليكون مضجعها الأخير .

وصار مقامها حيث ووريت الثرى ، مزارا مباركا يفد اليه المسلمون من كل حدب وصوب ، يتبركون به ويسألون ربهم فيه صالح الدعوات .

وفى هذا المقام الطاهر المعروف بالحرم الزينبى أو المسجد الزينبى أو مسجد السيدة زينب ، حيث أطلق اسمها على الحى كله ، يقول الشاعر :

هذا ضريح شقيقة القمرين ... بنت الامام شريفة الأبوين
وسليلة الزهراء بضعة أحمد ... نور الوجود وسيد الثقلين
نسب كريم للفصيحة زينب ... شمس الضحى وكريمة الدارين

هذا قبس من تاريخ حياة العقيلة الطاهرة ، سليلة المجد وزهرة أهل البيت السيدة زينب بنت الامام على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهما ، ومنه نقف على ماغمض من حياة جرى النبل فى ركاب صاحبتها ، وتسابقت الفضائل بين يديها ، وتكاملت الصفات فى ثناياها ، وانطبعت محامد الخصال على لألاء صفحتها ، وتفجرت جلائل الأعمال من ينبوع همتها .

سيدة كانت ومازالت فخر النساء ، حملت علم الجهاد ، وشاركت الرجال فى الضراء ، وألزمت أعداءها الحجة ببليغ منطقها وفصيح خطابها ، فباتوا يخشون على سطوتهم وجبروتهم بأسها ، ويعملون ألف حساب لحماستها ، ولكن لم يغنهم حسابهم ولم يفدهم تدبيرهم نفعا .

سيدة غلبت القادة ، فراعهم منها أنها أحبطت سياستهم ، وأفسدت تدبيرهم ، وهى العزلاء الا من قوة الحق وحرارة الايمان •

عملوا ما وسعه جهدهم لاسكاتها ، وجربوا معها التهديد والوعيد ، فما كانت تخشى شيئا الا أن يضيع الحق بين قعقعة سلاحهم وصخب تهديدهم ، فكان صوتها يعلو دائما على أصوات الباطل ، وحجتها دائما تمحق الزيف ، ومنطقها يخمد أنفاس اللجاجة •

حملت رضوان الله تعالى عليها ، من بلد الى بلد كيلا تمكن من أن تجمع حولها أنصارا يشايعونها ، ولكنها كانت فى كل بلد تحل بها ، سرعان ما يقبل عليها الأنصار ويتعلقون بها ويؤيدون قضيتها ، حتى اذا هبطت مصر ، خرج أهلوها يستقبلونها أبلغ استقبال ، وأحلوها فى نفوسهم محل التقدير والاجلال ، فكانت دارها كعبة القصاد وطلبة الرواد •

ولما قضت رضوان الله تعالى عليها ، تحولت دارها الى مزار ، فكان ضريحها مهبط الرحمات ومقام الدعوات ، فلا غرو فهى حفيدة الرسول الكريم ، نفعنا الله بها وأفاض علينا من بركاتها •

حب آل النبـــى خـــالط قلبـــى وسرى فى مفاصلى فاعـــذرونى
أنا والله مغـــــرم بهواهـــــم عـــللونى بذكـــرهم عـــــللونى

* * *

المدائح الزينبية

ان محبى أهل البيت النبوى الكريم ، يفصحون عن شعورهم وتقديرهم واجلالهم لأهل بيت النبوة فى كل مناسبة تمر ، فينتهزونها ليدلوا بدلوهم فى بحر تلك المحبة ، وهو واسع عميق لا غور له ، فتنطلق حناجرهم وأقلامهم بما تجود به القرائح النقية فى هذا المجال •

وان من أعظم المناسبات التى ينتهزها هؤلاء ، مناسبة الاحتفال بذكرى موالد أهل البيت • فما تجىء ذكرى مولد أحد من أهل البيت رضى الله تعالى عنهم جميعا ، حتى تلقى القصائد والكلمات فى مديحهم وتعداد مآثرهم ومناقبهم •

وما يكاد يدنو الاحتفال بذكرى مولد العقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وأرضاها ، حتى يتسابق الشعراء والأدباء الى نظم الكلمات التى تعبر تعبيرا صادقا عن حقيقة محبتهم وولائهم لصاحبة الذكرى الكريمة ، فمنهم من يلقيها شفاهة ، ومنهم من يتولى طبعها وتوزيعها على جمهور المحتفلين بالذكرى •

ولا يمكن أن يتسع المقام هنا لايراد كل ما يلقى أو يقال فى هذه المناسبة الجليلة ، فذلك يحتاج الى مئات المجلدات الضخمة ، ولهذا نجتزىء ببعض ما ألقى أو طبع ونشر بعد تقديم تعريف موجز بصاحب كل قصيدة •

وتعتبر قصيدة الشاعر العربى الكبير دعبل بن على الخزاعى فى محبة أهل البيت ، من أحسن ما قيل أو كتب •

ولقد كان دعبل المتوفى فى سنة ٢٤٦ هجرية من الشيعة ، وقصد بقصيدته ، على بن موسى الرضا رضى الله تعالى عنه بخراسان • وهذه هى القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات[1]
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات[2]
ديار علي والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذي الثفنات[3]
ديار عفاها جور كل منابذ ولم تعف بالأيام والسنوات[4]
منازل كانت للصلاة وللتقى وللصوم والتطهير والحسنات
منازل ، جبريل الأمين يزورها من الله بالتسليم والرحمات
قفا نسأل الدار التى خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات ؟
وأين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين فى الآفاق مفترقات[5]
وما الناس الا حاسد ومكذب ومضطغن ذو احنة وترات[6]
اذا ذكروا قتلى ببدر وخيبر ويوم حنين أسبلوا العبرات[7]
لهم كل حين نومة بمضاجع لهم فى نواحى الأرض مختلفات
وقد كان منهم بالحجاز وأهلها مغاوير يختارون فى السروات[8]
ملامك فى أهل النبى ، فانهم أحباى ــ ماعاشوا ــ وأهل ثقاتى[9]
تخيرتهم رشدا لأمرى ، فانهم على كل حال خيرة الخيرات
فيارب زدنى فى يقينى بصيرة وزد حبهم ــ يارب ــ فى حسناتى
بنفسى أنتم من كهول وفتية لفك عناة أو لحمل ديات[10]
أحب قصى الرحم من أجل حبكم وأهجر فيكم أسرتى وبناتى[11]

---

(١) المقفر : الخالى من الناس . والعرصات : ساحات الديار .
(٢) أسماء مواضع بمكة لا تزال قائمة لأداء الشعائر الدينية .
(٣) على بن أبى طالب ومن بعده من نسله وشيعته الذين نالهم من حكام بنى أمية التشتيت والقتل . الثفنات : الأثر الذى يتركه السجود أو القعود منه فى عظام الركبة أو القدم .
(٤) عفاها : محاها . والمراد أن ديار أهل البيت محاها ظلم أعدائهم وليس مرور الأيام والسنون .
(٥) الألى : الذين . شطت : بعدت . الأفانين : الأحوال والأنواع .
(٦) المضطغن : الحاقد . الاحنة : العداوة . الترات : جمع ترة وهى الثأر .
(٧) أسماء مواقع كانت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأعدائه ابان الدعوة . أسبلوا : ذرفوا .
(٨) المغاوير : جمع مغوار ، وهو الكثير الغارات . السروات : السادات
(٩) أى دع لومك اياى فى مدحى آل البيت وحبى لهم .
(١٠) العناة : جمع عان وهو الأسير . يعنى أنهم يفكون الأسرى ويحملون الديات عمن تلزمه .
(١١) قصى الرحم : بعيد القرابة . يقول أحبكم وان كانت صلتى بكم بعيدة ، فقد كان يمنيا وهم مضريون من مضر .

وأكتم حبيـــكم مخـــافة كاشـــــح عنيد لأهل الحـــق غير مـــوات[1]
لقد حفت الأيام حولى بشرهـــــا وانى لأرجـــو الأمن بعـــد وفاتى
ألم تر أنى من ثـــلاثين حجـــة[2] أروح وأغـــــدو دائم الحسرات ؟
أرى فيئهم فى غـــيرهم متقســـما وأيديهم من فيئهم صفرات[3]
فآل رسول الله نحف جســــــومهم وآل زيـــاد حفـــل القصرات[4]
بنات زياد فى القصور مصـــــونة وآل رســـول الله فى الفـــلوات[5]
اذا وتروا مدوا الى أهل وترهـــم أكفـــا من الأوتار منقبضـــات[6]
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غد لقطع قلبـــى اثرهم حسرات[7]
سأبكيهم ما ذر فى الأرض شـــارق ونادى منادى الخير بالصلوات[8]
وما طلعت شمس وحـــان غروبهـــا وبالليـــل أبـــكيهم وبالغدوات[9]

* * *

أما العارف بالله ، الصوفى الورع ، الزاهد العالم ، النقى التقى ، سيدى الشيخ عبد الله الشبراوى ، فله قصائد فى أهل البيت النبـــوى رضوان الله تعالى عليهم ، عبر فيها وبها عن صادق ولائه واجلاله لهم ، وأوضح فيها ما هم عليه من صفات كريمة نادرة لا تجتمع فى غيرهم . وقد جاء فى احدى قصائده العصماء ما يأتى :

أجـــل بنى الدنيـــــا وأشرف أهلهـــــا
وأنداهــــم كفـــا وأعــــلاهم قـــــدرا
هم القـــــوم ان قابلت نور وجوههـــــم
رأيت وجـــوها تخجـــل الشـــمس والبدرا

---

(١) الكاشح : من يضمر العداوة . المواتى : المناصر والموافق .
(٢) الحجة بكسر الحاء : السنة .
(٣) الفىء : الخراج والغنيمة . صفرات : خاليات .
(٤) حفل القصرات : ضخام الأعناق ، كناية عن سمنتهم .
(٥) زياد بن مرجانة عامل يزيد بن معاوية ، وآثامه مع اهل البيت لا تنسى . الفلوات : الصحارى .
(٦) وتروا : ظلموا . والوتر : الظلم والانتقام . والأوتار : جمع وتـــر بفتح التاء وهو معلق القوس . والمعنى أنهم اذا ظلموا لا يستطيعون دفع الظلم عن انفسهم .
(٧) يعنى : لولا ما ارجوه لهم من حسن الحال او المثوبة لتمزق قلبى من الحسرة والحزن عليهم .
(٨) ما ذر شارق : ما طلع نجم .
(٩) الغدوة : ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس .
والمعنى ، انه يذكرهم فى كل وقت ولا ينساهم .

وان سمعت أذناك حسن صنيعهم
وجبت حماهم صدق الخبر الخبرا
لهم أوجه نور النبوة زانها
بلطف سرى فيهم فسبحان من أسرى
هم النعمة العظمى لأمة جدهم
فيا فوز من كانوا له فى غد ذخرا
اذا فاخرتهم عصبة قرشية
فجدهم المختار حسبهم فخرا
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم
سوى الاسم وانظرهم تجدهم به أحرى(1)

* * *

ومن قصيدة بليغة عصماء لفضيلة الشيخ محمد الطاهر الحامدى ، كما جاءت فى كتاب « السيدة زينب المثل الأعلى للفضيلة والعفاف » للجنة نشر العلوم والمعارف الاسلامية ، يقول فضيلته :

أأقصد آل أحمد خير آل ... وأخشى بعد ، من حدث الليالى
هم الأمراء سادات البرايا ... وأرباب المفاخر والمعالى
حماة الدين لم يألوه جهدا ... ولا أعياهمو طول النضال
أجل الناس منقبة وأندى ... وأسبقهم الى كرم الفعال
وأوفى الخلق ، ما ضنوا بوعد ... ولا شابوا المواعد بالمطال(2)
ومنذ قصدتهم لم أخش دهرى ... ولا حامت حوادثه حيالى
أأشقى بالخطوب وهم غياثى ... وأخشى النائبات وهم ثمالى(3)
جعلت حماهمو سكنى ودارى ... وتحت ظلالهم حطت رحالى
وكم جبروا سواى كسير قلب ... وكم كفلوا سواى فقير حال(4)
تمسك فى الحياة بهم وخذهم ... رجاءك فى المقام والارتحال
ويمم ربة الشورى تجدها ... تنيلك كل مرتخص وغال(5)

---

(1) أبيات وألفاظ هذه القصيدة واضحة المعانى وليست فى حاجة الى شرح .

(2) ضنوا : بخلوا . المطال : الامهال والتسويف .

(3) الخطوب : الحوادث والمصائب . ثمالى : عونى ورجائى وقوام حياتى .

(4) جبروا : طيبوا خاطر . كسير قلب : حزينه ومفجوعه .

(5) ربة الشورى : هى العقيلة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، كما تسمى أيضا صاحبة الشورى .

ولذ برحابهـا والـزم ثراهـا وفز باللثم منـه والاكتحـال
وسل ما شئت من دين ودنيـا ومـا أملت من جـاه ومـال
اذا أولتـك زينب أى لحـظ فلا تخش الخطـوب ولا تبـالى
بكفيهـا الجحيم لمن يعـادى ، وجنـات النعيـم لمن يوالى
وقفت ببابهـا ، أنسـل منـى بفضـل يمينها أى انسـلال
لهـا قدر يباهى الشـمس فخـرا ويصـغر دونه قـدر الهـلال
سـلالة فارس الهيجـا عـلى شـديد البأس فى وقت النـزال
وذات المجـد والحسب المعـلى ومـولاة الأكابـر والمـوالى
وفى بيت النبـوة قـد تربت على كرم الشـمائل والخـلال
وصينت بالعفـاف فلم يعبهـا سـوى حب الفضـائل والكمال
ولو كان النسـاء كمن ذكـرنا لفضلت النسـاء على الرجـال
فـكم كدحت لمولاهـا وكـدت بغـير تـردد وبـلا كـلال
وكم قامت تروم رضـاه ليـلا ونيران الحـوادث فى اشـتعال
ومـا ركنت الـى الدنيـا بقلب ولا خطـرت لهـا يوما ببـال
وما الدنيـا ؟ أتخطـر فى فؤاد عن اللـذات أصـبح فى اشتغال
نعيـم لا يغـرك سـوف يبلى وبورك فى نعيـم غـير بـال
نجـدد ذكر مولدهـا ونحيى لنحيـا بالجـوائز والنـوال
ونهتف باسـمها دومـا ونذكى شـذاه بالاحتفـاء والاحتفـال
بهـا نال الثـرى شرف الثريا وتاهت مصر فى حلل الجمـال
وأضـحى تربها الميمون يسـمو عـلى الـدر المنضـد واللآلى
وأمست كعبة القصـاد فيهـا وصـاحبة الرياسـة والمقـال
ألـم تشرف بزينب أرض مصر ؟ اذن كان الأوائـل فى خبـال
ولم شـادوا الضريح هنا وأمـوا حماهـا بالدعـاء والابتهـال
ضريح تسـطع الأنوار فيـه ويكسى بالمهـابة والجـلال
فيجحده الطغـاة بلا دليـل سوى الهذيـان من قيـل وقـال
أليس الأوليـاء لهـم مزايا وأطـوار تجـل عن المثـال
لهـم عنـد المهيمن مـا أرادوا من الاكرام والرتب العـوالى
بجاهك يا ابنـة الزهـراء لذنـا لنظفـر منـك بالمنن الغـوالى
ويممنـا ظـلالك ، والأمـانى وكل العـز فى تلك الظـلال
ألا ياربـة الشـورى أغيثى أخا كلف بحبـك غـير سـال[1]

---

(١) كلف : أحب وأولع . غير سال : غير ناس أو تارك .

له نفس تســـــارع للمنـــايا | وتسعى فى الشـــقاء بلا مـــلال
وقلب بات من درن المعـــــاصى | حليفـــا للســـقام والاعتـــلال
ومثـــلك مـــن يمن بغــــير مـــن | ومن يعطى الجـــزيل على التوالى
فمنـــى بالقبـــول وأســـعفينى | بود غـــير منصرم الحبـــال[1]
وكونى عنـــد جـــدك لى شـــفيعا | عسى بالقـــرب أسعد والوصـــال
فلا زال الســـــلام عليـــك يترى | من الله العـــلى بـــلا انفصـــال

* * *

ولقد أكرم الله تعالى فضيلة الأستاذ العالم الورع الشيخ أحمد فهمى محمد المحامى ، فأسكن قلبه محبة أهل البيت النبوى الكريم ، فألف فيهم كتبا عدة تعتبر بحق مراجع قيمة فى سيرتهم • فكتب عن السيدة العقيلة الطاهرة ، السيدة زينب مؤلفا نفيسا ختمه بمديح قيم له فى صاحبته جاء فيـــه :

مقـــام زينب مهوى كل خالصـــــة | من العبادة، تحبو من يواليهـــــا
بنت الرسول ومن لى أن أوفيهـــا | بما أرى من حقوق قل موفيهـــــا
انى أحس بأن المصـــــطفى معنا | فالروح فى هـــزة ممـــا يواتيهـــا
كأن نفسى قـــد طارت لعالمهـــــا | فقد ترانى بحـــال لست أدريهـــــا
فى نشـــوة تملك الوجدان روعتهـــا | تفوق روحتهـــــا الدنيا وما فيهـــا
لله زينب ما أوليـــت مـــن مـــــدد | يدعو لمكرمة ســـــبحان موليهـــــا
بنت الرسول تسامت فى كرامتهـــا | ونضر الله قبـــرا بات يحـــويها
بدا لشاهد عينى ضـــــوء غرتهـــا | وتلك أضـــواؤها عينى تلاقيهـــــا
فالصفو يكشف ما غابت مشـــاهده | عن العيون ونار الوجد تذكيهـــــا
فافتح بفاتحـــة القـــرآن قبتهـــا | فان رحمـــــة ربى فى نواحيهـــــا
فى مصر آل رســـول الله قد ملأت | أنوار مهبطهم أرجـــاء واديهـــــا
وانهـــم ســـــكن فى كل نائبـــــة | ودارهم حـــرم أمن لغاشـــيها
صـــــلى الاله على طـــه وعترته | وتلك زلفى كتـــاب الله يمليهـــــا

* * *

ولقد تضمن هذا المؤلف قصيدة أخرى للعالم اللغوى المرحوم الشيخ أحمد الكتانى ، جاء فيها :

لذ فى الشـــــدائد بابنـــة الزهراء | واقصـــد حماهـــا توق كل عنـــاء
هى زينب ذات المقامات العـــلا | وكريمـــــة الأجـــــداد والآبـــاء
هى ربة الشورى وغوث من التجا | بنت الامـــام وفارس الهيجـــــاء

(١) منصرم : منقطع .

أخت الحسين وجدكم خير الورى | أنتم اذا عز الرجـــاء رجـائى
مقامكم فى مصر كعبـــة أهلهـــا | يأتـــونه زمـــرا من الأنحـــاء
فاليـــك بعد الله أشـــكو علتى | فالداء أعضـــلنى وعـــز دوائى
فعسى بكم يا ســـادتى وبجدكم | من ضر ما أشكو يكون شـــفائى
قد أثقلتنى الســـيئات وما لهـــا | فى العـــد من حصر ولا احصـــاء
بل ليس لى من صالح الأعمـــال | أرجو بـــه تخفيف حمل بـــلائى
الا التجـــائى للنبى ونســـبتى | لجنـــابه العـــالى وحسن ولائى
صلى عليـــه الله ما سرت الصبا | أو فاح عرف المسك فى الأرجاء[1]
والآل والأصحاب ما شـــاد شـــدا | لذ فى الشـــدائد بابنة الزهـــراء

* * *

ولقد كان العالم العارف بالله ، المؤرخ المجاهد ، صاحب الصـــفات المشرقة ، الذى قدم للعلم والمكتبة الاسلامية والعروبة ، الكثير من الخدمات التى لا تقدر ، الاستاذ أحمد خيرى ، الحسينى النسب ، الحنفى المذهب ، الخلوتى المشرب ، ممن أدلى بدلوه فى هذا المضـــمار الواسع عن علم وخبرة ودراية • فقد عكف على حفظ القرآن الكريم وانكب على مطالعة كتب التفسير والحديث والأدب والتاريخ ، حتى نال منها مبتغاه ، فنظم الشعر الرفيع حتى صار له من شعره ديوان خاص فى مجلدين ، وفيه مجموعات تتعلق بحبه ومدحه لأهل البيت ، فكان يقول :

ــ « انى فى حبهم وفى بغض خصومهم لا أكتفى بأن أكون شيعيا واحدا ولكن سبعة من الشيعة يكررون عشر مرات ليكون الناتج سبعين شـــيعيا » •

عاش ــ رحمة الله عليه ــ فى روضة خيرى من أعمال محافظة البحيرة ليدير شئون مزارعه وأملاكه بعيدا عن المدينة وضجيجها ، فأفاد من حياة الريف وسكناه ، وانقطع للاطلاع والعلم ، فنهل من مكتبته الكبيرة التى حوت أكثر من سبعة وعشرين ألف كتاب مطبوع ومخطوط ، فساعده ذلك على أن يبرز للقارئين بلغة الضاد ، العديد من الأبحاث القيمة التى نالت نجاحا يستدل الاعجاب ، ويبعث على التبجيل والتقدير •

ولقد نظم قصيدة فريدة فى السيدة العقيلة الطاهرة السيدة زينب ، أسماها القصيدة الزينبية ، اليك نصها وشرحها :

---

(١) الصبا هو اسم لرياح تعرف به . عرف : رائحة .

أريج كعرف المسك أو هـو أطيب ... ونور كضوء الشمس بل هو أغلب[1]
وفخـر تناهى لا يسامى عـلوه ... وذكر اليه القلب يهفو ويرغب[2]
وجاه عظيم لا يحـاط بكنهـه ... وجار يرى فيه السـلامة مذنب[3]
وحـرز اذا ما المزعجـات تكأكأت ... وكهف اذا اشتد الزحام ومطلب[4]
وعـز به يعلو النزيل على الورى ... وسر به النابى يسـل فيعضب[5]
وعزم كطود شـامخ متوطـد ... وحزم كمشحوذ السنان مذرب[6]
وفـرع الى دوح المكارم ينتمى ... وبنت الى خـير النبيين تنسب[7]
وباب يحـط الوزر فى عتبـاته ... ويأمن فيـه من يخـاف ويرهب
وقبر حوى طهراً وخيراً وعفـة ... به بنت زهـراء الفواطم زينب[8]
يفاخـر أرماسـا سـواه بأنه ... ثوى فيه من بضع النبوة كوكب[9]
تعال بليغ القول وابلغ بى المـدى ... فمـدح بنى طـه الى محبب
بحار يحـار المرء فى وصف ما بها ... وان ظل طول الدهر يحصى ويكتب
هم الدين والدنيا هم الصفو والصفا ... هم الانس والزلفى هم الأم والأب[10]
اذا ذكـر آل البيتِ دار بمجلس ... رأيت الرضا ينثال والعفو يألب[11]
ففى القلب كافور وفى الفم شـهدة ... وفى الأذن تغريد وفى الأنف زرنب[12]
وحبهـم المنجى اذا ما منحتـه ... فان جنان الخـلد تدنو وتقـرب

---

(١) الأريج : توهج ريح الطيب وفوحاته . والعرف بفتح فسكون : الرائحة.
(٢) تناهى : بلغ أى انتهى الى غايته . والذكر هنا الصيت والثناء . ويهفو : يطير ويخفق ويحن .
(٣) كنهه : نهايته .
(٤) تكأكات : ازدحمت .
(٥) النابى : السيف الذى لا يعمل . ويعضب : يقطع .
(٦) الطود : الجبل العظيم . متوطد : ثابت . المشحوذ : المسنون . المذرب : المحدد .
(٧) الدوح : الشجر العظيم .
(٨) زهراء الفواطم : هى السيدة فاطمة الزهراء بنت مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم . والمراد بالفواطم جداتها وهن فاطمة بنت سعد أم قصى ، وفاطمة المخزومية أم عبد الله والد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفاطمة بنت زائد أم أمها السيدة خديجة الكبرى رضى الله تعالى عنها .
(٩) أرماسا : جمع رمس وهو القبر . وثوى : اقام .
(١٠) الصفو : الخلاصة . والصفا من الصفاء ضد الكدر . والزلفى : القربة والمنزلة .
(١١) انثال : تتابع وانصب . ويألب : يأتى من كل جانب .
(١٢) الكافور : مما يستعمل لتقوية القلب . والشهدة : القطعة من الشهد ، والزرنب : نبات طيب الرائحة .

فطوبى لعبد قد غدا متوشحا ... بحب بنى الزهراء فى يوم نكرب[1]
ولدت كنجم بعد بدرين أسفرا ... بكم أمست الشمس الوضيئة تعقب[2]
ففى شهر شعبان المكرم بعد ما ... مضت خمسة ضاءت بنورك يثرب[3]
نشأت على التقوى بارشاد وآلد ... تقى وأم فى العبادة تدأب[4]
وبين جلال الوحى ينزل بالهدى ... وفى حجر خير الخلق يحنو ويحدب[5]
وخصك ربى بالمزايا فريدة ... كما خص قدما بالفصاحة يعرب[6]
فأمك خير المحصنات وبعلها ... له النص يقضى بالولاء ويوجب[7]
وجدك طه سيد الرسل كلها ... اليه غدا كل الخلائق تذهب[8]
وزوجك عبد الله من صلب جعفر ... كريم «جواد» فى المآثر مطنب[9]
فهذا هو الفخر الرتيب وانما ... يزول اذا ما وهن الصخر علهب[10]
حفظت على التاريخ ذكرا مشرفا ... تقاصر عنه أعجمى ومعرب
فكم لك يا بنت الرسول مواقف ... وآلك مقتول وعان ومغرب[11]
رأيت خطوبا أذهلت كل مرضع ... وصيرت الأرحام تفرى وتشعب[12]

---

(١) نكرب : يشتد بنا الكرب ، والمراد يوم القيامة .

(٢) المراد بالشمس الوضيئة : النبي صلى الله عليه وسلم ، والمعلوم أنه صلى الله عليه وسلم ليس له ذرية باقية الا من سلالة البدرين النيرين الحسن والحسين وشقيقتهما زينب خلاصة الزين رضى الله تعالى عنهم جميعا .

(٣) يثرب : من أسماء المدينة المنورة حيث ولدت رضى الله تعالى عنها .

(٤) تدأب : تجد وتتعب وتلازم .

(٥) يحدب : يعطف ويشفق .

(٦) يعرب : هو يعرب بن قحطان احد ملوك العرب فى الجاهلية ومن خطبائهم وحكمائهم .

ويقال أنه وأبوه أول من دعا الى الاحتفاظ بأساليب لغتهم بعد ان دخلتها لغات الأمم الأخرى .

(٧) اشارة الى افضلية السيدة فاطمة الزهراء رضى الله تعالى عنها على كل النساء لأنها بضعة الرسول صلى الله عليه وسلم . وبعلها هو الامام على بن ابى طالب كرم الله وجهه . وولاؤه منصوص عليه فى الآية الخامسة والخمسين من سورة المائدة ، ومأثور فى حديث الولاء المتواتر المشهور .

(٨) ذهاب الخلق اليه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة محقق .

(٩) مطنب : مبالغ ومجتهد ، وعبد الله بن جعفر ممن حفلت كتب التاريخ والأدب بذكر جوده وسخائه المفرطين .

(١٠) الرتيب : الدائم والثابت . العلهب بفتح فسكون : التيس من الظباء الطويل القرنين ، أى أن فخر السيدة زينب ساطع فى الدنيا ما دامت ، نافع اذا القيامة قامت .

(١١) عان : أسير . ومغرب : من اغرب صار غريبا .

(١٢) تفرى : تقطع . وتشعب : تفرق ، على البناء للمجهول فى الأفعال الأربعة .

فلم يضطرب منك الجنان ولم يهن عزيم ولا لب يحـــول ويشغب[1]
ومـــا ذاك الا من يقينـــــك أنـــه اليـــه به منـــه نفــــر ونهــرب
ففي الطف أو في الشام جاشك رابط وحجتك العليا وخصمك روسب[2]
وحـــين آرادوا الشـــبل لولا تعلق بدمنك ان كاد الحســام لينشب[3]
فلولاك ما كنا وما كان واحــــد عليها الى الفرع الحسينى ينسب
ويوم التقى الجمعـــان ظهرا بكربلا وقام فـــريق النـــار للآل يطلب
زنيم دعـــى فى قـــريش غـــــدا له
جيوش تعادى نجل طـــه وتضرب[4]
ولولا قضـــــاء الله مـــا خـــر ضيغم
صريعا وما نـــال الســـــيادة فـــرنب[5]
ولكنهـــــا الدنيـــا بـــــلاء وغـــربة
وهـــم وغـــم وامتحـــــان وعـــوطب[6]
ولمـــا هـــوى الضرغام وانتهك الحـــمى
وأطمع فى الأروى ذئـــاب وأكلب[7]

---

(١) الجنان : القلب . وعزيم وعزيمة وعزم كله واحد ، واللب : العقل . ويحول : يتغير . ويشغب : يهيج الشر .
(٢) الطف : موضع استشهاد الامام الحسين عليه السلام . والجاش : النفس . والروسب : الداهية . والمراد ، أنه على الرغم من أن خصومها كانوا أشد من الدواهي ، فقد كانت دائما رابطة الجاش راجحة الحجة .
(٣) الشبل : ولد الاسد . والمراد سيدنا على زين العابدين عليه السلام المتوفى سنة ٩٤ هجرية . والحسام : السيف القاطع . وينشب : يعلق . وفى البيت اشارة الى ما أراده البغاة من قتل سيدنا على زين العابدين لولا تعلق عمته به واصرارها على أن تقتل معه . ولو حدث ذلك لانقطع نســـل الحسين عليه السلام .
فللسيدة زينب فضل على كل حسينى .
(٤) الزنيم : المستلحق فى قوم ليس منهم . والدعى : من تبنيته . والمراد، عبيد الله بن زياد وأبوه زياد عرف بابن أبيه وهو اصطلاح يطلق على أولاد الزنا الذين لا يعرف آباؤهم . وقد استلحقه معاوية وجعله أخاه وسجل على والده أبى سفيان الزنا ليكسب زيادا الذى كان من التواد الدهاة . وكانت هذه الكبيرة من بوائق معاوية التى أخذت عليه . ومن هوان الدنيا على الله ، أن يجد ابن الزنيم الدعى جيوشا تعاونه على قتل ابن سيد العرب والعجم .
(٥) الضيغم : الأسد. والفرنب بكسر الفاء، فسكون فكسر : الفأر، وأيضا ولد الفأرة من اليربوع .
(٦) العوطب : الداهية .
(٧) الضرغام بكسر الضاد : الاسد . الأروى جمع أروية : الأنثى من الوعول ، والوعل : تيس الجبل ، وورد فى الحديث تشبيه الأشراف بالوعول =

وسـيق كسـوق البهـم آل محمـد
وهام ذوى القربى على السمر تشخب[1]
الـى شر خلـق الله يـروى غليـله
ويجعل آل البيت السـبى يوهب[2]
هنـاك انبرت بنت النبى بمقـول
فصيح كليث يسـتباح فيغضـب[3]
ودونت الأسفـار درا وجوهـرا
وأصغى اليها القوم اذ هى تخطب[4]
وألجـم أهـل الشـام بالحق واضحـا
وسجـل فخـر للنسـاء مـرتب[5]
وليس عجيبـا ذلك الجـأش بينمـا
نرى الناس تغشى من قليل وتوصب[6]
فان بنى طـه رجـالا ونسـوة
من الشم أرسى فى الخطـوب وأصلب[7]
وعـادت الى قبـر النبى بركبهـا
الى الله تشـكو والتحمـل يغلب
مثال الرضـا والصـبر والأنس بالقضـا
فليسـت بمقـدور تضيق وتطـرب[8]

= لأنها لا ترى الا فى رءوس الجبال . وأكلب جمع كلب ، والقافية ظلمت الكلب: فان فيه وفاء لم يكن فى البغاة الذين آذوا أهل البيت عليهم السلام .

(1) البهم بفتح فسكون : أولاد الضأن . وهام : رءوس . والسـمر : القنا ، وهى الرماح . وتشخب : يجرى دمها .

ولعل ذلك كان فى نظر البغاة من المودة التى وردت فى حق ذوى القربى فى سورة الشورى .

(2) السبى بفتح فسكون : أسرى الحرب ، وهم فى حكم الرقيق . وفى البيت اشارة الى سؤال أحد أهل الشام ، يزيد بن معاوية أن يهب له فاطمة بنت الحسين وتعلقها بعمتها السيدة زينب لتمنع ذلك .

(3) انبرت : اعترضت . المقول بكسر الميم وسكون القاف وفتح الواو : اللسان . الليث : الأسد .

(4) الأسفار : الكتب . الدر : اللؤلؤ . وخطبة السيدة زينب رضى الله عنها فى أهل الشام من بلاغات النساء الخالدة .

(5) مرتب : دائم وثابت .

(6) الجأش هنا : القلب ، والمراد قوته . وتغشى : تدهى على المجهـول فيهما . وتوصب على المجهول : تمرض .

(7) الشم بضم الشين : الجبال الطويلة الرءوس . أرسى : أشد ثباتا .

(8) تطرب من الطرب : وهو خفة تصيب الانسان لشدة حزن أو سرور ، والمراد هنا الحزن .

وضايقهـــا العمـــال خيفـــة ذحلهـــا
وهل عـــن كـــريم قتلة الأخ تعـــزب[1]

أتت مصر فى شعبان نورا ورحمة
كشمس الضحى فى آخر اليوم تغـــرب

وفى رجب مـــاتت لعشر وأربـــع
لثـــالث عـــام بعـــد ستين تحسب[2]

وذلك فى يـــوم الثـــلاثاء اذ غـــدت
تجـــاوز مولاهـــا وأحمـــد تصـــحب

تطـــاول مصر الشرق أن دفنت بهـــا
ويعتـــز أن ضـــم المفاخر تـــورب[3]

ويهتـــز نهـــر النيـــل أن جاور العلا
ويطرب من تيـــه فيحلـــو ويعـــذب

وتعمـــر بالحمـــراء دور وأقصـــر
وتصـــبح أحيـــاء وترقى وتخصـــب[4]

كنـــانة ربى مصر فاختـــار منعما
لها من بنى المختار والخير ينجب[5]

---

(١) الذحل بفتح فسكون : الثار . تعزب بالعين المهملة : تغيب وتبعد ، والمراد بالعمال أهل السلطة من ذيول بنى أمية الذين كانوا يخشون بقاء السـيدة زينب فى المدينة حيث يلتقى بها الحجاج من كل قطر فتثيرهم على بنى أمية ، فطلبوا منها مغادرة الحجاز .

(٢) الثابت أن السيدة زينب رضى الله عنها جاءت مصر فى شعبان سنة احدى وستين ، وانها انتقلت الى الدار الآخرة فى سنة ثنتين وستين أى بعد أحد عشر شهرا ونصف الشهر .

(٣) الشرق هنا : الشمس . التورب : هو التراب . وفى البيت تورية توهم أن المراد من الشرق المشرق ، وهذا لا يعقل ، لأن مصر لا تستطيع بالسيدة زينب ولا بمولانا الحسين رضى الله عنهما مطاولة المشرق ، ففيه طه عليه الصلاة والسلام .

(٤) الحمراء : اسم لما كان بين الفسطاط وبين المسجد الزينبى حالا، وكانت خرابا يبابا ، واصبحت الآن من أعمر احياء القاهرة .

(٥) الكنانة : التى تجعل فيها السهام ، وفيه اشارة الى حديث « مصر كنانة الله ... » وان ضعفه المحدثون . الا أن المأمول فى كرم الله تحقيقه دائما بحفظ مصر . وبنى المختار : هم آل البيت النبوى عليهم السلام . وينجب : يأتى بنجيب أى كريم .

أراد بنـــا خـــيرا فكثـــر بيننـــا
سـلالة خير الخلق فانجاب غيهب(١)
فشـكرا لك اللهـم أن حل مصرنـا
أمـان ونـــور حيث نسرى ونسرب(٢)
نـروح اليهم كلمـا اشـتد معضـل
وساحات أهل الفضل للحاج ترحب(٣)
فننــزل بالأبــواب أكــرم منــزل
ونغـدو بمـا نهوى ونرجو ونأرب(٤)
نـــزيل بنـــى طـــه عـــزيز مـكرم
ويفخر مغبـــوطا نـزيلك زينب(٥)

* * *

وممن سرى حب أهل البيت النبوى الكريم فى نفوسهم ، الأديب الفاضل الأستاذ أحمد موسى عفيفى مراقب عام الشئون القانونية بهيئة البريد بالجمهورية العربية المتحدة ، فآلى على نفسه أن يصوغ كل عام قصيدة عصماء يلقيها بنفسه فى الاحتفال بذكرى مولد العقيلة الطاهـرة الزكية السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، يعبر فيهـا عن مدى تعلقه بـأهل البيت النبـوى ومقدار محبته واجلاله لهم ، مصداق ذلك قوله :

حبـى لآل البيـت حـب تعـــلق
بمحمـــــد هـادى الـــورى المختار
ومحبتـــى لمحمـــــد بعض الـذى
فى مهجتـــى للواحـــد الغفـــــار

ومن قصيدة طويلة دبجها يراعه فى احدى هذه المناسبات ، يذكر أهل البيت النبوى الكريم وما لاقوا فى حياتهم من محن وآلام ، جاء فيها :

ياخـــير ملهمـــة للشـــعر والنغـم
لولاك ما همت أو ما لان لـى قلمـى

---

(١) انجاب الظلام : انشق . الغيهب بفتح المعجمة فسكون ففتح : الظلمة .
(٢) نسرى : نسير ليلا . نسرب : نسير سيرا ظاهرا ، كناية عن سير النهـار .
(٣) المعضل : ما لا يهتدى لوجهه وحله . الحاج بدون تشديد الجيم : جمع الحاجة كالحاجات . ترحب : تتسع .
(٤) نأرب : نحتاج .
(٥) المغبوط : من كان فى حالة يتمنى مثلها الناس .

ألهمتنى الحب فى أعلا مراتبه
وربَّ عاطفه كالنـور فى الظلم
أدركت ما لم أكن من قبل أدركه
وكنت قبل رفيع الحب فى صمم
حب سرى فى حنايا النفس فاعتدلت
ملء الضلوع ولولا الحب لم تقم
مهما يكن فى طريق الحب من نصب
فالحب كالطرق للفولاذ والضرم[1]
فى آل بيت رسول الله لى أمل
ولى غرام بهم يزداد من عشمى
هم صفوة الخلق كل الناس دونهم
من ذا يدانيهم فى النبل والشيم[2]
وهم بما تركوا فى الأرض من أثر
أهل بكل رفيع القدر فى النسم[3]
هم زينة الأرض لا يبلى تراثهم
كهذه الشمس لا تبلى من الهرم[4]
عاشوا سنين ككل الخلق وارتحلوا
لكنهم سنن تبقى بلا قدم[5]
لا غرو ان بلغوا فى المجد ذروته
فهم سلالة خير الخلق كلهم
طه النبى رسول الله جدهم
فأى نور مشى فى صلبهم ودم
عن النبى امام الرسل قد ورثوا
جوامع العلم والعرفان والقيم
مهما أقل فيهم فالقول مختصر
قد جاوزوا الوصف واستعصوا على الكلم[6]

---

(١) النصب بفتح النون والصاد : التعب . الضرم : اشتعال النار
(٢) الشيم : الأخلاق .
(٣) النسم : الناس .
(٤) الهرم : كبر السن وتقدمه .
(٥) سنن جمع سنة : وهى السيرة .
(٦) استعصوا على الكلم : صعب على الكلام أن يفيهم حقهم .

هــذا الحســين شهيد الحق ألمحــه
كالبــدر والقمــة الشــماء والعلم[1]
نــور من الله فــوق النــور مؤتــلق
فى الوجنتــين من الايمــان والحــكم
يا ويــل قاتــله فى الحشر من سقر[2]
فالله منتقم بــل خــير منتقــم
انى لأذكــر والــذكرى مروعـــة
فأذرف الدمع من جــار ومنسجم[3]
ومن خــلال دموعى لاح لى قمــر
يلفــه النــور من رأس الى قـــدم
بــل زينب فى ثيــاب الطهــر قائمة
ومن سواها نهى نفســا عن الحرم[4]
لهـــا بقلبى فــوق الحــب منزلــة
وما لــــزينب الا حــب محتشـــم
من أجلهــا لا أبالى النــار تحــرقنى
ولا تــرانى ســوى راض ومبتســم
بــلابل الشعر فى صــدرى مغــردة
تشدو لزينب أسمى اللحن والرنم[5]
لولا الحبيبــة لم أصدح على فنن[6]
وما أجــدت غنــائى أو فتحت فــمى
يا آل بيت رســـول الله معـــذرة
اذ بحت بالحب رغم العزموالشكم[7]
ما كان فى الطوق[8] بين الصدر أكتمه
وجارف الحب فــوق الطــوق والهمم

(١) الشماء : المرتفعة . العلم : الجبل .
(٢) سقر : اسم من أسماء جهنم .
(٣) منسجم : سائل على الخدين .
(٤) الحرم : الحرام .
(٥) الرنم : الصوت .
(٦) الفنن : الغصن .
(٧) الشكم جمع شكيمة : وهى قوة النفس والاباء .
(٨) الطوق : الطاقة والاحتمال .

والحب كالعطـر لا تخفى روائحـــه
مهمـا بـــلابلنـا صامت عن الـكلم

يا أم هاشم[1] هـذا الحب يحمـله
صـب يهيم كمـا من قبـل لم يهم

يرى بروضــك للابــواب محتضـنا
ما بـين ملتصـق فيهـا ومستلم[2]

هذى خلاصـة قلبى جئت اعصرهـا
عصرا لديــك بـلا أجـر ولا سـأم

فى كل عام مدى عمـرى أقـــدمها
ومن ســـواى بمـوعود وملـتزم

هــذا هواى بطى القلب متصـــل
ما عشت زينب يبقى غـير منفصم[3]

* * *

ولفضيلة الرجل الصالح والتقى الورع ، الشيخ عبد السلام حماد ، امام وخطيب المسجد الزينبى بالقاهرة ، قصيدة عصماء ودرة يتيمـة ، كأنما صيغت كلماتها فى سلاسل من ذهب ، تضمنت وصفا صادقا للعقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها وصورتها تصويرا صحيحا ، جاء فيها :

الى مشرق الأنوار فى الـكون تنسب
فمشرق أنـوار الـوجود لهـا أب

الى صـفوة الخـلق النبى محمــد
امام جميـــع الرسـل تنسب زينب

فأين ائتلاق الشهب من فيض نورها
وأين النجوم الزهر ، أين الـكواكب

بل الشمس لاتسطيع فروعة الضحى
تحدى هذا النور فالشمس تغـــرب

وشمس ابنـة الزهراء باق ضياؤها
وليس لهـا عن ذى البصـيرة حاجب

---

(1) ام هاشم : من الأسماء التى تطلق على السيدة زينب .
(2) مستلم : استلم الحجر أى لمسه .
(3) منفصم : منقطع .

لهـــا لمحـــات فى القـــلوب تمســـها
فتنبـــع ايمـــانا من الله يـــوهب
وقد شـــع نور الحق من كلمـــاتهـــا
وفاضت لهـــا أنوار هـــدى ثواقب
فمن نور تقـــواها ومن نور علمهـــا
تزول ضـــلالات وتمحى غيـــاهب
ويقصدها العـــاصى فـــيرجـــع تائبا
الى الله مغفـــورا لـــه لا يحـــاسب
ويقصدها المكروب يســـأل ربـــه
بها ، فـــيزول الكرب عنـــه ويـــذهب
أجل ، فابنة الزهراء عاشت نقيـــة
مطهـــرة تخشى الالـــه وتـــرهب
وكم وقفت فى الليـــل خاشـــعة لـــه
الى جانب الزهراء والعـــين تســـكب
تقوم تجافى النـــوم وهى صـــغيرة
الى ربهـــا فى ليلهـــا تتقـــرب
فتحنـــو عليهـــا أمها وتضمهـــا
اليهـــا سرورا ، والملائـــك تـــرقب
وهـــل خـــلق الـــرحمن أما كأمهـــا
فمن ذا يدانيهـــا ومن ذا يقـــارب
ومن مثـــل بنت المصطفى فى سموها
لهـــا عند مولاها المقـــام المنـــاسب
هى الطهـــر ، والاطهـــار منها أئمـــة
هـــداة على مـــر العصور تعـــاقبوا
هى النور ، والعذراء مريم دونهـــا
وآســـية والأمهـــات الصواحب
صفت لعـــلى كـــرم الله وجهـــه
فأثمـــر غـــرث عاطـــر النشر طيـــب
فقد أنجبا السبطين هـــديا وحـــكمة
ونورا مبينـــا ســـاطعا ليس يحجب
كمـــا أنجبا للطهـــر زينب بـــرة
وســـيدة تسعى اليهـــا المواكب

جموع تـلاقى ها هنـا فى رحابهـا
لتمجيـد ذكـراها كمـا هو واجب
فصاحبة الشورى وهـذا مقامهـا
مقـام الى كل القـلوب محبـب
ألم يـك فى بيت النبـوة مهـدها
وكان لهـا فى مـنزل الوحى جانب
وقد منحت فى مهدها عطف جـدها
وكان يناغيهـا وكـان يـداعب
ويمزج ريـق الطيب عـذبا بريقها
لذا نشـأت فى الطـهر والنور زينب
وعاشت مع الأحـداث موفورة التقى
تخيف الطغـاة الظـالمين وتـرهب
وقـد ختمت فى أرض مصر نضـالها
فـتم لمـصر ما تريـد وتطـلب
فزينب فيهـا نفحـة نبويـة
تعم بهـا الخـيرات والله واهـب
سـلام عليهـا من قـلوب محبـة
تغـالب فيهـا الشوق والشوق أغلب
سـلام عليـكم أهـل بيت نبينـا
وحسـبكم أن الرسـول لـكم أب
عليـه صـلاة الله فى كل لمحـة
وطـرفة عـين ما أضـاءت كواكب

***

وجاء فى كتـاب « نور الابصار فى مناقب آل بيت النبى المختـار ، للشبلنجى » مناجاة كريمة للعقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، قدمها الاستاذ الشيخ عبد الرحمن الاجهورى ، نجتزىء منهـا الأبيات الآتية :

آل طـه لـكم علينـا الولاء لا سـواكم بمـا لكـم آلاء
مدحكم فى الـكتاب جاء مبينا أنبـأت عنـه مـلة سـمحاء
حبكم واجب على كل شـخص حدثتنا بضمنه الأنبـاء
كيف مدحى يفى بعليـاء من قد عجـزت عن بـلوغه الفصـحاء
شرفت مصرنا بـكم آل طـه فهنيئـا لنـا وحـق الهنـاء

منكم بضعة الامام على — سيف دين لمن به الاهتداء
زينب فضلها علينا عميم — وحماها من السقام شفاء
كعبة القاصدين كنز أمان — وهى فينا اليتيمة العصماء
وهى بدر بلا خسوف وشمس — دون كسف والبضعة الزهراء
وهى ذخرى وملجئى وأمانى — ورجائى ونعم ذاك الرجاء
من كراماتها الشموس أضاءت — أين منها السها وأين السماء
من أتاها وصدره ضاق ذرعا — من عسير أو ضاق عنه الفضاء
حلت الخطب مسرعا وجلته — فانجلى عنه عسره والعناء
لا يضاهى آل النبى وصيف — لا يوفى كمالهم أدباء
شرفت منهم النفوس وسادوا — حيثما أشرفوا فهم شرفاء
وعليهم جلالة وفخار — ووقار وهيبة وضياء
كل مدح مقصر بعلاهم — كل فرد من هديهم لألاء

الى أن قال :

يا كرام الورى أغيثوا نزيلا — أجحفته الخطوب والادواء
قسما ان وصفكم فى الثريا — أيدتكم نجومها والسماء
فتوسل بهم لكل صعيب — حيث جاء ابتغوا فهم شفعاء
وصلاة على النبى وآل — وكذاك الصحابة الأتقياء
ما حمام بروضة قد تغنى — أو على الدوح تسجع الورقاء
أو عبيد الرحمن أنشأ مدحا — آل طه لكم علينا الولاء

* * *

وخير ما نختتم به المدائح التى قيلت فى أهل البيت الكرام والعقيلة الطاهرة السيدة زينب رضى الله تعالى عنهم جميعا ، تلك الرباعية الرائعة التى قدمها الأديب الملهم والشاعر الكبير والمحب الصادق المرحوم الاستاذ محمد جاد الرب نكتفى منها بالآتى :

على الاعتاب يا آل النبى — وقفنا بين أيديكم نحيى
نحيى بالصلاة على الصفى — محمد النبى الهاشمى
على الزهراء أم النيرين — على السبطين قرة كل عين
حبيبى روحنا حسن حسين — على الأب فى معاليه على
على أبوابكم بابا فبابا — أناديكم وانتظر الجوابا
لأدخل بالرضا تلك الرحابا — فان رضاءكم شبعى وريى

بكم وبزينب طـــرزت شـعرى بكل ســـلالة البيت الأغـــر
وقفت عليكمو شـعرى ونـثرى فيـــاحظ الفواصـل والروى
لقـد باركـتم الأفطـار طـرا بمـكة أو بطيبـة أو بمـصرا
مقامكمو بهـا قـد طـاب نشرا فضـاع الكون بالعـرف الشذى

ضريح ومسجد
السيدة زينب رضى الله عنها

كان ضريح السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ـ وهو مكان اقامتها عندما وفدت الى مصر ـ يقع فى الجهة البحرية من دار مسلمة بن مخلد الأنصارى والى مصر من قبل يزيد بن معاوية ، وكانت هذه الدار تشرف على الخليج وجماميز السعدية .

وبمرور السنين والعهود على هذه الدار ، اندثر جزء كبير منها الا ما كان من الضريح الطاهر ـ فانه كان معظما مقصودا بالزيارة ، وموضع تبجيل واحترام الخاصة والعامة من الناس ، الذين كانوا يتعاهدونه بالتعمير والاصلاح وبناء كل ما يتصدع من جدرانه . وكان هذا المقام الكريم ، من جملة المشاهد المعدودة التى يتناوب خدمتها أناس انقطعوا لهذا العمل الطيب الجليل ، وكان يصرف عليهم من وجوه الخير ومن ريع الاعيان والممتلكات التى أوقفت على هذا الضريح الطاهر .

وفى زمن دولة أحمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٩٣ هجرية أى ٨٦٨ ـ ٩٠٥ ميلادية) أجرى على هذا المشهد الطاهر ، ما أجرى على المشاهد الاخرى من عمارة وترميم .

فلما جاءت الدولة الفاطمية (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هجرية أى ٩٦٩ ـ ١١٧١ ميلادية) ، كان أول من بنى عمارة جليلة عظيمة على هذا المشهد الطاهر من خلفاء الفاطميين ، أبو تميم معد نزار بن المعز وذلك فى سنة ٣٦٩ هجرية .

وقد ذكر الرحالة الأديب ، أبو عبد الله محمد الكوهينى الفارسى الأندلسى ، أنه دخل القاهرة فى ١٤ من المحرم سنة ٣٩٦ ، وأنه دخل مشهد السيدة زينب بنت على ، فوجده داخل دار كبيرة وهو فى طرفها البحرى ، يشرف على الخليج ، قال : فنزلنا اليه مدرج ، وعاينا الضريح ، وشممنا منه رائحة طيبة ، ورأينا بأعلاه قبة من الجص ، وفى صدر الحجرة ثلاثة محاريب ، وعلى كل ذلك نقوش فى غاية الاتقان ، ويعلو باب الحجرة

زليخة قرأنا فيها بعد البسـملة : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحـدا [1] » ، هذا ما أمر به عبد الله ووليه أبو تميم أمير المؤمنين الامام العزيز بالله صلوات الله تعالى عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين ، أمر بعمارة هذا المشهد على مقام السيدة الطاهرة بنت البتول ، زينب بنت الامام على بن أبى طالب ، صلوات الله تعالى عليهـا وعلى آبائها الطاهرين وأبنائها المكرمين » .

وفى أيام الحاكم بأمر الله ، أمر باثبات المساجد والمشاهد التى لا غلة لها ولا ريع ، وأوقف عليها عدة ضياع وقيساريات[2].وقد خص المشهد الزينبى بنصيب وافر من هذه الاوقاف ، وما برح كذلك الى أن زالت الدولة الفاطمية ودالت دولتها .

وظل هذا المقام الطاهر الذى يضم هذه البضعة الطاهرة ، موضع عنايه جميع الدول التى تعاقبت الحكم فى مصر ، كما قام عديد من أهل الفضل والعلم والولاية ، يتناوبون خدمة هذا المسجد . ومن أجل هؤلاء قـدرا وأعظمهم ذكرا ، السيد العارف بالله محمد بن أبى المجد القرشى المعروف بسيدى محمد العتريس المتوف فى أواخر القرن السابع الهجرى ، وهو شقيق القطب الكبير العارف بالله سيدى ابراهيم الدسوقى ، صـاحب المقام الكبير المشهور بمدينة دسوق بمحافظة كفر الشيخ ، وكذلك السيد العارف بالله سيدى محمد العيدروس المتوف ليلة الثلاثاء ثانى عشر من المحرم سنة ١١٩٢ هجرية ، وقد دفن كلاهما أمام المقام الزينبى الطاهر من الجهة البحرية .

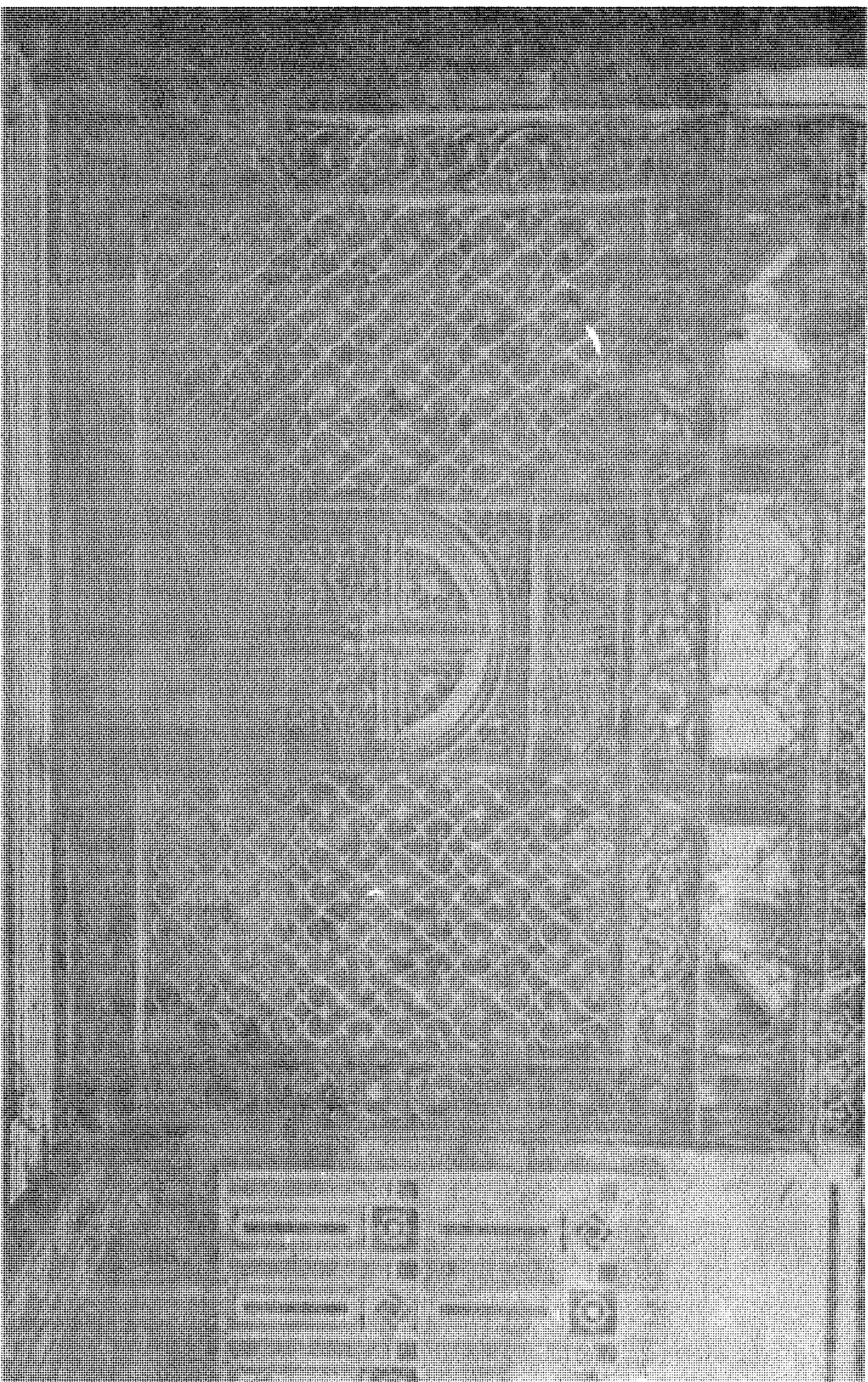
وفى القرن السادس الهجرى أيام الملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن أيوب ، أجرى الشريف فخر الدين ثعلب الجعفرى الزينبى ، أمـير القاهرة ونقيب الاشراف الزينبيين بها وصاحب البسـاتين التى عرفت بمنشاة ابن ثعلب ومنشىء المدرسة الشريفية التى تعرف الآن بجـامع العربى بالجودرية بالقاهرة ، عمارة واصلاحا على هذا المشهد الكبير .

وظلت تلك العمارة قائمة على هذا المشهد المبارك ، الى أن كان القرن العاشر الهجرى ، فاهتم الامير على باشـا الوزير والى مصر من قبل

---

(١) الآية ١٨ من سورة الجن .

(٢) أى أسواق ومحال تجارية .



السلطان سليمان خان بن السلطان سليم الفاتح ، بتعمير المشهد وتشييده، وجعل له مسجدا يتصل به ، وكان ذلك فى سنة ٩٥٦ هجرية •

وفى سنة ١١٧٤ هجرية ، أعاد الامير عبد الرحمن كتخدا القازدوغلى، بناء المسجد وتشييد أركانه ، وأنشأ به ساقية وحوضا للطهارة والوضوء ؛ وبنى كذلك مقام سيدى محمد العتريس •

وفى سنة ١٢١٠ هجرية ، جددت المقصورة الشريفة التى تحيط بالتابوت الطاهر المقام فوق القبر ، وصنعت من النحاس الاصفر ، ووضع فوق بابها لوحة نحاسية كتب عليها : « يا سيدة زينب يا بنت فاطمة الزهراء مددك ١٢١٠ » ، وما زالت اللوحة على الضريح الشريف حتى اليوم •

وحدث فى سنة ١٢١٢ هجرية أن تصدعت جدران المسجد ، فانتدبت حكومة المماليك ، عثمان بك المرادى لتجديده واعادة بنائه ، فابتدأ فى هدمه وشرع فى بنائه وارتفع بجـدرانه وأقام أعمدته ، الا أن العمل ما لبث أن توقف بسبب الحملة الفرنسية على مصر • وبعد خروج الفرنسيين من البلاد ، استؤنف العمل ، الا أنه لم يتم ، فأكمله بعد ذلك يوسف باشا الوزير سنة ١٢١٦ هجرية وأرخ ذلك بأبيات من الشعر خطت على لوح من الرخام نصها :

نـــور بنت النبى زينب يعـــلو مسجدا فيـــه قبرهـا والمـــزار
قد بنـاه الوزير صـــدر المعـالى يوسف وهـــو للعـــلى مختـار
زاد اجـلاله كمـــا قلت وأرخ مســـجد مشرق به أنـوار
١٢١٦ هـ

وبعد ذلك أصبح هذا المسجد محل رعاية حكام مصر من أسرة محمـد على ، فظل التعمير والتجديد يدخلان عليه • ففى سنة ١٢٧٠ هجرية ، شرع الخديوى عباس باشا الاول فى اصلاحه ووضع حجر الاساس ، ولكن الموت عاجله • فقام الخديوى محمد سعيد باشا فى سنة ١٢٧٦ هجرية باتمام ما بدأه سلفه ، وأنشأ مقام العتريس والعيدروس ، وكتب على باب المقام الزينبى هذا البيت من الشعر :

يا زائريها قفـوا بالباب وابتهلوا بنت الرسول لهـذا القطر مصباح

كما كتب على باب الطهارة الأبيات الآتية :

فى ظل أيـام الســعيد محمـد رب الفخـار مليك مصر الأفخـم

من فائض الاوقاف أتحف زينبـا عـون الورى بنت النبى الاكـرم
من يأت ينــوى الوضوء مؤرخا يسعد فأن وضـوءه من زمـزم
١٢٧٦

وفى سنة ١٢٩١ هجرية أمر الخديو اسماعيل بتجديد الباب المقـابل لباب القبة وجعله من الرخام . وفى هـذه المناسـبة قال السـيد على أبو النصر مؤرخا بتجديد هـذا الباب :

مقـام به بنت الامـام كأنمـا هو الروضة الفيحاء باليمن مونقـة
على بابهــا لاح القبـول لزائر ونور الهدى أهدى سناه ورونقـة
بأمر الخديوى جـــددته يد العلا فكانت بأسباب الرضـا متوثقـة
وفى حليـة التجديد قلت مؤرخـا شموس الحلى فى باب زينب مشرقة
١٢٩٤

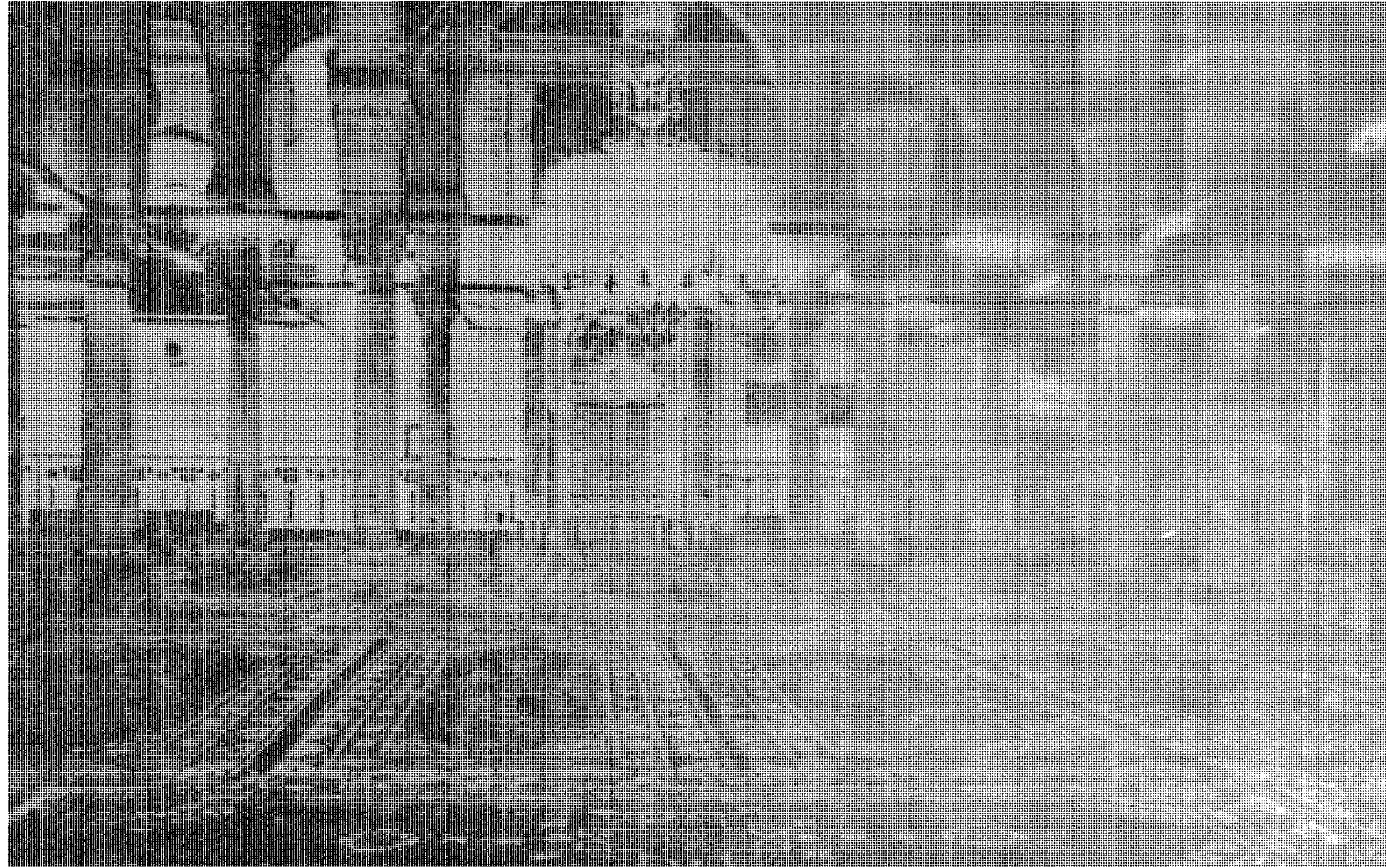
وفى نفس العام أى سنة ١٢٩٤ هجرية جدد الباب المقابل لبـــاب الضريح على الهيئة الموجودة الآن .

أما المسجد القائم حاليا ، فقد تم بناؤه على مراحل ثلاث،فبنى الجزء الأول منه وهو المطل على الميدان المعروف باسم ميدان السيدة زينب فى عهد الخديوى توفيق ، فتم ذلك فى سنة ١٣٠٢ هجرية أى (١٨٨٤ / ٨٥ ميلادية) ، وكتب على أبواب القبـة الشريفة التى تضم الضريح الطاهر للعقيلة السيدة زينب رضى الله عنها ، أبياتا من الشعر ، فعلى الباب المواجه للميدان وهو الباب المخصص حاليا لدخول السيدات لزيارة الضريح كتب ما يأتى :

قف توســـل بباب بنت على بخضـــوع وسـل اله السـماء
تحظ بالعـز والقبـــول وأرخ باب أخت الحسـين باب العـلاء
١٣٠٢

وكتب على أعلى الباب المطل على المسجد ، وهو الباب الذى يغـلق نهارا بباب حديدى أثناء زيارة السيدات ، ما يأتى :

رفعـوا لزينب بنت طـه قبـــة عليـــاء محكمة البناء مشـــيدة
نـور القبـول يقـول فى تاريخها باب الرضى والعـــدل باب السيدة
١٣٠٢



الصورة رقم ٢

أما الباب المعروف باسم باب الفرج ويؤدى كذلك الى الضريح من الناحية القبلية للمسجد ، فقد كتب فى أعلاه ما يأتى :

باب لبنت المصطفى صفوته يدخل من يشاء فى رحمته
كماله بزينب أرخه توفيق بانى العز فى دولته
١٣٠٢

وظل المسجد على تلك الحال حتى أدخلت عليه اضافات جديدة وذلك بتوسعته من الجهة القبلية تبلغ مساحتها حوالى ١٥٠٠ متر مربع تقريبا ، وقد تم ذلك فى عهد الملك السابق فاروق الاول وافتتح للصلاة فى يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة ١٣٦٠ هجرية (١٩٤٢ ميلادية) .

ولما رأت حكومة الرئيس جمال عبد الناصر زيادة اقبال الناس على هذا المسجد حتى ضاق عن أن يتسع للآلاف منهم خاصة فى أيام الجمع والأعياد ، أمرت باجراء توسعة عظيمة على هذا المسجد من الجهة القبلية أيضا ، وضمت اليه مساحة تقدر بحوالى ألفين وخمسمائة متر مربع . وبذلك اتصل المسجد الزينبى بمسجد الزغفرانى المجاور له من الناحية القبلية من ناحية شارع السد ، كما أقيمت به دورة مياه كبيرة للطهارة والوضوء ، بها تسعون صنبورا للمياه . وأعدت كذلك مكتبة كبيرة تضم عشرات الآلاف من المجلدات ، من بينها العديد من المخطوطات النادرة ، والحق بها قاعة فسيحة للمطالعة .

وصف المسجد على حالته الراهنة

يقع المسجد الزينبى فى الميدان المعروف باسم ميدان السيدة زينب . وكان هذا الحى يعرف سابقا باسم قنطرة السباع نسبة الى نقش السباع على قنطرة كانت موجودة وقتئذ على الخليج الذى كان يخرج من النيل عند فم الخليج وينتهى عند السويس . وكانت السباع شارة الظاهر بيبرس الذى أقام تلك القنطرة .

وفى عام ١٢١٥ هجرية ، تم ردم الجزء الاوسط من الخليج وبردمه اختفت القناطر ، ومع الردم تم توسيع الميدان .

وتبلغ مساحة المسجد وملحقاته حاليا حوالى سبعة آلاف من الامتار

المربعة ، وتشرف واجهته الرئيسية على ميدان السيدة زينب ، وبهــذه الواجهة ثلاثة أبواب تؤدى الى داخل المسجد مباشرة • وقد زينت تلك الابواب من كلا جانبيها وفى مستوى قامة الانسان ونظره بآيات من القرآن الكريم منقوشة على الحجر بخط الثلث الجميل ، كما زين أعــلا الابواب بأبيات من الشعر •

فخص جانبا الباب الشرقى للمسجد والمواجه للميدان وأقرب الابواب الى المحراب ، بالآية الشريفة :

« انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون • ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون [1] » • « لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شيء قدير [2] » •

كما كتب فى أعلى هذا الباب ما يأتى :

لزينب الحــرم المصرى جــدده خــديو مصر بترتيب وتنســيق
نور الكريمــة يحــكى حين أرخــه لى بيت ســـعد عليه باب توفيق
١٣٠٢

وخص جانبا الباب الاوسط المواجه للميدان كذلك بالآية الشريفة :

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان [3] » صدق الله العظيم •

« أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجدبه نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » [4] صدق الله العظيم •

كما كتب فى أعلى هذا الباب :

بتــوفيق العـــزيز بنـــاء بيت وقبـــة من بهـــا ترجى المنـــافع
فـــزر واقـــرأ وصل وسل وأرخ به سر لـــكل الخـــير جـــامع
١٣٠٢

---

(١) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٢٠ من سورة المائدة .
(٣) من الآيتين ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ٧٨ ، ٧٩ من سورة الاسراء .

ومن دقة صنع هذا الباب عند بنائه بالحجر ، أن كتب عليه لفظ الجلالة (الله) ضمن البناء فى الجزء الاعلى المقعر منه ، فظهرت بوضوح بالحجر الذى يميل لونه الى الاحمرار قليلا ، ذلك أن الحجارة التى استعملت فى بناء جدران المسجد كانت من لونين مختلفين .

أما الباب الغربى ويعرف بباب الطرقة،وهو أقرب الابواب المؤدية الى الضريح ، فقد كتب على جانبى مدخله الآية الشريفة :

« رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد [1] » . « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين واصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين [2] » صدق الله العظيم.

كما كتب فى أعلاه :

يا مسجدا قد شاده توفيق لابنة خير شافع
قد قيل فى تاريخه باب القربى لخير جامع
١٣٠٢

ثم ترتد الى الوراء هذه الواجهة المطلة على الميدان عند طرفها الغربى ، وفى هذا الارتداد باب آخر مخصص لدخول السيدات ويؤدى الى الضريح، وتقوم المئذنة على يسار هذا الباب الذى يعرف بباب العتريس . وقد خص هذا الباب من على جانبيه بالآية الكريمة :

« والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار . جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار [3] » .

كما كتب فى أعلاه :

رب بالشفاعة عند قبة زينب يلقاه غاد للمقام ورائح
من يمن توفيق العزيز مؤرخ نور على باب الشفاعة لائح
١٣٠٢

وقد تميز جدار هذا الجزء من المسجد باضافات من الشعر ليست على باقى الجدران . فكتب فى أعلى وسطه ما يأتى :

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة هود .
(٢) الآيتان ١١٤ ، ١١٥ من سورة هود .
(٣) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الرعد .

نحن آل البيت بيت الهـــــدى نســل طــه المصــطفى المرتضى
١٣٠٢

بيتنــــا سامى الذرى أرخــوا بابنــا المقبول باب الرضـــــا
١٣٠٢

وكتب على الجزء الأيمن من هذا الجدار وهو الذى تعلوه المئذنة ما يأتى:

بنى المســجد العالى العزيز لزينب وفيــه لها نور العنــاية برزخ
بنــاؤه بانيـــة فى اللــه مخلص بتكميــل توفيــق ببــر يــؤرخ
١٣٠٧

وفى هذا دليل على أن المئذنة استمر العمل فيها بعد افتتاح المســجد فى سنة ١٣٠٢ هجرية حتى تم تشييدها كاملة فى سنة ١٣٠٧ هجرية •

كما كتب على الجزء الايسر منه ما يأتى •

لمسجد ذات الخدر والستر زينب بهــا علا نور البــدور تطــاولا
فقــل للذى يرنو اليــه مــؤرخ بتوفيــق مولانا البنـــاء تكاملا

أما المئذنة التى تعتبر فريدة فى نوعها لمــا تتحلى به من نقــوش وزخارف عربية جميلة ، فانها ترتفع عن سطح الأرض بما يقرب من خمسة وأربعين مترا وبها ثلاث شرفات تحيط بها ، وأحيطت جدرانهــا بآيات من القرآن الكريم • فجاء فى الجزء الأعلى ما يأتى :

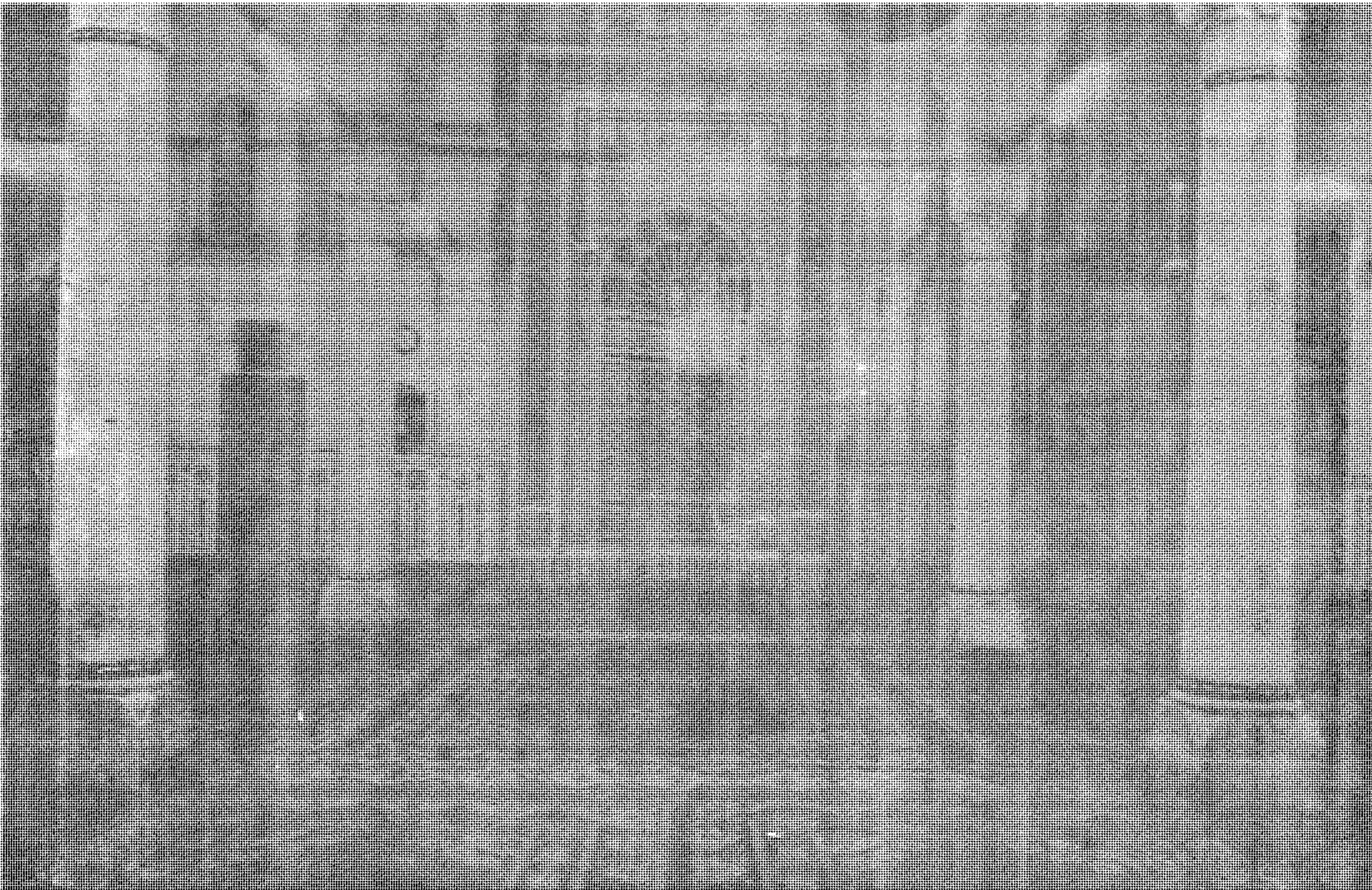
« ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما • ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا • وسبحوه بكرة وأصيلا • هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما • تحيتهم يوم يلقونه ســلام وأعدلهم أجرا كريما • يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ؛ وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا • وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضــلا كبيرا [1] » •

وجاء فى الجزء الأسفل ما يأتى :

« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعــلكم تفلحون • واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين [2] » •

---

(١) الآيات ٤٠ الى ٤٧ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة الجمعة .



الصورة رقم ٣

ويحيط بالركن الغربى البحرى للمسجد سور من الحديد يقع بداخله قبتان صغيرتان ملتصقتان ومحمولتان على ستة أعمدة رخامية بواسطة سبعة عقود • وقد أقيمت هاتان القبتان على قبرى العتريس والعيدروس رضى الله عنهما ، وكتب عليهما :

أولا : من الناحية المواجهة للميدان :

شـــاد ســـيد العصر فى مصره خير مقـــام قـــد زها كالعروس
من نـــور آل البيت تاريخـــه به ســـنا العتريس والعيدروس
١٢٧٦

ثانيا : من ناحية باب العتريس أى الباب المؤدى للضريح :

بسر ابن أبى المجد الدسوقى وصنوه
محمـــد العتريس كن متوســـلا

وتقع الواجهة الغربية للمسجد على شارع السد ، وبها مدخلان أحدهمـــا يتوسط التجديد والتوسيع الأول الذى تم فى سنة ١٣٦٠ هجرية (١٩٤٢ ميـــلادية) ، والثانى يتوسط التجديد الاخير الذى تم فى سنة ١٣٨٩ هجرية (١٩٦٩ ميلادية) • ويوجد فى أعلى جدار هذه الواجهة ساعة كبيرة دقاقة •

وللمسجد واجهتان أخريان ، احداهما على شـــارع العتريس وهى الواجهة الشرقية وبها مدخل يؤدى الى المكتبة وقاعة الاطلاع وباقى ملحقات المسجد ، والاخرى تطل على الفناء الواقع بين دورة مياه المسجد والجدار البحرى لمسجد الزغفرانى المجاور •

وقد أنشئت واجهات المسجد ومنارته وقبـــة الضريح على الطـــراز المملوكى ، وهى حافلة بالزخارف العربية والمقرنصات والكتابات •

والمسجد من الداخل مسقوف جميعه ، وحمل سقفـــه المنقوش كله بزخارف عربية على عقود مرتكزة على أعمدة بعضها من الرخام الابيض وذلك فى القسم الذى أنشىء فى سنة ١٣٠٢ هجرية . والبعض الآخـــر مرتكز على أعمدة من الموزايكو ، وذلك فى الاضافات التى تم بها توسيع المسجد • ويبلغ عدد الأعمدة التى تحمل السقف ١٢٤ عمودا بالاضافة الى ٣٠ قاعدة حجرية وهى التى يعبر عنها بالأكتاف ، أى أن السقف كله محمول على ١٥٤ عمودا وقاعدة • ويوجد بالمسجد محرابان ، أحدهمـــا أقيم عند انشاء المسجد الحالى فى سنة ١٣٠٢ هجرية ، أى قبل الاضافتين

اللتين ضمتا اليه ، وهو المحراب المواجه لضريح الشريف • ويعلو هذا المحراب لوحة تذكارية نقشت فوق الجدار بحروف مذهبة تبين تاريخ انشاء المسجد نصها :

« أمر بانشاء هذا الجامع الشريف والمقام الزينبى المنيف خديوى مصر المفخم » •

« محمـد توفيق »

« وقد باشر العمل وأتمه حسب الأمر محمد زكى باشا مدير الأوقاف »

« فى سنة ١٣٠٢ هجرية »

ويعلو الجزء الواقع أمام هذا المحراب ، منور (شخشيخة) بهـا نوافذ زجاجية • وقد زينت جدرانها الداخلية الاربعة بالنقوش العربيـة الملونة ، وكتبت حولها آيات شريفة من القرآن الكريم ، وكذلك بعض أبيات شعر من قصيدة بردة المديح للامام أبى عبد الله محمد البوصيرى رضى الله عنه ، وكل ذلك داخل عشرين اطارا ، بكل جدار خمسـة اطارات على الوجه الآتى وفقا لمـا اتسع له كل اطار :

الجدار الشرقى فوق المحراب

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس [1] »

« أهل البيت ويطهركم تطهيرا [2] »

« نبينا الآمر النـاهى فلا أحـد »

« أبر فى قول لا منه ولا نعم »

« هو الحبيب الذى ترجى شفاعته »

الجـدار البحـرى

« لكل هول من الاهوال مقتحم »

« دعا الى الله فالمستمسكون به »

« مستمسكون بحبل غير منفصم »

« ولن يضيق رسول الله جاهك بى »

« اذا الكريم تحلى باسم منتقم »

(١) ، (٢) من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب •

الجـدار الغـربى

« فان من جودك الدنيا وضرتها »
« ومن علومك علم اللوح والقلم »
« يا نفس لا تقنطى من زلة عظمت »
« ان إلكبائر فى الغفران كاللمم »
« لعل رحمة ربى حين يقسمها »

الجـدار القبـلى

« تأتى على حسب العصيان فى القسم »
« يا رب واجعل رجائى غير منعكس »
« لديك واجعل حسابى غير منخـرم »
« والطف بعبدك فى الدارين ان له »
« صبرا متى تدعه الأهوال ينهزم »

وكذلك يعلو الجزء الأوسط من المسجد والمواجه للمحراب السابق الاشارة اليه ، شخشيخة كبيرة جدا وهى الشخشيخة الثانية ، وبها نوافذ زجاجية ، وتتوسطها قبة صغيرة فتح بدائرها نوافذ من الجص المفرغ المحلى بالزجاج الملون ومعلق فى مركزها ثريا (نجفة) عظيمة •

وقد زينت جدران هذه الشخشيخة بآيات كريمة من سورة النور ، بدأت هـكذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم • الله نور السموات والأرض •••• الى ، يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار [1] » •

وجاءت بعد ذلك العبارة التالية :

« كتبه عبد الكريم فايق تحت نظر سعادة محمد زكى باشا مدير عموم الأوقاف المصرية حالا فى عهد العزيز خديوى مصر الأفخم محمد توفيق الأول سنة اثنين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة خير خلق الله وعلى أكمل وصف وعليه أفضل الصلاة وأزكى التحية » •

---

(١) الآيات من ٣٥ الى ٤٤ من سورة النور •

أما الشخشيخة الثالثة المواجهة لنفس المحراب ، وهى الواقعة أمام الضريح الشريف ، فقد كتب على جدرانها الأربعة الآيات الشريفة الآتية داخل عشرين اطارا موزعة بالتساوى بينها كالشخشيخة الأولى:

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم [1] » .

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم [2] » .

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين [3] » .

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين . ألا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون [4] » .

ويقع الضريح الطاهر بالجهة البحرية الغربية من المسجد ، وبه مثوى الطاهرة البتول السيدة زينب رضى الله تعالى عنها ، تحيط به مقصورة من النحاس الأصفر وتعلو المقصورة قبة من الخشب زينت كذلك من الداخل بالنقوش العربية الملونة وباطارات تضم آيات من القرآن الكريم ونبذة عن تاريخ صاحبة المقام الطاهر . ويحيط برقبة هذه القبة نوافذ من الخشب الخرط المعروف باسم الخرط الميمونى الدقيق الصنع .

ويعلو الضريح قبة مرتفعة ترتكز فى منطقة الانتقال من المربع الى الاستدارة على أربعة جدران من المقرنص المتعدد الحطات ، ويحيط برقبتها نوافذ جصية مفرغة بزجاج ملون . ونقشت جدران هذه القبة بالنقوش العربية الملونة ، وكتب عليها فى خطين متوازيين أحدهما يعلو

---

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٧٢ من سورة التوبة .
(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة يونس .
(٤) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة يونس .

الآخر ، آيات من القرآن الكريم ، فضلا عن نبذة عن تاريخ انشاء المسجد ، فجاء فى الجزء الأعلى منهما ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم • انا فتحنا لك فتحا مبينا • • •» الى قوله تعالى : « بل كان الله بما تعملون خبيرا [1] » •

« كتبه عبد الكريم فايق المولوى فى عهد خديوى مصر » •

أما الجزء الأسفل وهو أكبر مساحة من الأعلى ، فقد كتب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • سبح اسم ربك الأعلى • الذى خلق فسوى الى آخر السورة [2] • ثم :

« بسم الله الرحمن الرحيم • الله لااله الا هو الحى القيوم ••• » الى آخر آية الكرسى [3] • ثم :

« بسم الله الرحمن الرحيم • قل هو الله أحد • الله الصمد • لم يلد ولم يولد • ولم يكن له كفوا أحد [4] » • ثم نبذة أخرى عن تاريخ انشاء المسجد جاء فيها :

« كتبه عبد الكريم فايق المولوى تحت نظر محمد زكى باشا مدير عموم الأوقاف المصرية حالا فى عهد صاحب الدولة خديوى مصر الأفخم محمد توفيق وذلك فى سنة ١٣٠٢ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام » •

هذا فيما يتعلق بالقسم القديم من المسجد وهو الذى تم بناؤه فى سنة ١٣٠٢ هجرية ، أما التوسعة التى تمت فى سنة ١٣٦٠ هجرية (١٩٤٢ ميلادية) ، وهى التوسعة التى أقيم فيها المحراب الجديد الذى وضع المنبر بجواره ، فيوجد فى وسطها شخشيخة ذات نوافذ زجاجية ومعلق بوسطها ثريا من البللور الثمين القيمة ، وكتب على جدرانها الأربعة ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم • تبارك الذى بيده الملك وهو على كل

---

(١) الآيات من ١ الى ١١ من سورة الفتح .
(٢) سورة الأعلى فى الجزء الثلاثين من المصحف الشريف .
(٣) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٤) سورة الاخلاص فى الجزء الثلاثين من المصحف الشريف .

شىء قدير ٠٠٠ » الى قوله تعالى : « وأسروا قولكم أو اجهروا به انه عليم بذات الصدور [1] » .

ويلى هذه الشخشيخة من الناحية الغربية ، شخشيخة أخرى تقع أمام أول مدخل للمسجد من ناحية شارع السد وهو الذى يطلق عليه باب القبول كذلك ، فقد كتب عليها ما يأتى :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الله نور السموات والأرض ٠٠٠٠ » الى قوله تعالى : « ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب [2] » . صدق الله العظيم .

ثم اذا انتقلنا الى التوسعة الأخيرة الكبيرة التى تمت فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر (١٣٨٩ هجرية ١٩٦٩ ميلادية)، وهى التى بدىء فيها فى سنة ١٣٨٤ هجرية (١٩٦٤ ميلادية) كما يتبين من اللوحة التذكارية الرخامية التى أزيح عنها الستار بمناسبة بدء العمل فى المشروع والتى نصها :

---

(١) الآيات من ١ الى ١٣ من سورة تبارك .
(٢) الآيات من ٣٥ الى ٣٨ من سورة النور .



الصورة رقم ٤

بسم الله الرحمن الرحيم
فى عهد السيد الرئيس
جمال عبد الناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة
تفضل السيد المهندس
أحمد عبده الشرباصى
نائب رئيس الوزراء للاوقاف وشئون الأزهر ووزير الأوقاف
بوضع اللوحة التذكارية لتوسعة
مسجد السيدة زينب رضى الله عنها
وذلك فى يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٤
الموافق ٣٠ من أكتوبر سنة ١٩٦٤

اذا انتقلنا الى هذه التوسعة ، نجد أنها تحوى أربع شـخشيخات زينت جدرانها كلها بالآيات الشريفة والنقوش العربية على الوجه الآتى:

أولا : الشخشيخة الكبيرة فى وسط التوسعة ، ويعلوها قبة صـغيرة ويحيط برقبتها نوافذ جصية مفرغة بزجاج ملون ، وقد كتب عليها :

« بسم الله الرحمن الرحيم . تبارك الذى جعل فى السـماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ... » الى آخر سورة الفرقان [1] . صـدق الله العظيم .

« تم بعون الله تعالى فى سنة ١٣٨٧ هجرية » .

ثانيا : الشخشيخة التى تلى السابقة من الناحية الغربية وتقـع أمام المدخل الثانى للمسجد من ناحية شارع السد ، وتعلوها قبة من الحجر الصناعى ، فقد كتب عليها نفس ما كتب على القبة السابقة .

ثالثا : ويلى ذلك قبتان تقعان فى آخر المسجد من الناحية القبليـة

(١) الآيات من ٦١ الى ٧٧ من سورة الفرقان .

منه ، وهما أصغر مساحة من سابقاتهما ، فقد نقشتا كذلك بالنقـــوش العربية الملونة ، وزينتا بالآيات الشريفة الآتية من القرآن الكريم على الوجه الآتى على التوالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم • انا فتحنا لك فتحا مبينا •••• » الى قوله تعالى « وكان ذلك عند الله فوزا عظيما [1] » •

« بسم الله الرحمن الرحيم • الله نور السموات والأرض •• » الى قوله تعـــالى : « رجال لا تلهيهم تجـــارة ولا بيع عن ذكـــر الله واقام الصـــلاة [2] » •

وقد توجت جدران المسجد من الخارج من النواحى الشرقية والقبلية والبحرية بآيات شريفة من القرآن الكريم نقشت فوق الحجر داخـــل اطارات منقوشة كذلك وكتبت بالخط الثلث الجميل الذى يدل على دقة الصنع وحسن الذوق •

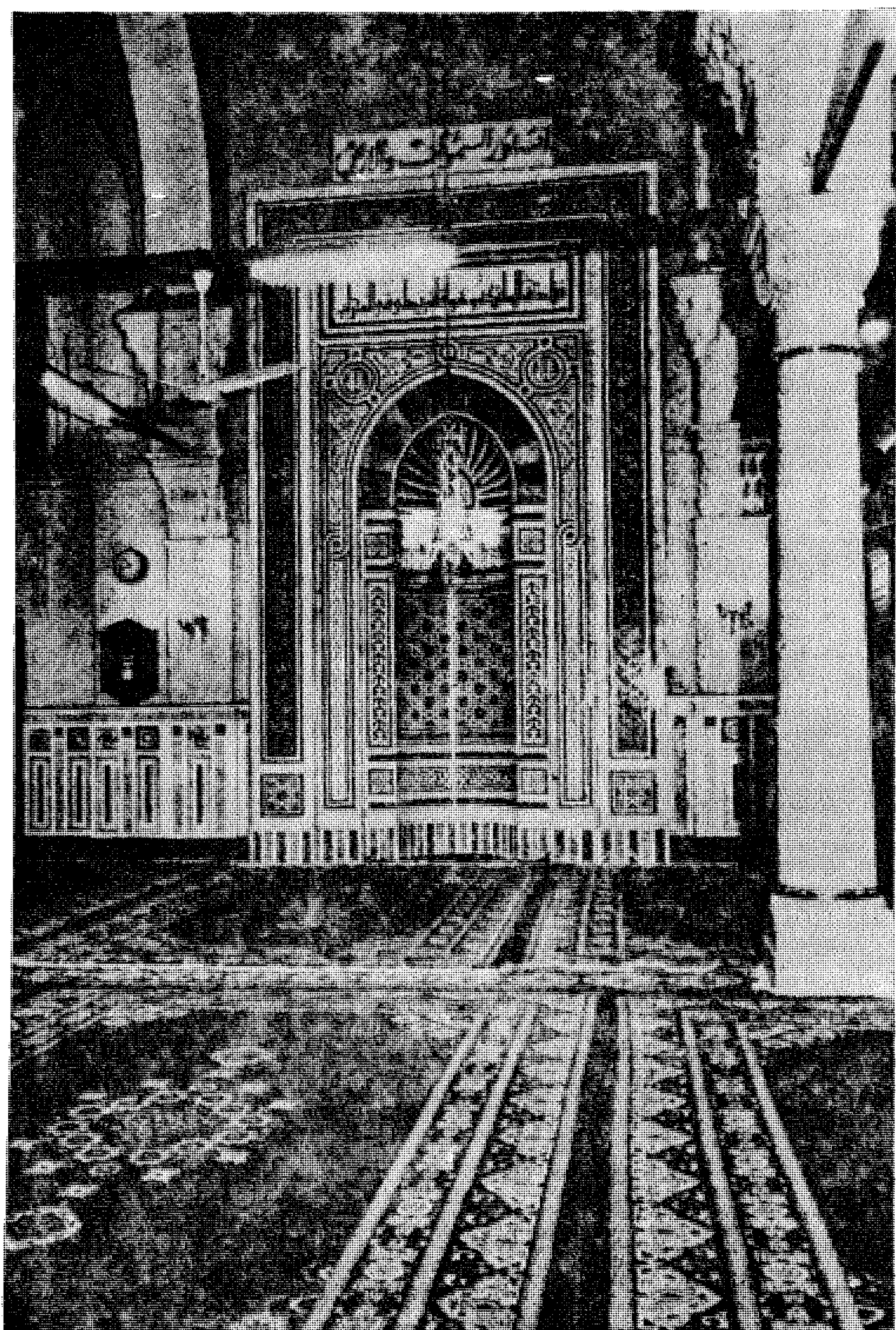
فكتب على الواجهة الشرقية المطلة على شـــارع العتريس الآيات الكريمة الآتيـــة :

« يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعـــم النصـــير [3] » •

« لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيـــه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين • أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفاجرف هارفانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين [4] » •

أما الجهة القبلية المطلة على الفناء الذى يفصل بين المسجد الزينبى ومسجد الزعفرانى المجاور ، فقد كتب على جدارها ما يأتى :

(١) الآيات من ١ الى ٥ من سورة الفتح .
(٢) الآية ٣٥ وجزء من الآية ٣٦ من سورة النور .
(٣) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة الحج .
(٤) من الآية ١٠٨ والآية ١٠٩ من سورة التوبة .



الصورة رقم ٥

« بسم الله الرحمن الرحيم • انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ؟ صدق الله العظيم [1] » •

أما الواجهة البحرية المطلة على الميدان فقد كتب عليها فوق الباب الأوسط ما يأتى :

« هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما • تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما [2] •

« انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين • صدق الله العظيم [3] » •

ياأيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا • وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا [4] » •

« وكان الله غفورا رحيما » •

* * *

الامامان العتريس والعيدروس
رضى الله عنهما

لعل من المفيد ، وقد أتينا بوصف دقيق للمسجد الزينبى ، أن نشير بعبارة موجزة الى الامامين العتريس والعيدروس رضى الله تعالى عنهما ، لنعرف القارىء بهما ، وليقف على شىء من تاريخهما ، خاصة وقد أنعم الله تعالى عليهما فدفنا أمام الضريح الزينبى الطاهر •

الامام العتريس

هو السيد الكامل ، والصوف الواصل ، العابد الزاهد ، المتبتل الناسك ، محمد بن أبى المجد بن قريش المشهور بالعتريس ، من الدوحة الحسينية المباركة ، اذ أن نسبه الشريف ينتهى الى الامام أبى عبد الله الحسين بن على رضى الله تعالى عنهما ، وهو شقيق سيدى ابراهيم

---

(١) الآية ١٧ من سورة التوبة .
(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٣) الآية ١٧ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ٤٦ ، ٤٧ من سورة الأحزاب .

الدسوقى رضى الله عنه ، صاحب المقام المعروف بمدينة دسوق بمحافظة كفر الشيخ ، وأمه فاطمة بنت أبى الفتح الواسطى رحمها الله .

وقد تفقه الامام العتريس على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه، وسلك مسلك السادة الصوفية واقتفى آثارهم ، وجلس فى المقام الزينبى الطاهر ليخدمه ويخدم زواره ، وكان عاكفا على عبادة الله تعالى وقراءة القرآن الكريم وتثقيف الناس وتعليمهم قواعد الدين الحنيف وارشادهم الى ما فيه خير الدنيا والآخرة . وظل ملازما للمقام الطاهر، سائرا فى الطريق القويم ، الى أن انتقل رضوان الله تعالى عليه الى الرفيق الأعلى فى أواخر القرن السابع الهجرى ، فدفن بالجهة البحرية من المقام الزينبى الطاهر ، وقد جدد بناء ضريحه الخديوى سعيد باشا ، وأقام عليه قبة كتب عليها :

بسر ابن أبى المجد الدسوقى وصنوه محمد العتريس كن متوسلا
١٢٧٦

الامام العيدروس

هو القطب اليمنى الأصل ، وجيه الدين أبو المراحم عبد الرحمن الحسينى العلوى العيدروس التريمى . نزيل مصر .

ولد بعد غروب شمس ليلة الثلاثاء التاسع من صفر سنة خمس وثلاثين ومائة وألف ووالده مصطفى بن مصطفى بن زين العابدين العيدروس ، ويتصل بالسلالة الحسينية الطاهرة ، وأمه فاطمة بنت عبد الله الباهر بن مصطفى بن زين العابدين العيدروس .

وقد نشأ رضى الله عنه على عفة وصلاح وتقوى فى حجر والده وجده ، وأجازاه وألبساه الخرقة وصافحاه ، وقد أخذ فى التفقه ، وساح مع والده فى بلاد الهند . ثم رجع الى اليمن حيث جدد العهد بذوى رحمه ، وتوجه الى مكة للحج وأخذ العلم والحديث عمن قابله .

ثم رحل الى مصر عن طريق السويس ، فكان يزور أضرحة الأولياء الصالحين ، ويمدح أصحابها بقصائد جليلة . ولما استقر به المقام بالقاهرة ، هرع اليه كل من عرف فضله وعلمه من العلماء والصالحين والأعيان ورجال الصوفية وغيرهم من الأمراء والكبراء ، وكانت له معهم مطارحات ومذاكرات .

وكان ممن زاره والتقى به ، شيخ زمانه سيدى عبد الخالق الوفائى ، فأحبه ومال اليه كثيرا لتوافق مشربيهما ، فألبسه الخرقة الوفائية ، وكناه أبا المراحم بعد تمنع كثير ، وأجازه أن يكنى من يشاء •

وفى سنة ١١٥٩ هجرية سافر صحبة الحجيج الى مكة ، وتزوج ابنة عمه الشريفة علوية العيدروسية ، وسكن بالطائف ، ثم عاد مرة أخرى الى مصر حيث استقر به المقام نهائيا ، فعكف على نشر العلم والفضيلة على كل من عرف فضله • وقد كتب العديد من المؤلفات القيمة ، وظل هكذا الى أن انتقل الى الرفيق الأعلى فى ليلة الثلاثاء ثانى عشر من المحرم سنة ١١٩٢ هجرية عن سبع وخمسين سنة تقريبا •

وخرجوا بجنازته من بيته فى قلعة الكبش بحى السيدة زينب الى أن صلى عليه بالجامع الأزهر • وكان أبو البركات سيدى أحمد الدردير هو الذى تقدم للصلاة على جنازته •

وقد دفن رضى الله عنه بمقام سيدى العتريس ، ولما جدد الخديوى سعيد باشا بناء الضريح ، كتب على القبة التى تعلوه ما يأتى :

شاد سعيد العصر فى مصره خير مقام قد زها كالعروس
من نور آل البيت تاريخه به سنا العتريس والعيدروس
١٢٧٦

رقم الإيداع ٣٩٠٢/ ١٩٩٢

مطابع الأوفست
بشركة الإعلانات الشرقية

فهرس الكتاب

الموضـــــوع	الصفحة

الفصل السابع